كلمة العدد

بقلم : الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

طرح خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود أمام المؤتمر الأول لوزراء الاعلام بالعالم الاسلامي الذي عقد مؤخرا بالمملكة العربية السعودية موضوعا في غاية الأهمية . فقد أشار العاهل الكبير إلى أن المؤرخين والاعلاميين دأبوا على إطلاق اسم الوهابيين على مواطني المملكة وأكد على أن ذلك يعتبر تركيزا على مسميات فرعية بعيدة عن الأصل الكبير واللواء الشامخ الذي ينضوى تحته الجميع وهو الاسلام فالكل مسلمون ذلك هو الاساس وذلك هو الاسم الواحد والصفة العظيمة التى يجب أن يتصف بها الجميع وأن يتسمى بها الجميع وأن يحملها الجميع بكل فخر واعتزاز.

ولقد كان لتوجيه خادم الحرمين الشريفين صدى عميقا في نفوس القيادات الاعلامية الاسلامية التى شاركت في المؤتمر وفي نفوس الملايين الذين تابعوا اعمال هذا اللقاء الكبير. ذلك التوجيه أو تلك الاشارة التى صدرت عن عاهل المملكة العربية السعودية مهد الاسلام العظيم انما يحتاج الى أن تواصل القيادات الاسلامية التأكيد عليه في خطط مستقبلية تتجه لشرح ما يتضمنه من المعاني وهي كثيرة وما يدل عليه من علامات وهي عديدة. وما يوحي به من اتجاه خيّر وهو عميق. ذلك أن المؤتمر ضم كل القيادات الاعلامية في الدول الاسلامية وهي القيادات التى بيدها توجيه هذا القطاع الهام والخطير في حياة الانسان المعاصر.

إن الاسلام العظيم رغم ما تعرض له طوال تاريخه من هجمات

ضارية وحروب متوالية. الا أن هذه الهجمات وهذه الحروب لم تستطع أن تنال منه أو تهز من صموده. و إنما الذي نال منه في فترة أو أخرى إنما كان الهجمات التي تأتيه من الداخل وقد كانت الهزائم العسكرية التى منى بها المسلمون في بعض حلقات تاريخهم نتيجة لهزائم أخرى سابقة حدثت بين صفوفهم. هذه الحقيقة أدركها جيدا أعداء الاسلام لذلك كان معظم اهتمامهم منصبا على تفتيت الصف الاسلامي. وهذا التفتيت أخذ اتجاهين رئيسيين استهدفا الدعامتين الكبيرتين اللتين قامت عليهما قوة الدولة الجديدة. منذ بدأ إنشاء هذه الدولة على عهد الرسول الأعظم هاتين الدعامتين هما وحدة الدين ووحدة الأمة. فقد كان العرب يعبدون آلهة متعددة وكانت الأمم التى دانت بالاسلام تدين بأديان وعقائد متباينة. وكان العرب قبل الاسلام قبائل شتى متقاتلة متصارعة تفتك بها النعرات الجاهلية والتفاخر بالأنساب والأحساب وكانت الأمم التى دانت بالاسلام تنهكها الحروب الداخلية بين مختلف الجنسيات والقوميات والأصول والمتناقضات. وعندما جاء الاسلام نادى بالدين الواحد وبالإله الواحد ونادى بالمساواة بين الجميع ونبذ الفرقة والشتات وجعل من كل المسلمين أمة واحدة ذات دين واحد. وبذلك جعل منهم قوة انطلقت لا يقف في طريقها شىء. قوة الاسلام إذن اعتمدت على وحدة الدين ووحدة الأمة. فكان من الطبيعي أن تتجه جهود أعداء الإسلام إلى هذين المصدرين من مصادر القوة. وأخذت هذه الجهود كما قلت سابقا اتجاهين رئيسيين.

الاول: هو تفتيت الدين فكان أن تسللت الدعوات المشبوهة وتسللت المذاهب والتيارات الفكرية وظهر العديد من المسميات ترفع شعار الاسلام وهي أبعد ما تكون عن الاسلام. وظهرت تيارات أخرى لمواجهة هذه التيارات والدفاع عن الاسلام وهي الأخرى حملت مسميات جديدة وشبت عشرات الحروب المذهبية في ضراوة وعنف واختلط الصحيح بغير الصحيح ولم يعد أحد يميز وسط الزحام بين من يريد بالاسلام شرا ومن يريد للمسلمين صلاحا.

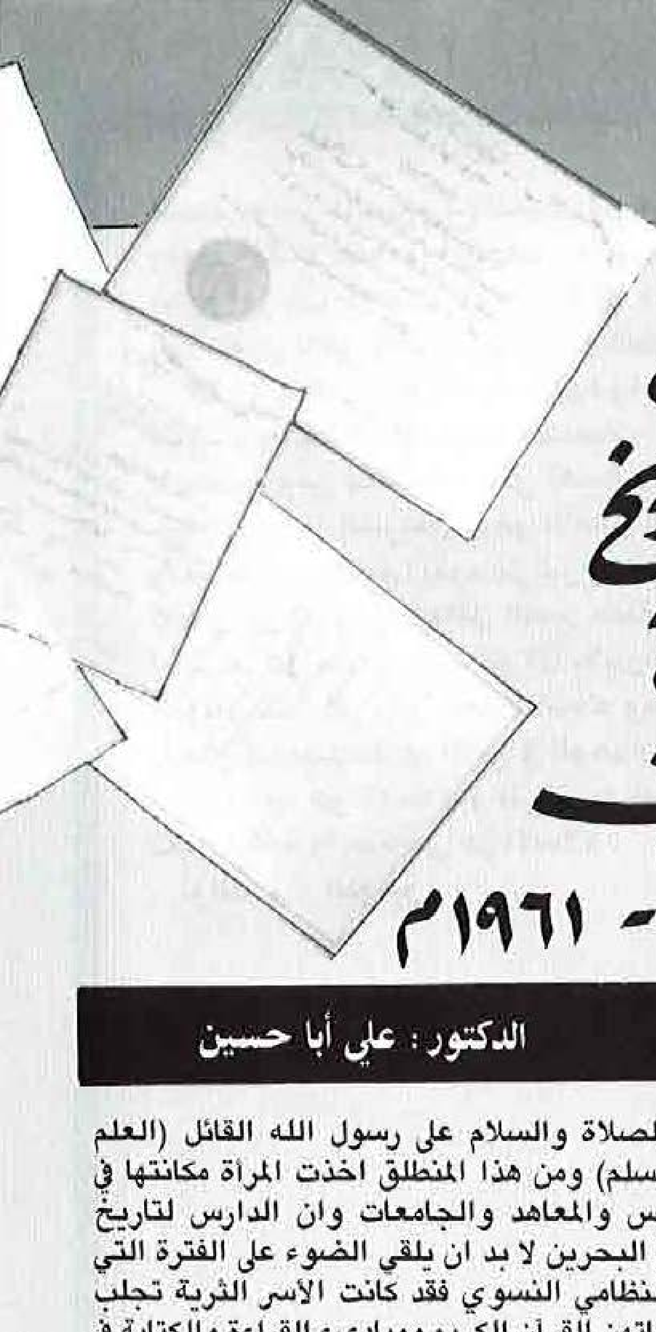
والثاني: هو إثارة النعرات العنصرية. ونشأت الصراعات على السلطة بين مختلف الجنسيات وتحولت الأمة الواحدة إلى جبهات

متعددة وأخذ المسلم يرفع السيف في وجه أخيه وتبددت القوة الواحدة وتوقف المد الاسلامي الزاحف.. وأصبحت الساحة خالية من الحشد الكبير وزحف الاعداء هذه المرة في ذكاء شديد. يذكون نار الفتنة وباستمرار حتى لا يخمد أوارها. وكانت مأساة الأمة.

هذه في سطور قلائل اسباب القوة وأسباب الضعف ومن هنا كانت كل دعوة لتوحيد الصف ونبذ المسميات المتعددة هي دعوة في الاتجاه الصحيح ومن هنا أيضا تأتي أهمية هذا الاعلان العظيم الذي أعلنه خادم الحرمين الشريفين. وهو الإعلان الذي يضع أمام مسئولي الاعلام والمؤرخين دورا كبيرا يقوم على شرح أهميته والتركيز على حملة اسلامية تنطلق من تصريح العاهل الكبير حملة تدعو لنبذ المسميات الجانبية والتركيز على مسمى واحد هو الاسلام والبدء بحركة تصحيح شاملة يتم التركيز فيها على رفع شعار الاسلام وحده دون باقي الشعارات حتى يتحقق للجميع حلمهم الكبير في الوحدة الاسلامية الشاملة التى تتسمى باسم واحد هو الاسلام والتى ترفع شعارا واحدا هو الاسلام والتى تعمل لغاية واحدة هي عز الاسلام.

والله ولي التوفيق..

عبدالله بن خالد آل خليفة



صفحات من تاريخ تعليم المرأة في البحرين بين ١٩٠٥ - ١٩٦١م

الدكتور : علي أبا حسين

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله القائل (العلم فريضة على كل مسلم) ومن هذا المنطلق اخذت المرأة مكانتها في الكتاتيب والمدارس والمعاهد والجامعات وان الدارس لتاريخ مدارس البنات في البحرين لا بد ان يلقي الضوء على الفترة التي سبقت التعليم النظامي النسوي فقد كانت الأسر الثرية تجلب معلمات يعلمن بناتهن القرآن الكريم ومبادىء القراءة والكتابة في بيوتهن بينما ترسل بعض الاسر الأخرى بناتهن الى (المطوعة) أو القارئة التي تعلم قراءة القرآن ومبادىء الكتابة مقابل اجرة شهرية تختلف من بنت لأخرى فهي أشبه بالمكافأة الرمزية بالاضافة الى ما يقدمه البعض من الأسر على شكل هدايا بالمناسبات الدينية وغيرها وقليل من الأسر هي التي ترسل بناتها الى المطوعة

للتعلم خشية خروج البنت وحدها الى المطوعة . أما البيت فكان بحد ذاته مدرسة تعلم البنت الخياطة والتطريز احيانا والطبخ وسائر الخدمات التي تتعلمها على يد أمها أو أختها الكبرى وكان لهذا التعليم أثر كبير في تكوين ربة بيت ماهرة جديرة بالاحترام بين قريناتها من ربات البيوت الاخرى ناهيك عن تمسكها بمكارم الاخلاق التي استمدتها من دراستها للقرآن المجيد ومن تربيتها بين أهلها وذويها .

اما (التعليم النظامي) النسوي في البحرين فقد كانت بدايته في مستهل عام ١٩٠٥م رغم معارضة الآباء وهذا ما يحدث في كثير من المجتمعات ، ورغم ان البعض يجعل من عام ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩م بداية لتعليم البنات في البحرين ولكن يمكن ان نعتبر ان اول مدرسة في البحرين اسست عام ١٩٠٥م على يد الارسالية الامريكية بينما تأسست اول مدرسة حكومية في البحرين عام ١٩٢٨ في المحرق . ولذا لا بد ان نلقي الضوء على مدرسة البنات التي تأسست في عام ١٩٠٥م والتي كان عدد طالباتها خمسين طالبة وكان متوسط الحضور اربع عشرة طالبة في السنة أي ان كثيرا من الطالبات كن يتغيبن لسبب أو لآخر ومن المدرسات الاوائل (السيدة ديكسترا) ثم حلت محلها (فان لوتون) و(جيني سكار فيلد) و(كيت او لكوت) .

وتقول (جيني سكار فيلد) : بانها بدأت في التدريس في المدرسة وهي خائفة من هذا العمل الريادي عندما حلت محل السيدة (ديكسترا) . وقد تأخر فتح المدرسة حتى ٢ يناير بسبب انتشار وباء الكوليرا وكان عدد البنات اللواتي التحقن بالمدرسة في البداية اثنتي عشرة بنتا ثلاث منهن مسيحيات



وتسع مسلمات .. وقد بدأنا بتدريس القراءة والكتابة ومبادىء الحساب كما كنا نعلمهن بعض التمرينات في الرياضة البدنية وكانت ساعات الدوام من الساعة السابعة والنصف الى الساعة الحادية عشرة صباحا ولمدة خمسة ايام في الاسبوع وفي البداية كان معدل حضور الطالبات سبعا بصورة متواصلة من بين اثنتي عشرة طالبة .

كما علمنا الخياطة وذلك مرة واحدة في الاسبوع ولما جُلبت ماكينة للخياطة اثار ذلك انتباه طالباتنا وان كان كثير من الأسر لديهم ماكينات للخياطة وقد تعلمت ثلاث بنات الخياطة بصورة جيدة . وكثيرا ما نواجه مشكلة عدم حضور بعض البنات للمدرسة بصورة منتظمة اذ كثيرا ما ينقطع بعضهن عن الحضور بعد تعلمهن قليلا من القراءة والكتابة وذلك بأن يمنعها زوجها أو والدها من مواصلة الدراسة ، أو قد يكون سبب الانقطاع هو ان ينصرف بعضهن لمساعدة ذويهن في البساتين في موسم جمع التمر والحطب والزراعة خاصة القرويات منهن وقد اشتكت لي احدى الطالبات من زوجة اخيها التي تمنعها من الخروج الى المدرسة . بينما جاءت الى المدرسة طالبة ووجهها مجروح نتيجة ضربات تلقتها من يد أحد اقاربها فرافقتها الى بيتها لأعرف السبب وسألت عمتها عن سبب الجروح فقالت بانها سقطت عندما كانت تجري واصيبت بجروح في وجهها وراسها .. وخافت البنت من عمتها وارتعشت بذعر شديد فعرضت عليها ان ترافقني الى المدرسة كي احميها من عمتها القاسية لكنها رفضت خشية ان تعاملها معاملة اقسى فيما بعد . ولقد كان الانضباط جيدا في المدرسة بحكم المراقبة الشديدة وقد اصبح مجموع عدد ساعات الحضور للطالبات في هذا العام ٢٥٣١ ، بينما كان معدل الحضور ١٤ طالبة ، وعدد ايام الدراسة في العام الواحد ١٧٩ يوما ، وعدد الطالبات اللواتي تم تسجيل اسمائهن ٣٤ طالبة .

وجدير بالذكر أن الدراسة كانت تستمر خلال العام الدراسي الى آخر يوم من شهر يونيو حيث ترتفع درجة الحرارة فيما بعد لدرجة لا يمكن والحالة هذه مواصلة التعليم حتى في الشرفة (الفرندة) وان العمل في المدرسة يستوجب الصبر والتسامح الى حد كبير فكثيرا ما تنقطع الطالبات أو يخرجن لحضور حفل زواج او اية مناسبة أخرى قد تكون تافهة .

ومن العادات السائدة زواج البنات في سن مبكرة قد تصل الى اثنتي عشرة سنة وبعضهن قد يزوجوهن ولهن من العمر تسع سنين .

وتفتح المدرسة ابوابها في اول اكتوبر ولا يحضر المدرسة الا عدد قليل من الطالبات لأن ازواجهن لا يسمحون لهن بالحضور في المدرسة وتحل محلهن بعض الطالبات الجديدات .

وفي العام التالي (١٩٠٦م) اصبحنا نعلم الخياطة مرتين في الاسبوع ولا يسمح للبنات ان يأخذن نتاج خياطتهن لبيوتهن[1] .

ولم نعلم كيف كان التعليم في هذه المدرسة بعد عام ١٩٠٦م الا ان تعلم البنات فيما يشبه الكتاتيب أو المطوعة استمر جنبا الى جنب مع التعليم بهذه المدرسة أو في المدارس الأهلية فيما بعد حتى اذا حل عام

١٩٢٨ ـ ١٩٢٩م بدأ التعليم النظامي الأهلي فقد أسست اول مدرسة ابتدائية اهلية مع معونات تحصل عليها من الحكومة وكانت اول معلمة هي (مريم الزياني) التي كانت تدرس القران الكريم ومباديء الدين وذلك في العشرينات(٢).

وفي العام الدراسي ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ حُوِّل منزل السيد عبدالرحمن الزياني في (المحرق) الى مدرسة للبنات وكانت مديرة المدرسة الاستاذة (فاطمة البياتي) ثم عينت المواطنة مريم عبدالله الزياني فزاد اقبال البنات على المدرسة وسجلت ١٠٤ طالبات فيها وكان قبل هذا التاريخ ببضع سنين يعتبر تعليم البنات بدعة وعملا لا يتفق مع العادات والتقاليد حسب رأي البعض الذي اخذوا يقاومون فتح مدرسة للبنات اذ واجه هذا العمل النقد الشديد من البعض ورغم ذلك فقد ازدهرت المدرسة ونالت تأييد الأسرة الحاكمة وطائفة من المثقفين واهتم الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة بالتعليم عموما وكان يشغل رئيس لجنة التربية الذي كان يهتم كثيرا بالتعليم وقتئذ ويدعو الى ضرورة انشاء المدارس وايده وساعده كثير من التجار والمثقفين ومنهم تاجر اللؤلؤ محمد علي زينل الذي كان هو الآخر يهتم بالتعليم كثيرا .

وسارت مدرسة البنات سيرا جيدا وكانت هيئة التدريس فيها تتكون من أم وأخت احد الأساتذة الذين يدرسون في مدرسة البنين ويشمل المنهج الدراسي القراءة والكتابة والحساب مع دروس في الخياطة والرسم وتمتعت المدرسة بشعبية واسعة ، حتى ان لجنة التربية والتعليم الحكومية تلقت طلبا لفتح مدرسة للبنات في المنامة لأن تلك المدرسة كانت في المحرق وافتتحت المدرسة في المنامة فزاد الاقبال عليها أكثر من المحرق وربما كان سبب ذلك لأنهم سمعوا عن النتائج المرضية لافتتاح مدرسة البنات في المحرق . ورغم ذلك فقد بقي هناك من يعارض تعليم البنات في المدارس .

وكانت تدير مدرسة البنات في المنامة مديرة ذات مؤهلات تربوية عالية وتضم المدرسة الطالبات البحرينيات والاجنبيات اللواتي يتلقين فيها التعليم الديني والقراءة والكتابة والحساب مع شيء من التعليم الفني كالرسم والخياطة والتطريز والرياضة .

وجدير بالذكر فقد التحقت بها الطالبات اللواتي كن يدرسن سابقا في مدرسة الارسالية لأن مدرسة المنامة النظامية كانت تتمتع بشعبية واسعة شأنها شأن مدرسة المحرق التي سبقتها في التأسيس بعام واحد بدليل زيادة نسبة الحضور(٣) ، وفي العام الدراسي التالي أي ١٩٣٠ ـ ١٩٣١م كان هناك مدرستان للبنات وعدد البنات فيهما نحو مائة طالبة بينما ارتفع عددهن في عام ٣١ ـ ١٩٣٢م الى ١٧٠ طالبة وان تغيرت نسبة الحضور في العام الواحد حسب المواسم . وارتفع الخط البياني لعدد الطالبات فوصل في عام ٣٢ ـ ٣٣هـ الى ٨٢٨ طالبة في المدرستين (المحرق والمنامة) وهنا بدأت مشكلة الحصول على معلمات مواطنات مؤهلات تأهيلا تربويا لادارة المدارس والتدريس .

وفي العام الدراسي ٣٣ ـ ١٩٣٤م قُبل في مدرسة المنامة ١٠٨ طالبات وفي مدرسة المحرق ٧٤ طالبة . وقد سجل عدد البنات في

مدرسة المنامة عام ٣٧ ـ ١٩٣٨م ارتفاعا ملحوظا واقيم معرض في المدرسة عرض فيه نتاج الطالبات من تطريز ومنتجات اخرى وكان العرض جيدا وفي مستوى عال .

وزاد عدد الطالبات في مدرسة (المنامة) في العام التالي الى ١٤٦ طالبة وخمس مدرسات والى ١١٦ طالبة في مدرسة (المحرق) وسبع مدرسات . وادخلت مواد دراسية جديدة في هذا العام كالتدبير المنزلي والطبخ وتصل أعمار الطالبات دون السادسة عشرة وهى سن الزواج حيث يتركن المدرسة .

وفي نهاية عام ١٩٣٩م زاد عدد مدارس البنات الى ثلاث مدارس في كل من (المنامة) و(المحرق) و(الحد) وكان عدد طالباتها على التوالي ١٩٠ و١٥٠ و٨٥ طالبة اذ تأسست مدرسة (الحد) للبنات في اواخر عام ١٩٣٩م . وفي بداية هذا العام الدراسي صدر أمر وزير التربية والتعليم الشيخ عبدالله بن عيسى آل خليفة بتعيين السيدة (بلكريف) وهي زوجة المستشار وقتئذ مراقبة لمدارس البنات وكانت تعمل تطوعا وبدون راتب أما مديرة مدرسة المنامة فهي زوجة المراقب في وزارة التربية والتعليم والتي عادت الى بلادها برفقة زوجها حين انتهت مهمة عمله وعينت مدرسة اخرى كمديرة للمدرسة وكانت هيئة التدريس على النحو التالي :

مدرسة المنامة : ويدرس فيها ثمان مدرسات سبع منهنّ من المواطنات.

مدرسة المحرق : ويدرس فيها ست مدرسات منهن خمس مدرسات من المواطنات .

ومدرسة الحد : ويدرس فيها ثلاث مدرسات مواطنات .

وكان منهج التدريس في هذه المدارس يتضمن : القرآن الكريم ومبادىء الدين والقراءة والكتابة والحساب والجغرافية والتاريخ والشعر والقواعد والانشاء والصحة والتدبير المنزلي والتصميم والأشغال اليدوية ويتم تعليم الانجليزية في الصفوف العليا فقط .

وكانت بعض الطبيبات أو الموظفات الصحيات يقمن بزيارات للمدارس للكشف والعلاج . ولم يقتصر التعليم في هذه المدارس على المواطنات فحسب بل كافة الجنسيات وبدون دفع أجور أي ان التعليم السنوي منذ بدايته في البحرين كان مجانيا ولا تدفع الطالبات الا لشراء القماش الذى يقمن بخياطته . ويتم تعليم البنات تفصيل الملابس ورعاية الأمومة والطبخ وذلك في مدرسة المحرق حيث توجد فيها مراقبة ذات مؤهل عال بينما لا يوجد في هذا العام مدرسة للخياطة والتدبير المنزلي في مدرسة المنامة ، أما في مدرسة (الحد) فيدرس فيها القرآن الكريم ومبادىء الدين الحنيف والقراءة والكتابة والحساب وكذلك التطريز فقط .

ولم يكن الهدف الرئيسي من تأسيس مدارس البنات وقتئذ تدريبهن لكي يتخرجن للعمل وكسب الرزق في الوظائف شأن مدارس البنين لانه لا توجد لهن فرص للتوظيف في ذلك الحين اللهم الا في دائرتي التربية والتعليم والصحة وانما الهدف هو تدريبهن على التدبير المنزلي وتربية الأطفال[٤] .

وسجلت مدارس البنات تقدما ملحوظا في عام ٤١ ـ ١٩٤٢م من حيث عدد الطالبات في مدارس كل من المنامة والحد والمحرق كما

فتحت في منتصف هذا العام مدرسة للبنات في (الرفاع) اذ اشترت الحكومة منزلا فحولته الى مدرسة ويتكون المنزل من ٣ غرف وساحة واسعة وعدة مبان فرعية . ويتم تعليم المواد الآتية في مدرسة الرفاع : القرآن الكريم والدين والكتابة والقراءة والحساب والخياطة والتطريز . وقدمت المدرسة نتائج لا بأس بها . ولقد زاد عدد الطالبات في مدرسة المنامة مما ادى الى توظيف ٥ مدرسات جديدات من المواطنات في هيئة التدريس وكذلك زاد عدد المدرسات في مدرسة المحرق . كما عينت مدرسة لتدريس اللغة الانجليزية وتفصيل الملابس والتحقت مدرسة اخرى بمدرسة المحرق . وكانت جميع المدرسات خريجات الثانوية العامة .

وقدمت طالبات مدرستي المنامة والمحرق تمثيليتين من أجل جمع تبرعات وتم جمع ١٦٠٠ روبية لهذا الغرض وقد بذلت الحكومة اهتماما بالغا بصحة البنات فكانت تقوم بعض الممرضات في المستشفى الحكومي بزيارة المدارس اسبوعيا وترسل المرضى من البنات الى المستشفى اذا لزم الأمر .

وان مستوى مدرسة الحد ليس مرضيا ويرجع السبب الى حد ما الى سوء تغذية البنات بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية .

الاحصائيات في بداية العام ونهايته :

عدد الطالبات	١/١ ١٣٦٠	١/١ ١٣٦١
المنامة	٢٤٣	٣١٠
المحرق	١٤٠	٢٠٠
الحد	٨٤	٩١
الرفاع	—	٧٦
عدد الاساتذة		
المنامة	٩	١٣
المحرق	٨	١٠
الحد	٣	٣
الرفاع	٣	٣

وفي عام ١٩٤٢ واجهت مدارس البنات عدة مشاكل بسبب تأخر التحاق المدّرسات من الخارج لمدة شهر وقد أدت المدرسات الوطنيات واجباتهن بحماسة على الرغم من مؤهلاتهن المتواضعة وقدمت مديرة مدرسة المنامة واختها استقالتيهما عقب ٣ شهور من مضي العام الدراسي وكان سبب الاستقالة مرض المديرة بينما استقالت أخت المديرة لمرافقتها للعلاج وبعد مغادرتهما باشرت المدرسات الوطنيات عملهن تحت اشراف السيدة بلكريف .

ولم تتغير مواد الدراسة ولم تستطع المدرسة تنفيذ عدة مقترحات كما أوقف تدريس الطبخ لعدم تيسر المواد الغذائية وبسبب ظروف الحرب العالمية الثانية وقد زاد عدد الطالبات فتم تشييد ثلاث غرف اضافية في مدرسة المنامة ورفضت طلبات من حوالي ١٠٠ طالبة للالتحاق بالمدرسة بسبب قلة المدرسات وعدم توفر الصفوف الكافية .

وتم توظيف خمس من عشر خريجات من الثانوية العامة للتدريس في المدرسة وعُينت السيدة (صواف) مديرة مدرسة المحرق ، كمراقبة المدارس . وبدأت المدرسة تقوم بتدريب الطالبات على ممارسة الرياضة البدنية وذلك في مدرستي المنامة والمحرق .

وتحسن مستوى صحة البنات هذا العام لأن معظم البنات في المحرق اما من الأسرة الحاكمة واما من طبقة التجار واستمرت زيارات اسبوعية من قبل احدى الطبيبات أو الممرضات .

واقيم معرض سنوي لاشغال الابرة والمطرزات في قصر المنامة حيث تكرم صاحب السمو بافتتاحه وكانت المعروضات على مستوى عال ونالت اعجاب الزوار وكان اليوم الأول للمعرض مخصصا للرجال وللنساء في اليوم الثاني ولم يتمكن بعض الزوار من الدخول الى صالات المعرض بسبب الزحام .

وقدمت مدرستا المنامة والمحرق تمثيليات وبلغت العائدات من بيع التذاكر ٢٠٠٠ روبية وتم صرفها لشراء الملابس للطالبات الفقيرات .

وجاء في تقرير من السيدة بلغريف عام ١٩٤٤م قولها :

لقد سجلت مدارس البنات تقدما ملموسا في هذا العام وفتحت صفوف دراسية اضافية في كافة المدارس في القسمين الابتدائي والثانوي وتضاعف عدد الطالبات في مدرستي الحد والرفاع واضيفت براستي أو غرف بنيت من جذوع النخل كصفوف دراسية في الحد والرفاع . ورُفضت طلبات العديد من الطالبات للالتحاق بالمدارس بسبب ضيق المحل وقلة عدد المدرسات وربما تتحسن الظروف بخصوص تشييد المباني بعد انتهاء الحرب .

وان كافة الطالبات المتخرجات استخدمن كمعلمات لكننا نحتاج الى المزيد منهن نظرا للتزايد في عدد الطالبات . وقد افتتحت مدرسة جديدة في المنامة بالقرب من حديقة البلدية واستأجرت الحكومة منزلا كبيرا من الطراز العربي من الأوقاف فأصبح المبنى محلا ملائما كمدرسة وحضرتها ٢٠٠ طالبة وازداد عدد المدرسات وقد عينت السيدة صواف (مديرة مدرسة المحرق) مفتشة لمدارس البنات وتم تشغيل ٣ معلمات من سوريا و١٠ من الوطنيات وقد يكون متاحا للبنات بعد الحرب الايفاد الى الخارج من أجل التدريب .

وحاولنا تسوية المناهج في المدارس المختلفة كي يسهل على البنات الانتقال من مدرسة الى اخرى لأن بعض الاسر تنتقل من المحرق الى المنامة في الصيف وتفضل البنات الحضور في المدارس القريبة من الحي الذي يسكنَّ فيه .

وعقدنا جلسات بصورة منتظمة للمدرسات لمناقشة شئون المدرسة وواجهنا في العام الماضي بعض الصعوبة في الحصول على الكراسات والأدوات الدراسية ، فاستخدمنا بعض الأوراق القديمة وبطاقات التهنئة .. الخ في رياض الاطفال . وتوقفنا عن تدريس التدبير المنزلي وخاصة الطبخ بسبب عدم توفر المواد الغذائية لهذا الغرض وفرض القيود على توزيع الحبوب الغذائية ، واقيم معرض للتطريز كالمعتاد في قصر سمو الشيخ سلمان وبيعت كافة المعروضات بسرعة وبلغت المبيعات ٥٩٠٧ روبيات . عرض تاجر محلي شراء المعرض بأكمله بمبلغ ضخم لكننا رفضنا ذلك وتم توزيع الجوائز على الطالبات لجودة تطريزهن من قبل السيدة الاولى حرم الحاكم .

وزارت الدكتورة دويج مدرسة المنامة

وقامت بفحص طبي للبنات كما كانت ممرضة من المستشفى الحكومي تزور مدرستي المحرق والمنامة كل اسبوع بانتظام وقد تحسنت صحة الطالبات هذا العام .

عدد البنات في المدارس
في نهاية العام (١٩٤٤م)

مدرسة المنامة	٣٥٣
مدرسة المنامة الجديدة	٢١٠
مدرسة المحرق	٣٠٠
مدرسة الحد	١٦٥
مدرسة الرفاع	١٣٩
المجموع	١١٦٧

وبلغت التكاليف السنوية ٥٧,٣٠٠

اما التكلفة المتوقعة لعام ١٣٦٤هـ (١٩٤٥م) فهي ٨٠,٠٠٠ روبية ويرجع السبب لارتفاع المصاريف لزيادة عدد المدرسات والعلاوات الحربية وغلاء المعدات المدرسية .

والخلاصة فان التعليم النسوي تطور تطورا ملحوظا اذ لم تدم المعارضة طويلا والتحقت بالمدرسة حتى بنات اولئك الذين عارضوا المشروع في الأمس القريب ، ثم سجل تعليم البنات في البحرين في الأعوام التالية تقدما ملحوظا دون أي عراقيل ولم يتأثر بأي عوامل اخرى . ومن بعض النواحي كانت استجابة البنات للتربية والتعليم أعلى وأحسن من البنين وتبقى البنات في المدرسة حتى يبلغن من العمر بين ١٥ و١٧ سنة أي الى سن الزواج مما يعطي لهن فرصة اكمال الدراسة قبل الزواج .

ولقد اقيم اول معرض لمطرزات بنات المدرسة في عام ١٩٣٤ ونال المعرض اعجاب الزوار واصبح بيع المعروضات فيما بعد حدثا سنويا كما يعقد المعرض في قصر المنامة بإذن من صاحب السمو ويجذب عددا كبيرا من الزوار . وان اليومين من الايام الثلاثة للمعرض يخصصان للنساء فقط حيث تتاح الفرصة للقاء بين سيدات الاسرة الحاكمة وزوجات التجار العرب البارزين وبقية نساء مجتمع البحرين .

لقد اشترت الحكومة في ٢٧ ـ ١٩٣٨م (١٣٥٦هـ) قطعة ارض في المحرق وبنت عليها مدرسة حديثة وصحية مع ملعب يحيطه سور وسكن للمدرسات وفي نفس العام تم تعيين مديرة في مدرسة المحرق وهي تحمل مؤهلا جامعيا وتشرف السيدة بلكريف على مدارس البنات منذ بضع سنوات . وعينت مديرة لتعليم البنات رسميا في ٣٨/١٩٣٩م (١٣٥٧هـ) دون راتب . ومن هنا أدخلت مواد جديدة في منهج الدراسة ومنها التدبير المنزلي والطبخ مما اصبح مقبولا لدى الطالبات لحد كبير ولكن اوقفا بسبب قلة المواد الغذائية وبالاخص في ايام الحرب ثم انشئت مدرسة في الحد في ٣٩ ـ ١٩٤٠م (١٣٥٨هـ) .

وقد انشئت مدرسة أخرى في الرفاع في ١٩٤١ كما زاد عدد الطالبات في كل من المنامة والمحرق وبدأ توظيف خريجات الثانوية العامة بالاضافة الى مدرستين جامعيتين وعقدت الامتحانات بانتظام ووزعت الشهادات للفائزات وحصل تعاون وثيق بين المدارس والمستشفى مستهدفا تحسين صحة الطالبات ونظمت زيارات منتظمة للدكاترة والممرضات وتم ارسال

البنات لمستشفى النساء عند اللزوم للعلاج وكان من المتوقع ان هذا التعاون سيؤدي الى اختيار البنات التمريض مهنة لهن الا ان هذا الهدف لم يتحقق وادخلت بحرينية واحدة فقط سلك التمريض والمجال الوحيد لتوظيف البنات هو المدارس الحكومية كمدرسات .

وبلغ عدد الطالبات في ١٩٤٢م ، ٨٠٠ طالبة في مدرستي المنامة والمحرق لكنه كان من الصعب الحصـول على المـدرسات المسلمـات من الخارج ولم يكن عـدد الخريجات في الثانوية العامة من المستوى المطلوب لاستخدامهن كمدرسات .

ولقد أسست روضة للأطفال في المحرق في ١٩٤٢ وتحسنت صحة البنات وقام الطبيب الرسمي الدكتور (سنو) بفحص النظر للبنات في مدرستي المنامة والمحرق ووجد بأن معظم البنات كن مصابات بمرض التراخوما وعلى الرغم من ان البنات تعلمن في المدرسة مبادىء النظافة وعلم الصحة الا ان الظروف المعيشية في البيت لم تسمح لهن بفرصة تطبيق هذه المبادىء عمليا وعانت بعض المناطق خاصة الرفاع من نقص الماء وغلائه مما ادى الى رداءة صحة الاطفال .

وكان عام ١٩٤٣م (١٣٦٢هـ) عاما صعبا تأخر المدرسون المنتدبون بسبب مشكلة المواصلات وفتحت مدرسة جديدة في المنامة بالقرب من حديقة البلدية وسجل فيها ٢٠٠ بنت وعينت مدرسة بحرينية كمديرة للمدرسة وسبق لها ان حصلت على تدريب في كلية بالخارج .

وفي نوفمبر من عام ١٩٤٨ كتبت السيدة (بلكريف) تقريرا قالت فيه :

انه لم تفتح مدرسة جديدة في هذا العام ولم يجر العمل في مدرسة خديجة الكبرى (المحرق) ومدرسة الرفاع كما يرام بسبب عدم كفاءة مديرتيهما وعزلتا وحل محلهما معلمتان متعاقدتان من لبنان حتى تكتسب المعلمات الوطنيات خبرة في التدريس لحين موعد زواجهن ثم يتركن المدرسة فعلينا ان نبدأ من جديد بالمستجدات الا ان عدد الطالبات قد قل بسبب هذه الظروف .



صورة لطالبات مدرسة البنات في البحرين عام ١٩٠٥م



سمو المغفور له الشيخ حمد بن عيسى بن علي ال خليفة وعلى يمينه والدة المستشار بلجريف في الخلف ومن اليمين الى اليسار الشيخ دعيج بن حمد ال خليفة وعبد الله بن جبر الدوسري ثم مسز سكينر ثم مسز بلجريف (زوجة المستشار بلجريف) ثم احدى الممرضات ثم الشيخ عبد الله بن حمد ال خليفة . في خلفية الصورة يقف الى اليسار المستشار بلجريف الصورة اخذت بلندن خلال زيارة سمو المغفور له الشيخ حمد لها .

وعينت ممرضة اجنبية من الدائرة الصحية لتعمل في المدارس فقط وكانت تزور احدى المدارس يوميا . وتحسنت صحة الطالبات وكذلك مستوى النظافة. وتم عقد معرض للتطريز في قصر القضيبية ونالت المعروضات اعجاب المشترين لجودة صنعها . وكانت الكتب الدراسية تستورد من مصر. وقد تأخرت الكتب لهذا العام بسبب تحويل العملة. ومن المنتظر ان تصل الكتب اثناء العام الحالي .

ويمتاز هذا العام بالتعاون الوثيق ما بين المعلمات في هيئة التدريس.

عدد الطالبات في عام ١٩٤٨م

في مدرسة عائشة أم المؤمنين (مدرسة المنامة)	٣٥٣
وفي مدرسة خديجة الكبرى (مدرسة المحرق القديمة)	٣١٩
وفي مدرسة فاطمة الزهراء (مدرسة المنامة الجديدة)	٢٣٤
وفي مدرسة المحرق الجديدة	٢٣٦
وفي مدرسة الحد / الرفاع	١١٠ / ١٠٤
المجموع	**١٣٥٦**

هيئة التدريس

مفتشة	١
مدرسات اجنبيات	٩
مدرسات وطنيات	٥٤
المجموع	٤٦ مدرسة

واستمر العمل طوال العام الدراسى ١٩٤٩ - ١٩٥٠م بشكل عادى الا ان مدرسة خديجة الكبرى وهى (مدرسة المحرق القديمة) ظلت بدون مديرة لان المديرة الجديدة التى تم تعيينها لم تلتحق بالمدرسة لاسباب صحية. وفى آخر السنة انتدبت مدرسة الرياضيات الى مدرسة المحرق للانضمام لهيئة التدريس وكان مستوى الرياضيات ضعيفاً فى كافة المدارس ولكن تعيين معلمة خاصة لتدريس الرياضيات اسفر عن نتائج ايجابية فى نهاية العام الدراسى وذلك بعد ظهور نتائج الامتحانات. واحرزت كافة الطالبات درجات اعلى. وحصلت طالبة على منحة دراسية للدراسة بالخارج وقد سبق ان اكملت الصف السادس فى المنامة سجلت هذه الطالبة تقدما مرضيا هناك طبقاً للتقارير الواردة كما ارسلت ثلاث طالبات من خريجات المدارس فى البحرين الى كلية بريطانية فى بيروت وذلك قبل بضع سنوات من نشوب الحرب العالمية الثانية. ومنذ ذلك الحين لم ترسل اية بنت بحرينية الى الخارج للدراسة. وكان عدد البنات فى الفترة الاولى للعام الدراسى ١٣٥٦ طالبة وذلك فى ٦ مدارس وبينما بلغ عدد الطالبات ١٧٦٣ طالبة فى الفترة الثانية. وتقول السيدة بلكريف فى تقريرها لم نتمكن من قبول كافة المستجدات اللواتى رغبن فى الالتحاق بالمدارس بسبب ضيق المدارس وحتى اذا تيسر محل اوسع لم تتوفر المعلمات الا الاجنبيات. وان الصفوف الابتدائية كانت مزدحمة ونسبة الحضور فى الصفوف العليا كانت ضئيلة كالمعتاد.

وكانت زيارة المرضة مستمرة للمدرستين يوميا وتنقل الطالبات للمستشفى عند اللزوم كما يتم تطعيم البنات ضد الجدرى. وفى هذا العام حصلت ١٤ طالبة على الشهادة الابتدائية ولقد اقترح البعض انشاء مدرسة ثانوية للبنات ولكن هل هذه الفكرة تحصل على تأييد الناس انه امر مشكوك فيه. قد تحضرها بعض البنات فى بداية العام ثم ينقص عددهن تدريجا بسبب زواجهن او معارضة اسرهن لمباشرتهن الدراسة: فقد رفعنا مستوى الشهادات الثانوية فى السنتين او الثلاث السنوات الماضية وان خريجاتها اصبحن مدرسات لا بأس بهن لكنه من الصعب تدريبهن على نقل المعلومات الى التلميذات خاصة فى روضة الاطفال حيث يصل عدد الاطفال الى رقم ملحوظ.

وحصلنا على طاولات وكراس لروضة الاطفال من الخارج ولم يكن الحصول على الكتب صعبا وهكذا اصبحت الامور سهلة.

ومن النشاطات اللاصفية ان اقيم معرض لما قامت به الطالبات من تطريز وخياطة وذلك فى قصر القضيبية كالمعتاد وحضره جمع غفير.

وكانت هيئة التدريس فى هذا العام تتكون من مشرفة واحدة و١٢ معلمة اجنبية و٦٠ معلمة من المواطنات.

وفي عام ١٩٥٠ ـ ٥١ تم تشييد مدرسة جديدة واسعة وغرف لسكن المدرسات الاجنبيات في الطابق العلوى على اساس غرفة مفردة لكل مدرسة وحمام لكل غرفتين. يضم القسم السكنى صالة الاستقبال وصالة الاكل ومطبخا وحماما وغرفة لكي الملابس ونظاما لتسخين الماء. وقد شيدت بناية المدرسة على ارض حديقة البلدية القديمة.

وليست هذه الا مدرسة (الزهـراء) بمساحة اوسع من الاول تضم صفوفا اكثر. وبدأت دراسات للمرحلة الثانوية في هذه المدرسة وكان عدد الطالبات احدى عشرة طالبة. ومع انه يمكن انشاء مدرسة ثانوية مستقلة في وقت لاحق الا ان الآباء لا يسمحون لبناتهم بحضور المدرسة الثانوية وكذلك ترتفع تكاليف استخدام المعلمات للصفوف الثانوية. وكان متوسط عمر الزواج في البحرين اقل بكثير من البلاد الغربية وتسحب البنات من المدرسة عندما يصلن الى سن الخامسة عشرة لذا فان عدد الخريجين في الثانوية للبنين اكثر بكثير من الخريجات.

وان نسبة الالتحاق بكافة المدارس عالية جدا وتفوق سعتها

وتستطرد السيدة بلكريف في تقريرها السنوى بقولها ـ واضفنا في هذا العام الى هيئة التدريس ٥ مدرسات اجنبيات.

ومن الصعب التحاق المواطنات في مهنة التدريس لانهن يعتبرنها وظيفة صعبة وعلى الرغم من تواجد الكتب العربية في المكتبة فانهن لا يرغبن في قراءتها الا قليلات منهن. ولا تحمل المدرسات المواطنات في الغالب الا الشهادة الابتدائية. كما كنا نواجه ايضا مشكلة المواصلات بسبب ظروف الحرب فليست لدينا الا سيارة باص قديمة لنقل ٢٠ معلمة من المنامة الى المحرق والرفاع والحد وان السيارة غير سليمة وتتعطل عدة مرات وتتكلف كل طالبة ٢٠٤ روبيات سنويا. وعدد الطالبات كالآتي: مدرسة عائشة ٤٧٣، فاطمة الزهراء ٤١٣، خديجة الكبرى ٤٦٩، مريم بنت عمران ٢٩٣، الحد ١٥٢، الرفاع ١٤٩، الثانوية ١١ المجموع ـ ١٩٦٠، هيئة التدريس (الاجنبيات) مشرفة ١، و١٨ معلمة وممرضة واحدة.

اما المواطنات ٦٠ معلمة.

وفي تقرير هذا العام ١٩٥١ ـ ١٩٥٢م فتحت مدرسة الزهراء ابوابها لتستقبل الطالبات في مبناها الجديد في منطقة صالحة ومناسبة كمدرسة للبنات. وسجل في الصف الدراسي الثانوي عدد جيد من الطالبات الناجحات من المدارس الحكومية ومن مدرسة الارسالية للبنات وخصصت غرفة واحدة لكل مدرسة لعرض معروضاتها من التطريز.

واستخدمت في هذا العام ممرضـة فلسطينية.

وكانت الحاجة ماسة الى مدرسة اخرى في غرب المنامة واصبح عدد الطالبات في هذه السنة الدراسية:

في مدرسة عائشة ام المؤمنين	٤٧٣
في مدرسة فاطمة الزهراء	٤١٦
في مدرسة خديجة الكبرى	٤٦٩
في مدرسة مريم بنت عمران	٢٩٤
في مدرسة الحد	١٥٢
في مدرسة الرفاع	١٤٩
في مدرسة ثانوية	١١

المجموع	١٩٦٤

اما هيئة التدريس فكان عددهن:

من الاجنبيات. مشرفة	١
ومن معلمات	١٢
ومن ممرضات	٢

اما المواطنات فكان عددهن: ٦٥ معلمة وكاتبتان.

وفى التقرير السنوى لعام ٥٢ - ١٩٥٣م

فتحت ٣ مدارس فى كل من المنامة والمحرق والرفاع الغربي وعادت الطالبة المبتعثة الى لبنان فسجلت نجاحا كبيرا ثم نقلت الى الكلية لاكمال دراستها الجامعية بالخارج. ومارست المرضة نشاطها بانتظام.

فتحسنت صحة الطالبات

وكان عدد المدارس	٩ (ابتدائية)
	١ (ثانوية)
اما عدد الطالبات	٢٢٧٢ طالبة

وافتتحت مدرستان للبنات فى خريف عام ١٩٥٥ ومنهما مدرسة ابتدائية فى القضيبية والثانية فى المحرق وكان هناك اربع مدارس ابتدائية فى المنامة واربع فى المحرق وواحدة فى الحد وواحدة فى الرفاع الشرقى وواحدة فى الرفاع الغربى .

ومدرسة ثانوية وفيها ٤٠ طالبة وقد زاد عدد طالباتها فى هذا العام واستخدمت دكتورة اجنبية وهى اخصائية فى امراض الاطفال وممرضة هندية وممرضتان فلسطينيتان لفحص وتطعيم كافة الطالبات.

واقيم معرض التطريز فى شهر ديسمبر وكان المعرض يقام فى شهر ابريل ولكن بسبب قرب موعد الامتحان اقيم فى ديسمبر. وبدأت البنات الكبيرات يظهرن عدم رغبتهن فى التطريز والتدبير المنزلى مع ان هذه المواد تساعدهن فى بيوتهن اكثر من مجرد دراسات كتابية .

وكان عدد المدارس فى نهاية هذا العام احدى عشرة مدرسة ابتدائية ومدرسة ثانوية واحدة حيث بلغ عدد الطالبات ٢٣٨٦ اما هيئة التدريس فعددهن ١٢٥ معلمة من جنسيات مختلفة وهن :

مشرفة	١ لبنانية
اما المدرسات	١٨ لبنانية
	٢ هندية
	١٠ اردنية
	٣ سورية
	٣ فلسطينية
	١ مصرية
	٨٧ بحرينية
كاتبات	٣ بحرينيات
طبيبة	١ بريطانية
ممرضة	١ هندية
	و٢ فلسطينية (٥)

وفى عام ١٩٥٧م غادرت السيدة بلكريف فى منتصف ابريل باجازة اعتيادية الى لندن وحلت السيدة (نابر) محلها .

وقد عينت السيدة ناير مشرفة تعليم البنات ونقل مكتبها من باب البحرين الى مدرسة الزهراء. اما السيدة بلكريف فقد اهتمت بتعليم البنات منذ عام ١٩٣٩ وكان عدد المدارس وقتئذ ٣ مدارس للبنات تضم ٤٢٥ طالبة وعندما تخلت عن منصبها فى ١٩٥٧ زاد عدد المدارس الى ١٣ مدرسة تضم ٣٩٤١ طالبة .

وقد بذلت السيدة بلكريف مجهودا ضخما مما اسفر عن نتائج ايجابية عبر السنين اذ بادرت بادخال الصف الثانوي للبنات فى عام ١٩٥١ وارسال بعضهن الى الخارج فى عام ١٩٥٥ لمواصلة دراساتهن .

وبلغت المصروفات فى نهاية العام ١,٢٦٨,٦٤٠ روبية مقابل ١,١٥٣,٢٧٢ فى ١٩٥٦ وكانت التكلفة المتوسطة ٢٧٦ روبية لكل بنت فى العام مقابل ٢٨٨ روبية فى ١٩٥٦ .

وأنشى المجلس التعليمى فى شهر يناير برئاسة سعادة الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة وعقد المجلس جلساته بانتظام وذلك ايام الاربعاء واتخذ عدة قرارات مفيدة لحل المشاكل .

وطبقا لتوصيات المجلس اندمج التدريس فى المرحلة الابتدائية للبنين والبنات وفازت طالبة على رأس القائمة من بين ٨٧ تلميذا وتلميذه وزاد عدد البنات فى الصف الثانوى .

وأوفدت الحكومة ٨ بنات الى الخارج لمواصلة دراستهن ستا منهن الى بيروت واثنتين الى انجلترا ووزعت الكتب والقرطاسية والبدل الرسمية على التلميذات مجانا كما تم التنسيق فى شروط الخدمة ودرجات الرواتب بصورة منتظمة. واليك جدولا يبين عدد المدارس وطالباتها ومدرساتها خلال عشر سنوات من ١٩٤٧ - ١٩٥٧م . (٦)

وفي عام ١٩٥٩م لم تجر أية تغييرات ادارية . وبلغ العدد الكلى للطالبات المسجلات في المدارس ٥٤٦٧ طالبة بزيادة ٤٤٨ طالبة عن عدد العام السابق . وتم الحاق ٢٢ مدرسة جديدة بهيئة التدريس لمواجهة تلك الزيادة .

وتمت المرحلة الاولى من بناء المدرسة الثانوية الجديدة وشغلت في نهاية شهر مايو ، وجرى هدم البناء القديم لمدرسة (عائشة) بالمنامة وتمت المرحلة الاولى من اعادة بنائها وشغلت خلال العام . كما تم بناء جناح جديد في مدرسة (خديجة) بالمحرق يتألف من قاعة للامتحانات وعيادة طبية وخمسة فصول وذلك في موقع القسم القديم الذى هدم من قبل . كما بنى جناح آخر في مدرسة (الحد) على قطعة الارض التى اشتريت والحقت بالمدرسة وفى مدرسة (الرفاع الغربى) تم بناء جناح جديد يتألف من قاعة وأربعة فصول . مثل هذا البرنامج لانظير له في تاريخ معارف البنات في البحرين .

وواصلت الطبيبة (برين) مهامها

كمسئولة عن الناحية الطبية وقامت باجراء الفحوص الطبية على كافة أطفال المدارس. وتم خلال العام اجراء ٧٦٢ فحصا مرضيا وبعض الفحوص بالاشعة. وكان هناك عدد قليل تطلبت حالاتهن المعالجة الجراحية ادخلن الى المستشفى وتم لهن الشفاء كما جرى تطعيم جميع الاطفال خلال شهرى أكتوبر ونوفمبر. هذا ومن الامور التى تدعو الى الاغتباط حقا تسجيل تحسن في صحة الطالبات وارتفاع في وزنهن.

وتم افتتاح مدرستين جديدتين احداهما في قرية (جدحفص) وروضة للاطفال في (القضيبية) وبلغ عدد الطالبات اللواتى تقدمن لاختبارات اتمام الدراسة الابتدائية في عام ١٩٥٩م - ١١٥ طالبة مقابل ٨٢ في عام ١٩٥٨ وكان عدد الناجحات ٧٦ (٦٦٪).

وتم شغل البنايات الجديدة في مطلع شهر مايو ودعيت جميع امهات الطالبات لمشاهدة المدرسة الجديدة ولقد أظهرن اهتماما عظيما بما شاهدنه. وقدمت خلال العام سلسلة من المحاضرات في مبادىء الاسعافات الأولية العملية واجرى اختبار شفوى وتحريرى للطالبات في ذلك ونجحت ٧٦ طالبة. ونظمت أوجه النشاط المدرسى الاخرى في الفنون والاشغال اليدوية والتمثيل والالعاب في فترات بعد الظهر من أجل توسيع آفاق الطالبات وتنمية مواهبهن وطاقاتهن. وتقدمت ١٤ طالبة للامتحان النهائي نجحن جميعا وقد التحقت خمس منهن بالدائرة كمدرسات كما أرسل أربع منهن الى الخارج لمواصلة الدراسة العالية.

وأرسلت أربع طالبات الى كلية البنات في بيروت بعد ان اكملن دراستهن الثانوية في البحرين ومما يؤسف له أنه عند نهاية الصيف أنقطعت طالبتان بمحض اختيارهما عن متابعة الدراسة ولقد منحت طالبتان من اللواتي التحقن بالكلية في أكتوبر عام ١٩٥٦ درجة الزمالة في الآداب وذلك في يونيو من عام ١٩٥٩.

وواصل مجلس المعارف اشرافه على أوجه نشاط المعارف في البحرين واسداء ارشاداته وتوجيهاته في ذلك الشأن وكما كان عليه الحال في الاعوام السابقة وزعت الكتب والادوات المكتبية والملابس الخاصة مجانا على جميع الطالبات. وركب خلال العام في المدارس المختلفة ١١ مبردا للماء و١١٢ مروحة.

وفي هذا العام ١٩٥٩ ولاول مرة في البحرين احتفلت المدارس رسميا (بعيد الام) ودعيت الامهات الى حضور برنامج ترفيهي خاص عبرت فيه البنات عن مشاعرهن وامتنانهن نحو الامهات.

وفي عام ١٩٥٨م كان عدد الطالبات في المدارس الابتدائية ٤٩٠٩ طالبات.

وفى عام ١٩٥٩م اصبح عدد الطالبات فى المدارس الابتدائية ٥٢١٥ طالبة.

اما عدد الطالبات في عام ١٩٥٨م في المدارس الثانوية فكان ١١٠ طالبات.

وفي العام التالي اصبح عددهن ١٥٢ طالبة.

اما عدد المدارس للبنات في عام ١٩٥٨م فهو ١٣ مدرسة.

واصبح في عام ١٩٥٩م ١٥ مدرسة.

وفي عام ١٩٦١م عملت مدارس البنات بقانون تعيين سكرتيرات ومساعدات للمديرات ومن المؤمل ان يزيل تطبيق هذا القانون العبء الاداري عن المديرات ليوفر لهن وقتا اكبر يصرف على شئون التربية والتوجية في المدارس .

وتم بناء مدرستي مريم بنت عمران والمدرسة الجنوبية للبنات وشغلت في أول العام الدراسي وبالاضافة الى ذلك فقد فتحت مدرستان جديدتان للبنات واحدة في المنامة والثانية في المحرق . أما سائر الاعمال الانشائية للمديرية فقد اقتصرت على التوسعات الاعتيادية في المدارس وبناء طابق لسكنى المدرسات في مدرسة الزهراء . وكان عدد الطالبات في مجموع مدارس البحرين للاعوام ما بين ١٩٥٧ - ١٩٦١م كالآتي :(٧)

١٩٥٧	٤٥٩١
١٩٥٨	٥٠١٩
١٩٥٩	٥٤٦٧
١٩٦٠	٦٤٨٦
١٩٦١	٧٧٦٤

وشهد التعليم تطورا ملحوظا منذ عام ١٩٦١م باهتمام من صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة أمير البلاد المفدى وحكومته الرشيدة، فقد انشئت الكثير من المدارس والمستشفيات والمعاهد والجامعات واوفدت البعثات للدراسة وشجع المتفوقون والمتفوقات في كل عام في حفل يقام لهم في (عيد العلم) حيث تمنح الجوائز تقديرا للعلم وطلابه.

احصائية تبين عدد الطالبات والمدارس في البحرين في الفترة ما بين ١٩٤٧م - ١٩٥٧م

اسم المدرسة وموقعها	عدد الطالبات – العام الدراسي ١٩٤٧	١٩٤٩	١٩٥١	١٩٥٣	١٩٥٥	١٩٥٧	عدد المدارس – العام الدراسي ١٩٤٧	١٩٤٩	١٩٥١	١٩٥٣	١٩٥٥	١٩٥٧
عائشة أم المؤمنين (المنامة)	٣٥٤	٣٥٣	٤٧٣	٢٨٦	٣٩٩	٥٧٤	١٩	١٤	١٧	١٣	١٧	٢١
خديجة الكبرى (المحرق)	٤١٢	٣٢٠	٤٦٩	٣٠٩	٣٥٤	٥٥٧	١٧	١٥	١٦	١٢	١٣	١٩
فاطمة الزهراء (المنامة)	٢٢٥	٢٣٥	٤١٦	٥٧٢	٥٦٧	٧١٨	٨	٩	١٣	١٣	١٥	١٩
مدرسة الحد (الحد)	١٧٢	١٠٧	١٥٢	١٧٠	٢٤٠	٢٩٤	٦	٦	٨	٨	١٠	١١
مدرسة الرفاع الشرقي (الرفاع)	١٢٠	١٠٥	١٤٩	١٢٠	٢١٢	٢٥٧	٧	٧	٨	٥	٦	٩
مريم بنت عمران (المحرق)	—	٢٣٦	٢٩٣	٣٠٩	٢٨٥	٣١٠	—	٧	١٠	٩	٩	١٠
المنامة الشمالية (المنامة)	—	—	—	٢٣٥	٢١٣	٢٢٠	—	—	—	١٠	٩	١٢
مدرسة المحرق الجنوبية (المحرق)	—	—	—	٢٣٥	١٨٤	٢١٠	—	—	—	٨	٧	٩
مدرسة الرفاع الغربي (الرفاع)	—	—	—	٦٣	٦٦	١٥١	—	—	—	٤	٥	٧
المدرسة الثانوية (المنامة)	—	—	١١	١٤	٣٩	٧٢	—	—	٣	٢	٥	٨
مدرسة المحرق الشمالية (المحرق)	—	—	—	—	١٩٤	٣٥٠	—	—	—	—	٦	١١
مدرسة القضيبية (المنامة)	—	—	—	—	٥٦٠	٦٢٥	—	—	—	—	١٧	٢٠
مدرسة المنامة الغربية (المنامة)	—	—	—	—	—	٢٠٣	—	—	—	—	—	٨
المجموع	١٢٨٣	١٥٥٦	١٩٦٣	٢٣١٣	٣٣١٣	٤٥٩١	٥٧	٥٨	٧٥	٨٤	١١٩	١٦٤

الهوامش

(١) من مجلة الارسالية العربية لعامي ١٩٠٥ و١٩١٣م
(٢) المغرب الكبير العدد الأول السنة الثامنة ص ٨٠ الرباط ١٩٧٣م .
(٣) التقرير السنوي لحكومة البحرين لعام ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩
(٤) التقرير السنوي لعام ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠م .
(٥) التقرير السنوي للسيدة بلكريف عام ١٩٥٥م
(٦) التقرير السنوي لعام ١٩٥٧م للسيدة (ناير) مشرفة التعليم النسوي.
(٧) التقارير السنوية للأعوام ١٩٠٥ ـ ١٩٦١م.

البرتغاليون في شرق أف

تطبيق مبدأ الأخوة الإسلامية
خلق الترابط العضوي
بين شرق أفريقيا والخليج العربي

يرتبط الغزو البرتغالى للعالم الاسلامى بسلسلة من الغزوات والنكبات التي توالت على العالم الاسلامي كله آنذاك . سواء فى مركزه (العراق ـ الشام ـ مصر) او فى اطرافه فى آسيا وافريقيا وشبه جزيرة ايبيريا. منها الغزو المغولى الذى استهدف الوجود الحضارى الاسلامي نفسه . والخطر الصليبي الذى سبقه وعاصره ثم عاش بعده . وبالرغم من انتهاء الوجود الصليبى فى الشام عام ١٢٩١م[١] الا ان الروح الصليبية كانت متقدة فى الغرب المسيحى عامة ، وفى شبه جزيرة ايبيريا خاصة . فى هذه الفترة كان للاسلام وجود فى الاندلس ، حيث لعبت البرتغال دورا اساسيا فى سلسلة الحروب الصليبية الطويلة ضد المسلمين فى الاندلس حتى تم طردهم الى الشمال الافريقي . فلاحقهم البرتغاليون واستولوا على سبتة عام ١٤١٥[٢] . وكانت النتيجة ان وضع البرتغاليون اقدامهم لأول مرة على الارض الافريقية الاسلامية ، مما زاد من حماسهم لمواصلة الزحف على العالم الاسلامي كله . ثم ازدادوا غيرة وحقدا بعد سقوط القسطنطينية فى يد المسلمين عام ١٤٥٣م[٣] .

ريقيا وطردهم منها



اعداد :
عبدالرزاق على عثمان

وفى بحثنا هذا سوف نتناول بايجاز دوافع البرتغاليين فى توجههم نحو الشرق . ويهمنا هنا التعرض لدوافعهم الدينية والاقتصادية ونغض الطرف عن الدوافع الاخرى . ننتقل بعد ذلك الى الوجود البرتغالى فى ساحل شرق افريقيا وكيف تم ، ونسير خطوة خطوة مع بعض رحلات البرتغاليين نحو الشرق . ثم نعالج فى آخر المطاف موضوع تصفية الوجود البرتغالى فى شرق افريقيا . ويهمنا هنا ابراز التلاحم العضوى بين مسلمى شرق افريقيا والخليج العربى مما كان له اثر حميد فى تطبيق مبدأ الاخوة الاسلامية ، فبمجرد ان استغاث مسلمو شرق افريقيا بمسلمى الخليج العربى لبى العمانيون تلك الاستغاثة ، فتوحدت القوتان الاسلاميتان ، وبذلك تم طرد البرتغاليين من شرق افريقيا وعادت السيادة الى

ايدى المسلمين فى تلك البقاع . وفى آخر هذا البحث سوف نعرض بايجاز لمركز الاسلام فى ساحل شرق افريقيا والقرن الافريقى قبل مجىء البرتغاليين وحتى الآن .

دوافع الاكتشافات الجغرافية البرتغالية :

لقد امتزجت الدوافع الدينية امتزاجا يكاد يكون كليا مع الدوافع الاخرى لدى البرتغاليين فى كشوفاتهم الجغرافية للدوران حول افريقيا. بل ولا نبالغ ان قلنا ان البرتغاليين قد سخروا كل الدوافع الاخرى لتحقيق اغراضهم الدينية . وفيما يلى سنتعرض لدوافعهم الدينية والاقتصادية فقط وهى :

الدوافع الدينية :

١ - السعى الى هدم الحضارة الاسلامية واقامة حضارة مسيحية محلها .

وذلك بتخريب الحرمين الشريفين ونشر المسيحية واحتلال الاماكن المقدسة فى فلسطين واستعادة القسطنطينية[٤] .

وكانت البرتغال مدركة صعوبة تحقيق ذلك عن طريق الهجوم على العالم الاسلامى من الغرب ، حيث دولة المماليك فى مصر والشام ومجاهدو البحر فى شمال افريقيا والدولة العثمانية الصاعدة فى آسيا الصغرى التى ازدادت قوة وهيبة بعد فتح القسطنطينية[٥] . فكان لابد لهم من كشف طريق آخر للالتفاف على العالم الاسلامى من الخلف .

ومن هنا نرى وجود علاقة وثيقة بين انهاء الوجود الصليبى فى الشام وطرد المسلمين من الاندلس وفتح القسطنطينية من جهة، وبين الكشوفات الجغرافية البرتغالية للدوران حول افريقيا من جهة اخرى، لأن احد اهم اهداف المغامرات الكشفية البرتغالية كان من اجل تحقيق الاهداف الصليبية الانفة الذكر . ولعل حماس البابوية الكاثوليكية للكشوفات الجغرافية البرتغالية خير دليل على اهدافها الصليبية . ففى عام ١٤٥٤م اصدر البابا «نيقولا الخامس» منشورا ايد فيه جهود هنرى الملاح الكشفية، كما اعطاه حق غزو جميع الشعوب والاقاليم التى يسودها اعداء المسيح[٦] .

وقد نهج سائر البابوات فيما بعد نفس نهج نيقولا الخامس فى تحمسهم للكشوفات الجغرافية البرتغالية . وقد اشار الى غلبة الروح الصليبية على تصرفات البرتغاليين كتاب مسلمون من امثال «زين الدين» فى كتابة «تحفة المجاهدين» اذ قال (ان بغيتهم العظمى وهمتهم الكبرى قديما وحديثا تغيير دين المسلمين وادخالهم فى النصرانية نعوذ بالله من ذلك[٧] . كما نستدل على ذلك ايضا من نوايا الملك عما نويل الأول (١٤٩٥ - ١٥٢١) الذى حدد أهداف اول حملة برتغالية الى الشرق بقوله «ان الغرض من اكتشاف الطريق البحرى الى الهند هو نشر المسيحية والحصول على ثروات الشرق»[٨] .

اضافة الى ان الامير هنرى الملاح الذى اشتهر بروحه الصليبية وعدائه الشديد للاسلام كان قد نذر نفسه لهزيمة الاسلام «تماما ونهائيا»[٩] .

وتظهر الروح الصليبية البرتغالية بصورة عملية فى سلوك البرتغاليين مع

المسلمين في المناطق الاسلامية التى احتلوها . ذلك انهم ما ان حلوا ببلد فيه الاسلام الا وطبقوا فيه نفس النهج الذى طبقوه فى الاندلس ، وذلك بقتل المسلمين دون تمييز، وحرق المساجد وهدم البيوت واغراق السفن بمن عليها ومحاولة احلال الدين المسيحى محل الاسلام .

وقد خص البرتغاليون هذه المعاملة الوحشية بالمسلمين دون سائر الاقوام الاخرى . من هنا نرى ان اى تقليل من شأن الدافع الديني للحركات الكشفية البرتغالية حول افريقيا لهو امر ينافى الواقع بل ويتعارض مع الحوادث التاريخية فى تلك الفترة .

٢ ـ البحث عن برستر جون (Pre-ster John)[١٠].

انتشرت فى اوروبا خلال القرن الثانى عشر اسطورة القديس يوحنا، وهى اسطورة ادبية ، تدور حول بطريق مسيحى، أسس امبراطورية مسيحية قوية فى الشرق ، يحكمها ملك مسيحى قوى، يخوض حربا مريرة ضد المسلمين المحيطين به. وبمرور الزمن تطورت هذه الاسطورة فى اوروبا حتى تجسدت فى القرن الثالث عشر وما بعده بصورة امال للاوروبيين فى ايجاد تحالف مع هذه المملكة المسيحية ، التى ساد الاعتقاد فيما بعد على انها الحبشة . وقد امن الاوروبيون ان هذه الحروب التى تخوضها مملكة برستر جون انما هى جزء من الحروب الصليبية التى يمكن بواسطتها تقويض العالم الاسلامى .

ولما كانت الروح الصليبية هى المحرك الاول للمغامرات الكشفية البرتغالية، فقد اهتمت البرتغال بالبحث عن برستر جون قبل غيرها من الدول الاوروبية حيث ارسلت عام ١٤٨٧ بعثتين لاكتشاف موقع هذه الامبراطورية المسيحية[١١] . ثم توالت بعد ذلك جهود برتغالية اخرى للوصول الى مملكة برستر جون بغرض ايجاد تعاون وثيق معها ضد المسلمين . وهذا ما تم خلال الحروب الصومالية ـ الحبشية فى القرن السادس عشر[١٢] .

ويلاحظ هنا ان الدوافع الدينية للكشوفات الجغرافية برمتها كانت متداخلة ومترابطة لانها كلها كانت تهدف الى شيء واحد وهو القضاء على الاسلام دينا وحضارة، شعوبا ودولا .

الدوافع الاقتصادية :

يصادف الباحث صعوبة بالغة فى ان يجد خيوطا فاصلة بين الدوافع الدينية والاقتصادية لدى البرتغاليين فى كشوفاتهم الجغرافية للدوران حول افريقيا ، لأن دوافعهم الاقتصادية كانت مسخرة لتحقيق اهدافهم الدينية ، ومع ذلك قد تتمثل دوافعهم الاقتصادية فى حاجتهم للوصول الى مصادر السلع الشرقية والحصول عليها بأسعار اقل ، وكذلك المشاركة فى أرباح التجارة الشرقية وكسر احتكار المسلمين للعمليات الاقتصادية التجارية الشرقية .

وكانت البرتغال مدركة تماما استحالة تحقيق ذلك طالما ان الحركة الدائمة للتجارة الشرقية تمر عبر اراضى المسلمين

وتقوى من شوكتهم بما تدره عليهم من صافى الارباح والضرائب، وغيرهما من الفوائد المالية ذات الصلة بتجارة الترانزيت . لأجل ذلك فكر البرتغاليون بجدية ونشاط فى البحث عن طريق اخر يوصلهم الى الهند ولا يمر بديار المسلمين ليتمكنوا من السيطرة على تلك التجارة بغرض الحصول على فوائد مزدوجة وهى تقوية مركزهم سياسيا واقتصاديا واضعاف المسلمين بعد تحويل التجارة عنهم تمهيدا للقضاء على الاسلام .

لم يقدم البرتغاليون على هذه المشاريع الطموحة عشوائيا ، وانما اعدوا العدة لذلك علميا، فاهتموا بأمور البحر والملاحة، وأرسلوا البعوث الكشفية ودرسوا تقاريرها. كما جمعوا ما أمكن جمعه من كتب الرحلات، واهتموا اهتماما خاصا بالاطلاع على مجهودات المسلمين فى الاندلس فى نواحى الملاحة والفلك[١٢] . وبذلك حصلوا على معلومات جغرافية وبحرية مما مكنهم فى النهاية من اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح ، فتحولت التجارة الى الطريق الجديد وبالتالى فقد المسلمون مصدرا هاما من مصادر قوتهم مما ادى الى ضعف بنائهم السياسى والاقتصادى .

لم تكن افريقيا فى البداية هدفا[١٤] برتغاليا من الناحية الاقتصادية (وان كانت هدفا دينيا) وانما كانت وسيلة للوصول الى الهند . غير ان تفكير البرتغاليين تجاه افريقيا الشرقية تغير تغيرا جذريا بعد وصولهم هناك اذرأوا فيه انه يتيح لهم مزايا اقتصادية ودينية على النحو الآتى : -

١ - وجدوا فى المدن الاسلامية الساحلية اسلاما حضاريا ذا جذور عميقة، ونظم سياسية وادارية راقية فقرروا القضاء عليه وكان هذا مكسبا دينيا .

٢ - وجدوا فى المدن الساحلية مجتمعات اسلامية ترفض الولاء لهم فاضطروا الى الشروع فى نشر المسيحية بكل السبل حتى يخلقوا لانفسهم مراكز تدين بالولاء لهم فانشئوا الكنائس ومدارس التبشير وتدفق الجزويت على شرق افريقيا وكان هذا مكسبا دينيا .

٣ - وجدوا فى المدن الساحلية تجارة راقية واقتصادا مزدهرا فقرروا السيطرة على هذه العمليات الاقتصادية وكان هذا مكسبا اقتصاديا .

٤ - بعد وصولهم استحوذتهم فكرة نقل الافارقة الى البرتغال كخدم وعبيد للنبلاء والاسر الارستقراطية فى البرتغال استرضاء لهم او مكافأة لمساهمتهم المالية فى الحملات العسكرية والاكتشافية وقد تطورت هذه العملية الاستغلالية البشعة فيما بعد الى ما يعرف بتجارة الرقيق وكان هذا مكسبا اقتصاديا وسياسيا .

٥ - احتكروا تجارة السلع الافريقية وفرضوا على السكان عدم التعامل مع غير البرتغاليين وكان هذا مكسبا اقتصاديا .

٦ - ان وصولهم الى شرق افريقيا قد قلص المسافة بين اوروبا والحبشة مما يتيح لهم سهولة الاتصال بالحبشة والتحالف معها لتحقيق

الآتى : ـ

أ ـ وضع المسلمين فى شرق افريقيا بين فكى كماشة ، البرتغاليون من البحر والحبشة من البر ، وقد طبقوا ذلك فى الحرب الحبشية ـ الصومالية فى القرن السادس عشر .

ب ـ محاولة اشتراك القوتين معا للهجوم على مركز العالم الاسلامى من الجنوب وكانت تراود البرتغاليين فى سبيل ذلك المشاريع الآتية[١٥] : ـ

١ ـ اشتراكهما معا فى ضرب مدينة السويس باعتبارها مركزا للعمليات العسكرية الاسلامية .

٢ ـ السعى لاقناع ملك الحبشة بقبول فكرة تحويل مجرى النيل ليصب فى البحر الاحمر بدلا من المتوسط .

٣ ـ السعى لاحتلال مدينة مكة حتى يمكن القضاء على الاسلام .

٧ ـ ان الطريق الجديد بين اوروبا والهند يحتاج الى اقامة محطات وحصون لحمايته وتزويد السفن التجارية والأساطيل البحرية البرتغالية بالمؤن اللازمة مما حتم عليهم البقاء فى شرق افريقيا، وكان بقاؤهم فى تلك البقاع مكسبا سياسيا واقتصاديا ودينيا لهم .

وهكذا أملت الظروف التى استجدت لدى البرتغاليين بعد وصولهم الى شرق افريقيا اتخاذ الاجراءات اللازمة والتدابير الضرورية لاحتلال شرق افريقيا وتحويله الى مناطق برتغالية . وبذلك بدأ الوجود البرتغالى فى شرق افريقيا .

الوجود البرتغالى فى شرق افريقيا

يحسن بنا عند الحديث عن الوجود البرتغالى فى شرق افريقيا ان نتتبع جهود البعثات الكشفية والحملات العسكرية البرتغالية، وان نسير خطوة خطوة مع تلك الحملات العسكرية لنتعرف على كيفية الاحتلال البرتغالى لتلك المناطق ، وقد استغرق احتلالهم للساحل زهاء عشر سنوات ، ذلك ان كل حملة عسكرية كانت تخضع سلطنة او منطقة ثم تغادرها وتأتى حملة اخرى وتفعل مثلما فعلته الاولى . ولم يجازف البرتغاليون بترك حاميات عسكرية فى المراحل الاولى لوصولهم الى الساحل لأنهم لم يجدوا حليفا محليا يعتمدون عليه باستثناء سلطان مالندى الذى تحالف معهم أملا فى مساعدتهم للقضاء على ممبسة . وفيما بعد بدأ البرتغاليون فى اقامة المحطات وبناء الحصون وترك حاميات عسكرية فى تلك الحصون وذلك تمشيا مع بروز اهمية الساحل لهم .

وهكذا استمر الحال باحتلال تدريجى للساحل الى ان تمكنوا فى النهاية من اخضاعه ، وبذلك كانت الجهود الكشفية البرتغالية بداية عهد جديد بين اوروبا من جهة وافريقيا وآسيا من جهة اخرى الى ان بسط الاوروبيون نفوذهم السياسى والاقتصادى على السواحل الافريقية والآسيوية (١٦).

لم يصل البرتغاليون الى شرق افريقيا بيسر وسهولة ، وانما تم ذلك نتيجة لجهود جبارة قاموا بها وتحملوا فى

سبيلها العناء والمشاق وصولا الى اهدافهم . وكان احتكاكهم بشمال وغرب القارة قد سبق احتكاكهم بشرقها ، ففى عام ١٤١٥م احتلوا سبته، وأصبح الأمير هنرى الملاح (١٣٩٤ ـ ١٤٦٠) حاكما عليها[١٧] .

ومن المعروف ان هنرى الملاح هذا قد قام بدور بارز فى تكوين الامبراطورية البحرية البرتغالية وكان من اشد المتحمسين لمحاربة الاسلام . وقد خطط لتكون سبته قاعدة لشن الحملات العسكرية على المسلمين فى شمال افريقيا . وقاد بنفسه حملة حاولت احتلال طنجة عام ١٤٣٦م . وفى عهده وصلت الحملات البرتغالية الى الرأس الأخضر عام ١٤٤٦ ، ومصب نهر السنغال وسيراليون عام ١٤٦٠ واجتاز البرتغاليون خليج غانة عام ١٤٧١، وتمكنوا من اكتشاف مصب نهر الكونغو عام ١٤٨٢م .

يبدو ان الحملات البرتغالية بشمال وغرب القارة لم تؤد الى تحقيق اهدافهم، مما ادى الى محاولة توغلهم نحو جنوب القارة، فقام برتليمو دياز برحلته المشهورة عام ١٤٨٦م، وتمكن من الدوران حول رأس الرجاء الصالح الذى سماه برأس الزوابع بسبب مالاقاه من اهوال[١٨] . ولعل ذلك كان احد اسباب اتجاه البرتغاليين بعد ذلك الى الابحار غربا عبر المحيط الاطلسى للوصول الى الهند . غير ان فشلهم فى كشوفاتهم عبر الاطلسى ، بعكس الاسبان الذين نجحوا فى كشوفاتهم عام ١٤٩٢م زاد من غيرتهم، فعادوا ثانية الى مسالكهم السابقة ، حيث قام فاسكودى جاما برحلته المشهورة عام ١٤٩٧ مقتفيا اثر سلفه دياز فاجتاز رأس الرجاء الصالح[١٩] .

وكانت رحلة دى جاما بداية عهد جديد حيث ترتبت عليها فيما بعد اثار بعيدة المدى فى العلاقات ما بين اوروبا والشرق كله ، وعلى كل فقد وصل دى جاما الى موزمبيق عام ١٤٩٨ ، ويقال ان اهلها استقبلوه بحفاوة ظنا منهم ان البرتغاليين مسلمون ، الا ان هذه الحفاوة اختفت على الفور بعد ان علم المسلمون هناك ان البرتغاليين قوم من النصارى . وقد غادر دى جاما موزمبيق بعد ان تزود ببعض الادلاء متوجها الى كلوة غير انه لم يرسو فيها فتوجه الى ممبسة ولكن سفنه رست فى مالندى .

اقام دى جاما فترة فى مالندى وطد خلالها علاقات التفاهم والود مع سلطان مالندى، ثم شق طريقه عبر المحيط الهندى فى طريقة الى الهند مستعينا ببعض عرب الساحل كما يقال ووصل الى المليار .

وجد دى جاما وجودا عربيا قويا فى المليار ولم يرغب فى الاصطدام معهم ، مما دفعه في التوجه الى كانانور وجوا . ومن هناك تمكن من شحن سفنه لأول مرة بالسلع الشرقية من مصادرها الأصلية ، وعاد الى بلاده مباشرة عن طريق مقديشيو التى ضربها بالمدافع وهدم كثيرا من منازلها ، كما اغرق عددا كبيرا من السفن الراسية فى مينائها . ومر بمالندى التى تزود منها بالمؤن، وزنجبار، وجنوب افريقيا . ووصلت طلائع سفنه الى لشبونة فى يوليو ١٤٩٩م .

استقبلت لشبونة دى جاما استقبالا

لائقا به كبطل فاتح مظفر. وهكذا حصدت البرتغال، ومعها اوروبا كلها، فوائد الكشوفات الجغرافية. وتحققت احلام اوروبا فى الوصول الى مصادر السلع الشرقية دون المرور ببلاد المسلمين .

اتجهت السياسة البرتغالية فى عهد الملك عما نويل الاول (١٤٩٥ ـ ١٥٢١) الى احتلال الساحل الشرقى لافريقيا، خاصة وقد ظهرت اهميته بالنسبة للبرتغاليين بعد النجاح الذى لاقاه دى جاما فى رحلته الى الهند ، كما اتجهت سياستهم الى احتلال ثلاثة مواقع هامة وهى : ملقا ، وعدن، وهرمز باعتبار هذه المواقع مفاتيح للبحر الاحمر والخليج العربى وجنوب شرق أسيا[٢٠] .

وتنفيذا لهذه السياسة الاحتلالية توالت الحملات العسكرية البرتغالية الواحدة تلو الاخرى ، بهدف احتلال شرق افريقيا، واقامة محطات وحصون من اجل تأمين الطريق الى الهند . ففى عام ١٥٠٠ احتلت حملة دياز مدغشقر وموزمبيق[٢١]. وقاد كابرال فى نفس السنة حملة مكونة من ثلاثة عشر مركبا مزودة بالمدافع والمعدات العسكرية الاخرى، وعليها ١٥٠٠ رجل ، فوصلت الى موزمبيق فى يوليو وتوجهت الى كلوة حيث سلم كابرال رسائل من ملك البرتغال الى السلطان ابراهيم سلطان كلوة الذى رفض قبول السيادة البرتغاليـة[٢٢] . واتجهت الحملة بعد ذلك الى مالندى حيث تم انزال شخصين برتغاليين الى البر الافريقي بهدف البحث عن الحبشة تمهيدا للتحالف معها . واصلت الحملة بعد ذلك طريقها الى الهند .

لم تتوقف حملات البرتغاليين الى الشرق ففى مارس ١٥٠١ منح دى جاما لقب اميرال البحار الشرقية ، وتوجه فى فبراير ١٥٠٢ الى افريقيا الشرقية بخمس عشرة سفينة يتبعها اسطول من خمس سفن. ولما وصل كلوة قصفها بكل عنف وقسوة، مدمرا جزءا كبيرا منها وفرض عليها قبول السيادة البرتغالية ودفع الجزية لهم. ولكن بمجرد ان غادر دى جاما «كلوة» تنصل سلطانها من التزاماته للبرتغاليين. ومن كلوة اتجهت الحملة الى مالندى واستولى البرتغاليون على السفن الاسلامية الراسية فيها.

وكان البوكرك مهندس احتلال ساحل شرق افريقيا. ففى عام ١٥٠٢ احتلت حملته مدينة كلوة وارغم سلطانها على الاعتراف بالسيادة البرتغالية والتعهد بدفع جزية قدرها الف وخمسمائة مثقال من الذهب. وفى عام ١٥٠٣ فرض على زنجبار السيادة البرتغالية ودفع جزية قدرها مائة مثقال من الذهب . اما مدينة ممبسة فقد استسلمت بعد ان دافع عنها سكانها دفاع الابطال المجاهدين ، وبعد ان فشلت فى اقناع مالندى للوقوف بجانبها .

وفى عام ١٥٠٥ عين دالميدا اول نائب لملك البرتغال فى الهند وقد اعاد تأكيد الاحتلال البرتغالى لشرق افريقيا وهو فى طريقه الى الهند فقام باقامة حصون عسكرية فى مينائى كلوة وممبسة[٢٣] .

وفى عام ١٥٠٦ خرج اسطول برتغالى من موزمبيق لاحكام السيطرة على ساحل افريقية الشرقية فتوجه الى مدغشقر وكلوة ومالندى ثم احتل مدن لامو ، واوجا ، وبراوة التى رضيت بدفع جزية للبرتغاليين[٢٤] .

أما مقديشيو فقد فشل البرتغاليون في احتلالها ثم اتجهوا الى سوقطرة واحتلوها . وكانت الخطوة التالية في احكام السيطرة على ساحل شرق افريقيا هي الاحتلال الرسمي لموزمبيق الذي تم عام ١٥٠٧ . وأقيم فيها قلعة ومستشفى وكنيسة ومنشآت عسكرية اخرى وبذلك اصبحت موزمبيق أهم مركز برتغالي في شرق افريقيا واستمرت كذلك حتى عام ١٦٧٩م ولم يبق أمامهم للسيطرة على ساحل شرق افريقيا كله سوى مدينة مقديشيو .

لقد أدرك البرتغاليون ان بقاءهم في ساحل شرق افريقيا لن يخلو من تهديدات طالما بقيت الجزيرة العربية خارج مناطق نفوذهم ، وذلك لوجود ارتباط عضوي وثيق بين شرق افريقيا وبين الجزيرة العربية التي كانت تمده عبر التاريخ بالمدد البشري والحضاري والديني[٢٥] ، فاتجه البرتغاليون لاحتلال الخليج العربي وعدن وذلك لقطع الصلة بين شرق افريقيا والخليج ثم لإحكام السيطرة على منافذ البحر الاحمر والخليج العربي . وبعد أن تمت لهم عملية احتلال مسقط وهرمز اضافة الى هزيمة القوات المصرية في معركة ديو البحرية عام ١٥٠٩ سيطر البرتغاليون على المحيط الهندي والطرق البحرية المؤدية اليه أو الخارجة منه[٢٦] .

وهكذا سيطر البرتغاليون على ساحل شرق افريقيا في مدة زمنية محدودة وانتقلت السيادة من أيدي المسلمين الى أيدى الصليبين المتعصبين . وأصبح مصير المدن الاسلامية اما قبول السيادة البرتغالية أو القضاء عليها وتدميرها ما عدا مالندى حليفة البرتغاليين . وكان البرتغاليون قد أنشأوا في بعض مدن الساحل مستعمرات رئيسية مثل : كلوة وموزمبيق وسوفالا ، كما انشأوا مستعمرات اخرى أقل شأنا في مناطق اخرى مثل زنزبار وبمبا . أما بقية المدن فقد احتفظت ببعض نظمها المحلية مقابل قبول السيادة البرتغالية عليها ودفع الجزية لهم . وكان تمركز الحكم البرتغالي في المدن الجنوبية أكثر من المدن الشمالية لاعتبارات مناخية واقتصادية .

كانت السياسة البرتغالية الرسمية فيما يتعلق بشرق افريقيا ترتكز على احتلال الساحل ، وتدمير الوجود الاسلامي في هذا الساحل ، والسيطرة على الحركة التجارية الاسلامية ، ولم تفكر اطلاقا في توسيع مستعمراتها نحو الداخل لأن ذلك يتطلب تجهيزات عسكرية وادارية مما قد يسبب عبئا ماليا ، اضافة الى شعورهم بصعوبة الدفاع عن المراكز البرتغالية اذا كثر عددها وتباعدت المسافة بينها ، خاصة وان البرتغال كانت تعاني من قلة في عدد السكان . وعموما فإن البرتغاليين كانوا مدركين ان التوغل في الداخل عملية كثيرة التكاليف في الرجال والمال . فحصروا انفسهم في الساحل مما جعل القوى الوطنية تنمو في الداخل بعيدا عن ارهاب البرتغاليين . وعلى كل فقد بقى البرتغاليون في ساحل شرق افريقيا حتى اواخر القرن السابع عشر . وقد مارسوا خلال هذه الفترة أشد انواع الاضطهاد للمسلمين والسعي الجاد الى توحيد القوى المسيحية في تلك المنطقة سعيا للقضاء على المسلمين . وقد تجلى ذلك حين هب البرتغاليون لمساعدة الحبشة في

حربها ضد الصوماليين بقيادة الامام أحمد بن ابراهيم (جرى)[٢٧] في النصف الأول من القرن السادس عشر ، حيث اشتركت في الحرب قوة عسكرية برتغالية مكونة من اربعمائة جندي مسلحين بالاسلحة النارية بقيادة «كروستوفر» مما ادى الى هزيمة القوات الاسلامية الصومالية في عام ١٥٤٠ ، غير ان المسلمين استعانوا بالاتراك في اليمن والحقوا الهزيمة بالاحباش وحلفائهم وقتل «كروستوفر»[٢٨] ، غير ان الحلفاء المسيحيين تمكنوا مرة اخرى من هزيمة المسلمين وقتل الامام .

كيف تمكن البرتغاليون من احتلال شرق افريقيا ؟

من المعروف تاريخيا ان الوجود الاسلامي والعربي في ساحل افريقيا الشرقية (وليس هنا مجال بحثه) كان وجودا قديما ، وذا معالم حضارية بارزة ، وقد اعترف بذلك البرتغاليون ومن وصل بعدهم من الاوربيين الى تلك المنطقة[٢٩] . ومع ذلك فقد آلت سيادة الساحل الى البرتغاليين بمجرد وصولهم في نهاية القرن الخامس عشر ويرجع ذلك الى الاسباب الآتية[٣٠] :

١ ـ قام الوجود العربي الاسلامي في ساحل شرق افريقيا على اكتاف المهاجرين والعلماء والتجار وكان وجودا حضاريا واقتصاديا ولم يعتمد على التوسع الحربي ، وبذلك لم تكن لديه قوات عسكرية يعتمد عليها في حالات الخطر .

٢ ـ كانت المدن الاسلامية في الساحل غير موحدة سياسيا بل على العكس كانت المنازعات والمنافسات محتدمة فيما بينها ولعل ما كان بين مالندي وممبسة خير دليل على ذلك .

٣ ـ كانت الدول الاسلامية الكبرى آنذاك على خلاف فيما بينها ، فالدولة العثمانية لم تكن على وفاق لا مع الدولة المملوكية في مصر والشام ولا مع الدولة الصفوية في ايران ، وبذلك لم يجد الشعب المسلم في الساحل الشرقي الافريقي من يسنده ليقف في وجه الغزو المسيحي البرتغالي .

٤ ـ كان البرتغاليون يتسلحون بأسلحة تفوق الاسلحة التي كانت متوفرة للسكان والمدن الاسلامية في ساحل شرق افريقيا .

طرد البرتغاليين من شرق افريقيا :

كان الوجود البرتغالي في ساحل شرق افريقيا يمثل بحد ذاته تحديا للوجود الاسلامي في تلك المناطق ، لكونه وجودا صليبيا اتصف بالقسوة والعنف لتحقيق اغراضه الصليبية ، بحيث لم تنج مدينة من مدن الساحل من عبث الطغاة البرتغاليين ، فقد أحرقت ممبسة مرات عديدة وقصفت كلوة ومقديشيو وبراوة وبربرة وزيلع كما دمرت مساجد لامو وباتا[٣١] .

هذه الاعمال الوحشية الصليبية المتمثلة في تدمير المدن ، وهدم المساجد ، وقتل المسلمين وحرق بيوتهم ، والاستيلاء على السفن والمتاجر الاسلامية واقامة المنشآت العسكرية والتبشيرية ، وارغام المسلمين على اعتناق المسيحية ، قد أدت الى هجرة اعداد غفيرة من المسلمين الى داخل القارة ،

حيث وجدوا الأمان والقبول من السكان المحليين فامتزجوا بهم ، مما كان له أكبر الأثر في انتشار الاسلام ، وتوحيد مشاعر العنصرين لمواجهة الخطر البرتغالي[٢٣] .
ومهما يكن فان الوجود البرتغالي بساحل شرق افريقيا كان في الاساس مرفوضا من قبل الاهالي ، لاعتبارات دينية واقتصادية وقومية وان بقاءه كان مرهونا لحين استرداد القوى الاسلامية المحلية انفاسها من هول مفاجأة الغزو البرتغالي .

ونرى هنا ونحن بصدد طرد البرتغاليين من شرق افريقيا ان نحدد ذلك في المنطقة ما بين رأس دلجاو جنوبا حتى مقديشيو شمالا ، ذلك لأن الوجود البرتغالي في موزامبيق قد بقي حتى عام ١٦٧٩ ، كما ان وجودهم الى الشمال من مقديشيو كان وجودا ضعيفا لعوامل متعددة لسنا في سبيل بحثها . ولكن قبل كل شيء لا بد وأن نشير بايجاز الى بعض العوامل التي كانت مبعث الثورات في شرق افريقيا والتي أدت في الوقت نفسه الى ضعف الحكم البرتغالي ليس في شرق افريقيا فحسب وانما في الشرق كله منها[٢٤] .

١ - سوء الادارة البرتغالية في المناطق المحتلة .

٢ - سوء السياسة التجارية الاحتكارية التي طبقها البرتغاليون في المناطق المحتلة .

٣ - بعد المسافة ما بين البرتغال والمناطق المحتلة واضطرارها باستمرار الى ارسال الحملات العسكرية لاخماد الثورات الوطنية مما شكل عبئا على مواردها المالية .

٤ - خضوع البرتغال للحكم الاسباني ابتداء من ١٥٨٠ واهتمام الاسبان بمصالحهم لا بمصالح البرتغال[٢٤] .

٥ - تصدي الدولة العثمانية للسيطرة البرتغالية على الخليج العربي والبحر الأحمر واحباطهم المحاولات البرتغالية لاقامة حلف مسيحي حبشي - برتغالي .

٦ - المقاومة الاسلامية المستمرة في المناطق المحتلة واتصالاتها المستمرة بالدولة العثمانية طلبا للعون العسكري باعتبارها حامية الاسلام .

٧ - ظهور قوى اوربية أخرى في بحار الشرق كمنافسة للبرتغاليين خاصة الهولندية والانجليزية اللتين كانتا أكثر تنظيما وتسليحا من البرتغاليين[٢٥] .

٨ - تمركز الوجود البرتغالي في الساحل دون العمق ترتب عليه نمو القوى الوطنية في الداخل ، لذلك كان الداخل عموما مركزا للعداء المستمر للمستعمر البرتغالي .

٩ - ظهور قوة جديدة في الخليج العربي وهي دولة اليعاربة في القرن السابع عشر التي تحملت مسئولية الصراع البرتغالي - الاسلامي[٢٦] .

ولا شك ان تصفية الوجود البرتغالي في شرق افريقيا كان يمثل صورة مشرفة من صور التعاون والعمل الاسلامي المشترك للوقوف في وجه العدو المشترك ، فالى جانب المقاومة الوطنية شاركت دولة اليعاربة في عمان مشاركة فعلية في تصفية الوجود البرتغالي في شرق افريقيا ، بينما كانت الدولة العثمانية مصدر الهام وعون لتلك الحركات الوطنية ، وفيما يلي نستعرض بايجاز دور كل قوة من تلك القوى الاسلامية ، سواء كان دورا

مباشرا أو غير مباشر وهي :

دور دولتي المماليك والعثمانيين :

على الرغم من أن كلا من دولتي المماليك والعثمانيين لم تساهما مساهمة مباشرة وفعلية في طرد البرتغاليين ، الا انه مع ذلك لا يجوز اغفال دورهما ـ خاصة الدولة العثمانية ـ باعتبارهما القوتين الاسلاميتين اللتين تصدتا للوجود البرتغالي في المحيط الهندي . وكانت الدولة العثمانية أكثر من دولة المماليك مصدر الهام وعون للثورات الوطنية باعتبار حامية الاسلام والمسلمين .

كانت دولة المماليك أكثر الدول الاسلامية الكبرى أنذاك شعورا بخطر البرتغاليين خاصة فيما يتعلق بمحاولاتهم تحويل طرق التجارة الى رأس الرجاء الصالح ، مما كان يعني توجيه ضربة قاضية للمصالح الاقتصادية والعسكرية والسياسية لدولة المماليك[٢٧] ، لذا كان طبيعيا ان يثير النشاط البرتغالي في تلك المناطق ثائرة المماليك ، الذين قاموا لمواجهة ذلك بنشاط سياسي وعسكري فاتصلوا بالبندقية وبالدولة العثمانية وبامراء المسلمين في الهند[٢٨] ، كما قاموا باستعدادات عسكرية وشرعوا في بناء السفن في السويس وأرسلوا الحملات تلو الحملات . غير ان مجهوداتهم تحطمت عند هزيمة ديو عام ١٥٠٩[٢٩] . وكانت النتيجة ان اتخذ المماليك خططا دفاعية في سواكن وزيلع على الجانب الغربي من البحر الاحمر وسهل تهامة وجدة كخط دفاع أول وثان على جانبه الشرقي .

ولما حلت الدولة العثمانية محل الدولة المملوكية ورثت عنها تركة ثقيلة فيما يتعلق بمواجهة البرتغاليين الذين سيطروا قبل ان يظهر العثمانيون في البحر الأحمر على مناطق شاسعة في شرق افريقيا والهند والخليج العربي . ويلاحظ ان الموقف العثماني لمواجهة الخطر البرتغالي لم يكن فعالا بالقدر المطلوب في البحر الأحمر ، ذلك انهم وجهوا معظم حملاتهم العسكرية نحو اوربا خاصة باتجاه جزيرة رودس وبلغراد والمجر مما ادى الى تفاقم الخطر البرتغالي في المحيط الهندي وشرق افريقيا والخليج العربي .

وليس هنا محل بحث المواقف العثمانية تجاه البرتغاليين بصورة عامة ، وانما نشير بايجاز الى موقفهم فيما يتعلق بشرق افريقيا ، وقد اتخذ اتجاهين :

١ ـ اتجاه رسمي قامت به الدولة العثمانية لاحباط التحالف البرتغالي ـ الحبشي .

٢ ـ اتجاه غير رسمي قام به أحد المغامرين العثمانيين .

بالنسبة للاتجاه الاول فقد قامت الدولة العثمانية بمجهودات عظيمة لاحباط الحلف البرتغالي ـ الحبشي ، الذي كان موجها أساسا للاسلام والمسلمين سواء في القرن الافريقي أو مركز العالم الاسلامي ، وقد سبق ان ذكرنا بهذا الخصوص بعض المشاريع البرتغالية ـ الحبشية . من المعلوم ان العثمانيين وصلوا الى جنوب البحر الأحمر متأخرين ، والحلف البرتغالي ـ الحبشي قائم ، والحرب مشتعلة في القرن الافريقي بين المسلمين والتحالف المسيحي البرتغالي ـ الحبشي ، ففزع

العثمانيون من ذلك كما ارتاعوا من ازدياد تبادل البعثات بين البرتغاليين والأحباش خاصة بعد عام ١٥٢٠ أي بعد ظهور العثمانيين في البحر الأحمر وكانت أهداف تلك البعثات التعجيل بتنفيذ المشاريع البرتغالية الحبشية الموجهة ضد الاسلام قبل ان يتمكن العثمانيون من توطيد اقدامهم في المنطقة .

هكذا وجد العثمانيون انفسهم وجها لوجه امام تحالف مسيحي في جنوب البحر الاحمر ، وعلى الرغم من ان العثمانيين وجهوا معظم مجهوداتهم العسكرية نحو البلقان ، الا انهم مع ذلك قاموا بجهود جبارة لاحباط التحالف البرتغالي ـ الحبشي معتبرين ذلك واجبا دينيا ، من أجل ذلك تحركوا جنوبا واتخذوا قواعد للانطلاق من بعض الموانيء الآسيوية والافريقية التي خضعت لهم على البحر الأحمر مثل جدة وسواكن ومصوع وزيلع وبربرة وعدن[٤٠] .

وهكذا أصبح القرن الافريقي مسرحا التقت فيه القوتان العثمانية والبرتغالية بطريق غير مباشر . فبينما استنجدت الحبشة بالبرتغاليين الذين قدموا لهم مساعدات عسكرية سخية في الرجال والعتاد ، استغاث المسلمون في القرن الافريقي بالعثمانيين الذين قدموا لهم عن طريق والي زبيد حوالي تسعمائة من حملة البنادق ، وزودوهم بالمدافع والمعدات العسكرية الاخرى .

وقد تمكن الامام أحمد بفضل المساعدات العثمانية من احراز تقدم ملحوظ نحو داخل الحبشة ، وتوالت عليه الانتصارات على التحالف البرتغالي ـ الحبشي في المراحل الاولى من حربه التي استمرت في الفترة من عام ١٥٢٨ ـ ١٥٤٣ ، الا انه لسبب نجهله حتى الآن انهى علاقاته مع العثمانيين وأرجع القوة العثمانية الى زبيد[٤١] .

ويجب ان نشير هنا الى ان انتصارات القوى الاسلامية في القرن الافريقي على التحالف البرتغالي ـ الحبشي في المراحل الأولى من تلك الحرب ، انما يعود ايضا الى ان العثمانيين قد أحكموا السيطرة على البحر الأحمر ، وحالوا دون وصول الامدادات البرتغالية الى الحبشة من قواعدهم في الهند .

مما سبق نرى ان العثمانيين قاموا بدور ايجابي (وإن كان أقل مما كان منتظرا منهم) في نصرة اخوانهم مسلمي القرن الافريقي ، كما نجحوا في احباط التحالف البرتغالي ـ الحبشي الذي كان أساسا يحمل في طياته بعض عوامل فشله .

أما فيما يتعلق بالاتجاه الثاني فقد لعب العثمانيون دورا بارزا في اضعاف الوجود البرتغالي بشرق افريقيا ، ذلك انه على الرغم من ان الدولة العثمانية لم تقم بأية محاولة لتكتيل القوى الاسلامية أو توحيد صفوفهم بشرق افريقيا ـ علما بأن المسلمين هناك كانوا يكنون لها الولاء باعتبارها حامية الاسلام ـ الا ان بعض المغامرين العثمانيين قاموا بمحاولات جادة في زعزعة الوجود البرتغالي في شرق افريقيا مما أدى الى زيادة حدة الصراع بين البرتغاليين والعثمانيين .

ففي عام ١٥٨٦ وصل «علي بك» الى مقديشيو ـ وكان علي هذا قد سبق له أن

هاجم القواعد البرتغالية في الخليج العربي - فادعى انه موفد من قبل السلطان العثماني ليحررهم من الاستعمار البرتغالي واستقبله سكان مقديشيو استقبالاً حارا وأعلنوا ولاءهم للسلطان العثماني ، وقاموا بالثورة على البرتغاليين ، ووقعت معارك بين الجانبين وانتصر المسلمون فاستولوا على بعض السفن البرتغالية كما تم أسر بعض البحارة البرتغاليين الذين ارسلوا الى القسطنطينية .

بعد هذا النجاح توجه علي بك جنوبا الى براوة وكسمانيو ولامو وفازا وممبسة . وكان يستقبل في كل مدينة استقبالا لائقا برسول سلطان المسلمين ، وبذا تمكن علي بك من اشعال الثورة في كل مدينة حل بها مما أزعج البرتغاليين وهدد وجودهم بساحل شرق افريقيا . ولا ندري الى أي مدى توغل علي بك جنوبا الا انه من المعروف انه عاد الى القسطنطينية وفي حوزته كثير من الاسرى البرتغاليين وكثير من الغنائم[٤٢] .

وفي عام ١٥٨٨ عاد علي بك الى شرق افريقيا تلبية لطلبات تلقاها من سكان الساحل ، الذين وعدوه ايضا بأن يساهموا في تكاليف الحرب ، وظهر بالفعل في ساحل شرق افريقيا أسطول عثماني مكون من خمس سفن ، واستقبل علي بك وأسطوله استقبالا حارا ، وكانت خطة علي بك أن يقضي أولا على مالندي بمساعدة ممبسة ، الا ان سلطان مالندي لم ينتظره وإنما هاجم اسطول علي بك كما طلب سلطان مالندى النجدة من البرتغاليين ، وعلى الفور تحرك اسطول برتغالي لمهاجمة أسطول علي بك في ممبسة ، وفي الوقت نفسه هاجمت علي بك بعض القبائل الافريقية من البر ، فوقع علي بك بين نارين وتمكن البرتغاليون من أسره وتبديد قواته ، وأرسلوه الى لشبونة ويقال انه مات هناك بعد ان اعتنق المسيحية .

مما سبق نرى ان المساهمة العثمانية في طرد البرتغاليين من شرق افريقيا لم تكن مباشرة ومع ذلك كانت ايجابية للاسباب الآتية :

١ - كان ظهور العثمانيين في البحر الأحمر عونا معنويا للمسلمين ، كما كان مصدر الهام للمسلمين للقيام بالثورات ضد البرتغاليين واستمرارية هذه الثورات الجهادية لاعتقاد المسلمين هناك بأن الدولة الاسلامية سوف تأتي يوما ما لتحريرهم .

٢ - ساند العثمانيون فعلا بعض القوات الاسلامية وأمدوهم بالسلاح والمعدات كما سبق ان ذكرنا .

٣ - نجح العثمانيون في احباط التحالف الحبشي - البرتغالي وكان ذلك قد ساهم في اضعاف الوجود البرتغالي .

المقاومة الوطنية :

تمثل الثورات الوطنية الاسلامية بشرق افريقيا ضد الحكم البرتغالي ملحمة رائعة من ملاحم الجهاد الاسلامي ، ذلك ان المسلمين في تلك المناطق لم يستسلموا قط للحكم البرتغالي ، بسبب ما كان يمثله ذلك الحكم من تهديد لعقيدتهم وحياتهم السياسية والاقتصادية ، اضافة الى رفضهم اساسا الولاء لحكام غير مسلمين وغيرتهم من المحاولات البرتغالية الرامية

الى نشر المسيحية بينهم . ولولا المنافسات بين السلطنات الاسلامية التي استغلتها البرتغال خير استغلال ، كالمنافسة التي كانت محتدمة بين ممبسة ومالندي ، اضافة الى تجنيد البرتغاليين بعض القبائل ضد المسلمين ، لما تمكنت البرتغال من البقاء بساحل شرق افريقيا طوال تلك الفترة ، ذلك انه لم تواجههم ثورة شاملة وإنما كانت كل سلطنة أو مدينة تقوم بالثورة على حدة بمعزل عن السلطنات الاخرى ولم تؤد محاولات سلاطين ممبسة في التودد الى سلاطين مالندي أو تحريضهم لسكان زنجبار وبمبا الى توحيد الصف الاسلامي ، ومع ذلك فلم تخمد الثورات الاسلامية بل ظلت مستمرة مما ارهق البرتغاليين . وكما سبق ان ذكرنا فإن كل تحرك عثماني ضد البرتغاليين كان يؤدي الى اشعال الثورة في منطقة من مناطق شرق افريقيا[١٢] .

وكانت مدينة ممبسة أول مدينة تصدت للوجود البرتغالي وبدأت حركة المقاومة الاسلامية للاستعمار البرتغالي[١١] . وقد أخمد البرتغاليون هذه المقاومة بعنف وقسوة فأحرقوا المدينة عام ١٥٠٥م ، ومع ذلك واصل سلطان ممبسة كفاحه ضد البرتغاليين ، فكون قوة سواحلية واتصل بسكان زنجبار وبمبا عام ١٥٢٨ للمشاركة في حركة الجهاد ، الا ان هؤلاء خافوا العاقبة فتخلوا عنه فأسرع البرتغاليون الى حصار المدينة مما أدى الى قبول السلطان دفع جزية لملك البرتغال والتعهد بعدم الاتصال بالعثمانيين مقابل فك الحصار .

سبق ان اشرنا الى ان سكان ساحل افريقيا الشرقية قاموا بثورة مع علي بك ضد البرتغاليين ، ولكن بمجرد رحيل علي بك وصل الى تلك المناطق عام ١٥٨٧ اسطول برتغالي قدم من جوا بطلب سلطان مالندي ، فقام البرتغاليون بحركة تأديبية ضد المدن التي تعاونت مع علي بك ، وقاموا بأعمال شنيعة وقاسية لدرجة ان سكان ممبسة اخلوها فدخلها البرتغاليون وهي خاوية ، بينما اضطر شيخ بات الى التذرع بأن الثورة فرضت عليه من قبل العثمانيين ، في حين ان شيخ لامو هرب الى فازا وتبعه البرتغاليون وعاثوا فيها الفساد . أما مدينة مقديشيو فقد قاومت البرتغاليين أشد مقاومة بفضل قوة اسوارها وبسالة سكانها .

وللأسف فإن التفكك كان السبب الرئيسي فيما آلت اليه ثورة سكان مدن ساحل افريقيا ، لأنه كان مصدر ضعف السلطنات الاسلامية ، كما كان في نفس الوقت مصدر قوة للوجود البرتغالي في شرق افريقيا .

وقد استغل البرتغاليون ظروف تفكك السلطنات الاسلامية كما استغلوا المنافسات التي كانت قائمة بين تلك السلطنات مما أدى كثيرا الى وقوع حروب بين بعض السلطنات . ففي عام ١٥٩٢ قام سلطان ممبسة بشن حملة عسكرية على مالندي ، بغرض القضاء على أهم حليف للبرتغاليين وبالتالي توحيد السلطنتين لتكوين قوة عسكرية ، تمهيدا للانقضاض على البرتغاليين . غير انه تعرض لهجوم كاسح من احدى القبائل الموالية لمالندي ، مما ادى الى قتله وأسر ابنائه وبعض قواته وارسل احد ابنائه وكبار المشايخ الى مالندي لتقديم ولاء

الطاعة لسلطانها . وكانت النتيجة ان تمكن سلطان مالندي من ضم سلطنة ممبسة الى ممتلكاته . ثم تم الاتفاق بين البرتغاليين وسلطان مالندي على المشاركة في الغنائم ، بحيث يحق للبرتغاليين بناء الحصون في ممبسة ووضع حاميات عسكرية فيها والاشراف على ايراداتها الجمركية وتوطين البرتغاليين فيها مقابل ان يقيم السلطان في ممبسة ويحكم سكانها ويحصل على ثلث ايراداتها الجمركية (٤٥).

هكذا كانت مالندي حليفة للبرتغاليين مع اختلافهم في الدين والجنس رغبة في الانتقام من ممبسة . وبعد هذه المعارك توجه البرتغاليون الى محاولة ترسيخ اقدامهم في ممبسة ، فشرعوا في بناء حصن ممبسة المعروف بحصن يسوع في الفترة من ١٥٩٣ ـ ١٦٣٠ ، كما اقاموا منشآت للجمارك في المدينة في عام ١٥٩٤ . واتخذوا خطوات ايجابية لتعزيز مركزهم الاقتصادي في ممبسة فأجبروا السفن القادمة من الهند الى اوربا على التوجه اليها ودفع رسوم جمركية تصل الى ٦٪ من واقع ما تحمله السفن من بضائع(٤٦) .

كان حصن ممبسة بداية الاحتكاك بين البرتغاليين وسلطان مالندي ، المدعو حسين الذي بدأ يشكو من عدم حصوله على نصيبه من ايرادات الجمارك بينما اتهمه البرتغاليون بعدم الولاء لهم ، مما ادى الى هروب السلطان من ممبسة عام ١٦١٤ . غير انه اغتيل بواسطة احدى القبائل لقاء رشوة قدمها لهم البرتغاليون كما أسر ابنه يوسف ونقل الى جوا ليربى هناك تربية نصرانية كاثوليكية بعيدا عن بيئته الاسلامية ثم أعيد الى ممبسة عام ١٦٣٠ بعد ان عمد هناك نصرانيا . الا ان يوسف هذا خيب آمال البرتغاليين فيه ليكون عونا لهم على اساس انه مسيحي مثلهم ، اذ انه كان يتظاهر بالنصرانية مخفيا اسلامه ، منتظرا فرصة كي يثأر من البرتغاليين ، حتى واتته هذه الفرصة في اغسطس ١٦٣١ حيث كان البرتغاليون في أحد ايام هذا الشهر يحتفلون باحد اعيادهم في حصن ممبسة . فهاجمهم يوسف على غرة ومعه ثلاثمائة من اتباعه فقضى على كثير من أفراد الجالية البرتغالية وعلى بعض المتنصرين الوطنيين كما قتل بيده قائد الحامية البرتغالية وزوجته وابنته والقس الذي كان يقيم الصلاة(٤٧) .

وكانت نتيجة هذه الحادثة أن تقوى مركز السلطان يوسف كما كانت البداية الفعلية لحرب طويلة ومريرة قادها السلطان ضد البرتغاليين الذين كانوا مصممين ليس لاستعادة مركزهم ، وانما كذلك للانتقام من السلطان يوسف الذي وجه كل جهوده للجهاد المقدس ضد الوجود البرتغالي . وفي نفس الوقت فقد أرسل البرتغاليون حملة عسكرية من جوا الا انهم لجأوا الى المناوشات خوفا من استعدادات السلطان يوسف في الحصن ، ثم عادوا الى جوا ، ولكنهم واصلوا ارسال الحملات حتى تمكنوا من احتلال الحصن بعد ان تركه السلطان يوسف عام ١٦٣٢م . وخلال ذلك أشيع ما يفيد وفاة السلطان يوسف مما شجع البرتغاليين على تنفيذ خططهم ، فأصلحوا الحصن عام ١٦٣٥ ثم قاموا باخضاع الامارات الاسلامية التي كانت

قد انضمت الى السلطان يوسف . وبذلك استعاد البرتغاليون ساحل شرق افريقيا ولكن الى حين لأنه حدث في الساحة الاسلامية أمر هام في تلك الفترة وهو تحرر العمانيين من السيطرة البرتغالية فهبوا لمساعدة اخوانهم في شرق افريقيا مما كان سببا في تصفية الوجود البرتغالي في تلك البقاع الى الأبد كما سيأتي الحديث عنه .

دور عمان فى تصفية الوجود البرتغالى بشرق افريقيا :

خضعت عمان مثل شرق افريقيا للحكم البرتغالى فترة طويلة ابتداء من القرن السادس عشر. ولم يجد الحكم البرتغالى قبولا فى عمان لأسباب دينية وقومية واقتصادية، بل كانت الثورات الوطنية ضد الحكم البرتغالى مستمرة. غير انه فى عام ١٦٢٤م حدث فى عمان أمر هام كانت له أثاره البعيدة المدى لا فى عمان وحدها وانما فى مناطق أخرى. فى ذلك العام اتحد العمانيون بتنصيبهم ناصر بن مرشد اليعربى اماما للبلاد، وكان هذا الحدث بداية قيام دولة عربية قوية تحملت بأمانة مسئولية الجهاد الاسلامى ضد الوجود البرتغالى، حيث نجحت هذه الدولة الفتية فى عهد حكامها الأوائل خاصة ناصر بن مرشد (١٦٢٤ ـ ١٦٤٩) وسلطان بن سيف (١٦٤٩ ـ ١٦٦٨) فى القيام بحركات تحررية ناجحة كانت نتيجتها تحرير عمان وشرق افريقيا.

ولا عجب أن لبى العمانيون استغاثة اخوانهم فى شرق افريقيا، فاضافة الى مشاركتهم معهم معاناة الخضوع للحكم البرتغالى الذى تحرروا منه، فقد كانت بين الجانبين صلات قوية تعود الى عهود قديمة قبل الاسلام، حيث كان المهاجرون العمانيون كغيرهم من عرب الجزيرة، يتوجهون الى تلك المناطق بدافع التجارة أو طلبا للرزق. وتطورت هذه الهجرات بعد ظهور الاسلام. فالى جانب الدوافع السابقة ظهرت عوامل أخرى كانت سببا فى هجرة أعداد هائلة من سكان الجزيرة العربية الى مناطق شرق افريقيا وهى الرغبة فى نشر الاسلام أو الهجرة نتيجة للمنازعات السياسية أو المذهبية [٤٨].

وفيما يتعلق بعمان فان الظروف السياسية التي تعرضت لها فى عهد دولتى بنى أمية وبنى العباس قد دفعت باعداد غفيرة من العمانيين فى الهجرة الى شرق افريقيا، ولعل أهم تلك الهجرات هى هجرة الاخوين سليمان وسعيد بن عباد الجلندى فى الفترة من عام ٦٩٤ ـ ٧٠٤ [٤٩].

وتوالت الهجرات العمانية بعد ذلك منها هجرة سليمان بن سليمان بن مظفر النبهانى فى القرن الثالث عشر الميلادى. وقد وجد العمانيون فى شرق افريقيا الامان ورغد العيش فساهموا فى الحركة التجارية وازدهار الثقافة الاسلامية وانتشار الدين الاسلامى هناك.

ولا شك أن هذه الصلة العضوية اضافة الى الصلة الدينية كانت وراء اهتمام العمانيين بتحرير شرق افريقيا حتى قبل أن يزيلوا الوجود البرتغالى من عمان نفسها. ففى عهد الامام سلطان بن سيف طلب سكان شرق افريقيا النجدة

من العمانيين بعد أن سمعوا بنجاحهم في مطاردة البرتغاليين، فلبى السلطان استغاثتهم وأرسل أسطوله الى سواحل شرق افريقيا عامي ١٦٥٠، ١٦٥٢ فهاجمت أساطيله زنجبار وباتا ودمر كثيرا من التحصينات البرتغالية (٥٠).

وكان هذا الحادث عاملا مشجعا للوطنيين للقيام بالثورة ضد البرتغاليين كما كان عاملا مفزعا بالنسبة للبرتغاليين الذين سارعوا بارسال حملة عسكرية بقيادة «كابرا» نزلت بالقرب من باتا وتمكنت من تحرير الاسرى البرتغاليين. وتلا ذلك أن قام البرتغاليون باضطهاد المسلمين والتنكيل بهم انتقاما منهم، وعلى أثر ذلك طلب المسلمون النجدة مرة أخرى من أئمة عمان.

وكان أئمة عمان يعتمدون في حربهم على قوة عسكرية بحرية يقودها «رجال بحر مدربون خبروا مياه المحيط الهندي على ظهور سفنهم منذ صغرهم (٥١)» وقد قاد الامام سلطان بن سيف أسطوله القوى عام ١٦٦٠ فاستولى على مدن «فازا وممبسة» غير أنه لم يسيطر عليهما لقوة دفاعاتهما. ثم عين السلطان العماني محمد بن مبارك حاكما على تلك الجهة، وعاد هو مسرعا الى عمان نتيجة لبعض الحوادث التي وقعت في عمان أثناء غيابه، مما كان له أثر كبير في تمكن البرتغاليين من الاستيلاء على ممبسة مرة ثانية عام ١٦٦١.

بعد هذه الاحتكاكات الحربية اتخذت الحرب بين عمان والبرتغال بساحل شرق افريقيا طابع اصرار كل منهما على الحاق الهزيمة بالآخر. اذ بينما كان العمانيون مندفعين بروح الجهاد وبحلاوة الانتصارات العسكرية، كان البرتغاليون يستميتون في الدفاع عن آخر بقايا امبراطوريتهم في الشرق. ففي عام ١٦٦٩ اتجه أسطول عماني الى ممبسة وموزمبيق ثم انسحب. وتبعه توسع برتغالي في الساحل حيث استولوا من جديد على سيو ولامو وماندا وارتكبوا أفظع الجرائم ضد المسلمين، لدرجة أنهم اتخذوا من مسجد باتا (٥٢) اسطبلا لخيولهم، مما دفع الامام سيف بن سلطان الى ارسال أسطول تمكن من تحرير باتا. فانسحب البرتغاليون الى موزمبيق عام ١٦٧٩م. وحررت ممبسه عام ١٦٩٨ بعد حصار دام شهورا عديدة عاني البرتغاليون خلاله كثيرا من المآسي سواء في نقص المؤن أو المعدات الحربية أو في الخسائر البشرية اضافة الى الظروف النفسية التي عاشوها خلال الحصار، خاصة بعد فشل كل المحاولات البرتغالية في فك الحصار مما أدى في النهاية الى سقوطها في يد العمانيين (٥٣).

وبالرغم من أن تحرير ممبسة قد كلف العمانيين جهدا كبيرا وتضحيات جسيمة الا أنه مع ذلك لم يثبط من اصرارهم على هزيمة البرتغاليين، بل على العكس كان عاملا مشجعا لهم اذ تلا ذلك تحرير بمبا وكلوة وباتا وزنجبار، كما كان عاملا مفزعا بالنسبة للبرتغاليين لأن تحرير ممبسة كان ايذانا بأفول شمس الامبراطورية البرتغالية في ساحل افريقية الشرقية. وقد تكررت المحاولات البرتغالية لاستعادة ممبسة وذلك في الأعوام ١٦٦٩، ١٧٠٣، ١٧١٠ حتى اذا كان عام ١٧٢٨ تمكنوا من استعادتها

ولكن بقوا فيها لمدة سنتين فقط ارتكبوا خلالهما أشد الفظائع ضد المسلمين، ولكن لم يستسلم المسلمون لبطش البرتغاليين وانما قاوموا كل المحاولات البرتغالية وصمموا هذه المرة على التحرر النهائي، فقاموا بالثورة وطالبوا بالنجدة من أئمة عمان. وانتهز المسلمون فرصة انشغال البرتغاليين في الاحتفال بأحد أعيادهم فنزلت جموع المسلمين الى الشوارع للانقضاض على البرتغاليين وهوجمت الكنائس واستسلم حصن ممبسة. وفي اثناء ذلك وصلت النجدة العمانية بقيادة محمد بن سعيد المعموري فاستولى نهائيا على حصن ممبسة وعين نائبا للامام في تلك الجهات.

وهكذا تمكن العمانيون والمسلمون في شرق افريقيا من هزيمة البرتغاليين ـ سادة الأمس ـ هزيمة ساحقة في ممبسة وبدأت المناطق الأخرى تخوض غمار الثورة حتى تحررت افريقيا الشرقية في عهد الامام احمد بن سعيد من الحكم البرتغالي وأصبحت المنطقة من خليج دلجادو جنوبا الى مقديشيو شمالا تابعة للحكم العماني(٥٤).

مركز الاسلام بساحل شرق افريقيا والقرن الافريقي قبل مجيء البرتغاليين وحتى الآن :

يحتاج الحديث عن هذا الموضوع الى بحث مستقل وليس غرضي هنا سوى أن أشير اليه مجرد اشارات عابرة موجزة أملا في أن افرد له بحثا خاصا في المستقبل.

من المعلوم أنه كانت في شرق افريقيا والقرن الافريقي في العصور الوسطى حضارة راقية مزدهرة، وقد اعترف بذلك البرتغاليون أنفسهم وغيرهم من القوى الاوروبية التي قدمت الى المنطقة فيما بعد، كانت هذه الحضارة شاملة لجميع أوجه الحياة وهي الانتاج العقلي والمادي الذي ساهم في بنائه المسلمون سواء اكانوا أفارقة أو عربا أو فرسا، وكان طابع هذه الحضارة عربيا ـ اسلاميا على اساس أن لغتها كانت العربية.

لم تقم هذه الحضارة على التوسع الحربي، وانما قامت على المبادىء الاسلامية طبقا للآية الكريمة «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة». وبذا كانت حضارة سلمية طابعها التفاهم والحوار والاستقرار، وقد قامت نتيجة لذلك مدن أو سلطنات أو دويلات اسلامية على طول الساحل الشرقي لافريقيا الشرقية والقرن الافريقي. ويلاحظ أن هذه الحضارة كانت محصورة في الساحل بالنسبة للساحل الجنوبي من افريقيا الشرقية حيث قامت فيه مدن مثل كلوة ومالندي وممبسه، بينما كانت في منطقة القرن الافريقي أكثر ازدهارا وأوسع رقعة اذ امتدت الى داخل الهضبة الحبشية وكانت هناك سلطنات قوية مثل سلطنة مقديشيو أو دويلات قوية أمثال دولة أوفات ودولة عدل (زيلع) التي نقلت العاصمة فيما بعد من زيلع الى هرر(٥٥).

كانت لكل هذه المدن أو السلطنات أو الدويلات نظمها السياسية القائمة على نظام الشورى الاسلامي، كما كان يسود فيها النظام الاسلامي في القضاء والمال

والتجارة والحرب والتعليم.

كانت الحركة العلمية مزدهرة فى كل تلك البقاع، حيث قامت هناك مدن جامعية : مثل مقديشيو وبراوة وزيلع ومركة وكلوة وممبسة. وقد توافد على هذه المدن الجامعية العلماء من بعض أنحاء العالم الاسلامى. وأخرجت هذه المدن الجامعية علماء في التفسير والحديث والفقه وعلماء العلوم العربية وحفظة القرآن والكتبة. وكان لهذه الطبقة المثقفة (بلغة العصر الحديث) مركزها السياسى والاجتماعى ودورها الريادى فى نشر الاسلام وترسيخ العقيدة الاسلامية، كما لعبت دورها القيادى للوقوف فى وجه الغزو البرتغالى في الساحل الجنوبى والانخراط فى صفوف المجاهدين وتعبئة المسلمين فى منطقة القرن الافريقى للتصدى للعدوان الحبشى. واتضح دور هذه الطبقة خاصة فى حروب الامام أحمد بن ابراهيم فى القرن السادس عشر.

وبينما الحالة على هذا النحو، أى هدوء واستقرار وانتشار تدريجى للاسلام نحو الداخل فى الساحل الجنوبى وغلبة سياسية وفكرية للمسلمين في منطقة القرن الافريقي، مع انتشار مذهل للاسلام نحو الداخل، تصل الى المنطقة طلائع الغزو البرتغالى فى نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، فيصبح شرق افريقيا كله مسرحا لحروب صليبية مريرة، ليس مصدرها أوروبا وحدها (كما كان الحال بالنسبة للحروب الصليبية فى بلاد الشام) وانما اوروبا والحبشة معا(وكما يحدث الآن)، فيتعرض الساحل الجنوبى للغزو البرتغالى من البحر ويتم احتلاله، بينما تعرض القرن الافريقى للغزو الحبشى من البر والغزو البرتغالى من البحر، وتمت هزيمة الجيوش الصومالية.

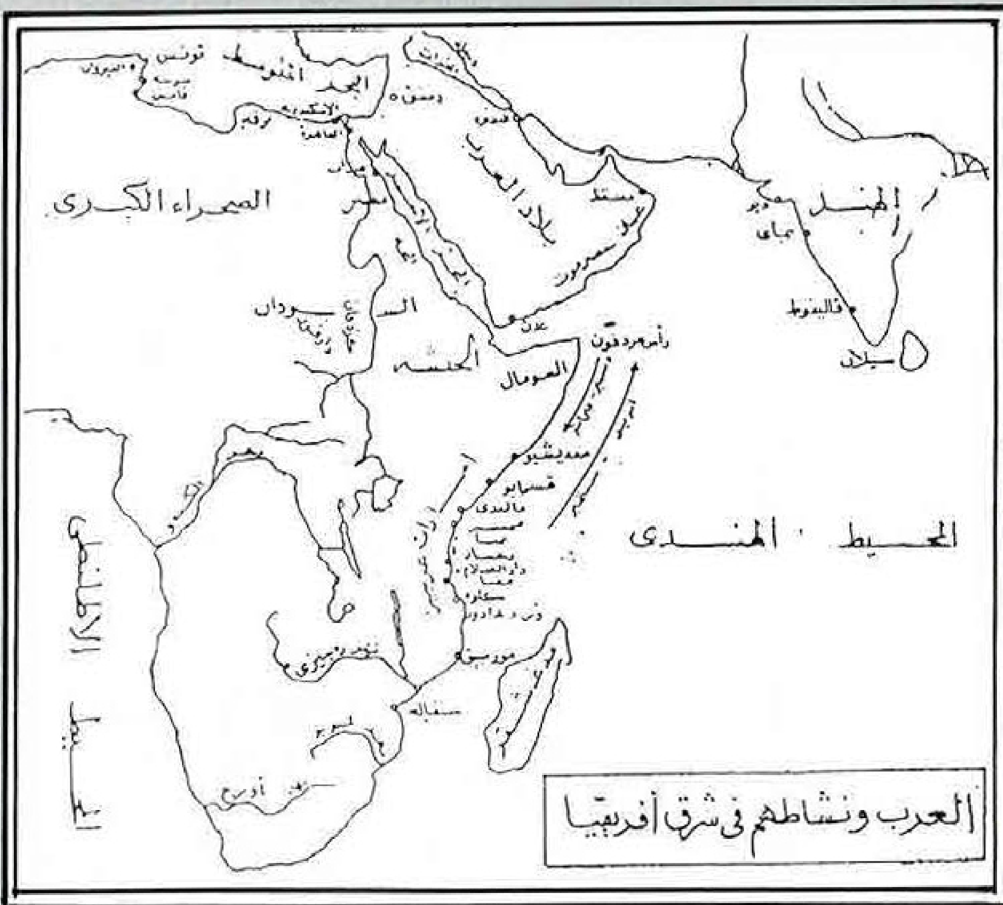
وهكذا فقد الاسلام مركزه السياسى وانتقلت السيادة السياسية الى الصليبيين الذين استهدفوا اقتلاع الجذور الاسلامية من الأساس، واتبعوا فى سبيل تحقيق ذلك سياسة قمعية ضد المفكرين والعلماء والامراء فأصيبت المنطقة كلها بجمود فكرى وتوقف حضارى. ولكن لحسن الحظ بشاء الله ما لم يكن فى حسبان الصليبيين فنتيجة للاضطهاد لجأ عدد كبير من علماء المسلمين الى المناطق الداخلية فانتشر الاسلام هناك وانتعش وأصبحت المناطق الداخلية بمرور الزمن مصدر المدد البشرى المسلم لمقاومة المحتلين. ولما تحررت المنطقة من الحكم البرتغالى زادت المسئوليات الملقاة على عاتق المسلمين، وبدأ المسلمون يعوضون ما فاتهم عمله في السنوات التى عاشوها تحت الكابوس البرتغالى، وبدأ الدعاة فى لم الشمل من جديد للجهاد السلمى لنشر الاسلام. وتحرك الاسلام نحو عمق القارة فوصل الى موزمبيق وسفالة ونياسالاند وكينيا وتنجانيقا وأوغندا وهضبة البحيرات والى داخل الحبشة وبدأت المراكز الحضارية الساحلية تنتعش من جديد فى تخريج الدعاة، والعلماء، وحفظة القرآن، وأئمة المساجد. وانتشر الدعاة فى كل مكان فى الداخل وبنيت المساجد ومدارس القرآن ومراكز علوم الدين والعلوم العربية.

ومرة أخرى بينما الحالة على هذا النحو السالف الذكر فى شرق افريقيا

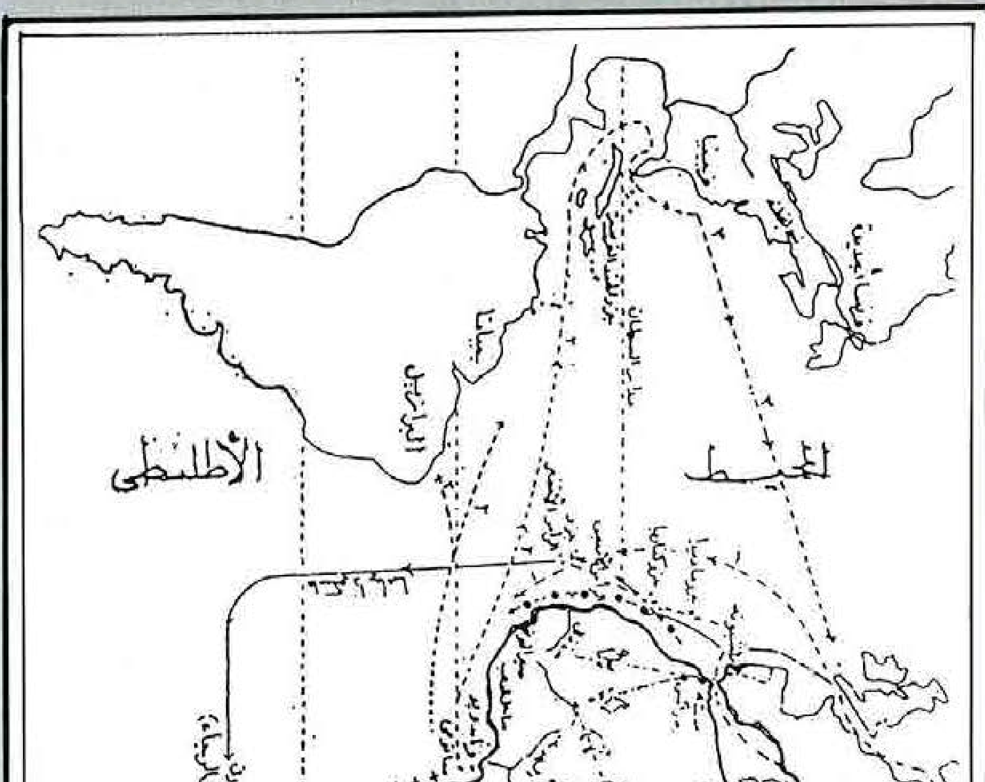
يصل الى المنطقة غزاة اوروبيون جدد : المان ـ انجليز ـ ايطاليون ـ فرنسيون يأبون أن يبقى سكان المنطقة أحرارا، فيتقاسمون المنطقة ويصبح الساحل الجنوبى من نصيب بريطانيا، ويتفقون على تفتيت الجسم الصومالى الى خمسة أجزاء، فتحتل بريطانيا أقصى جنوب الصومال وتضمه اداريا الى كينيا ليصبح فيما بعد جزءا من كينيا، كما تحتل منطقة شمال الصومال، وتحتل ايطاليا جنوب الصومال، كما تحتل ارتيريا. وتحتل فرنسا أقصى شمال الصومال، وتحظى الحبشة بمكانة الدولة الممتازة كما كانت فى العهد البرتغالى ويهدى لها الصومال الغربى أى (الأوجادين) مكافأة لها لدورها الصليبي فى المنطقة. وهكذا مرة أخرى فقد المسلمون فى شرق افريقيا دورهم الريادى السياسى وحتى الآن.

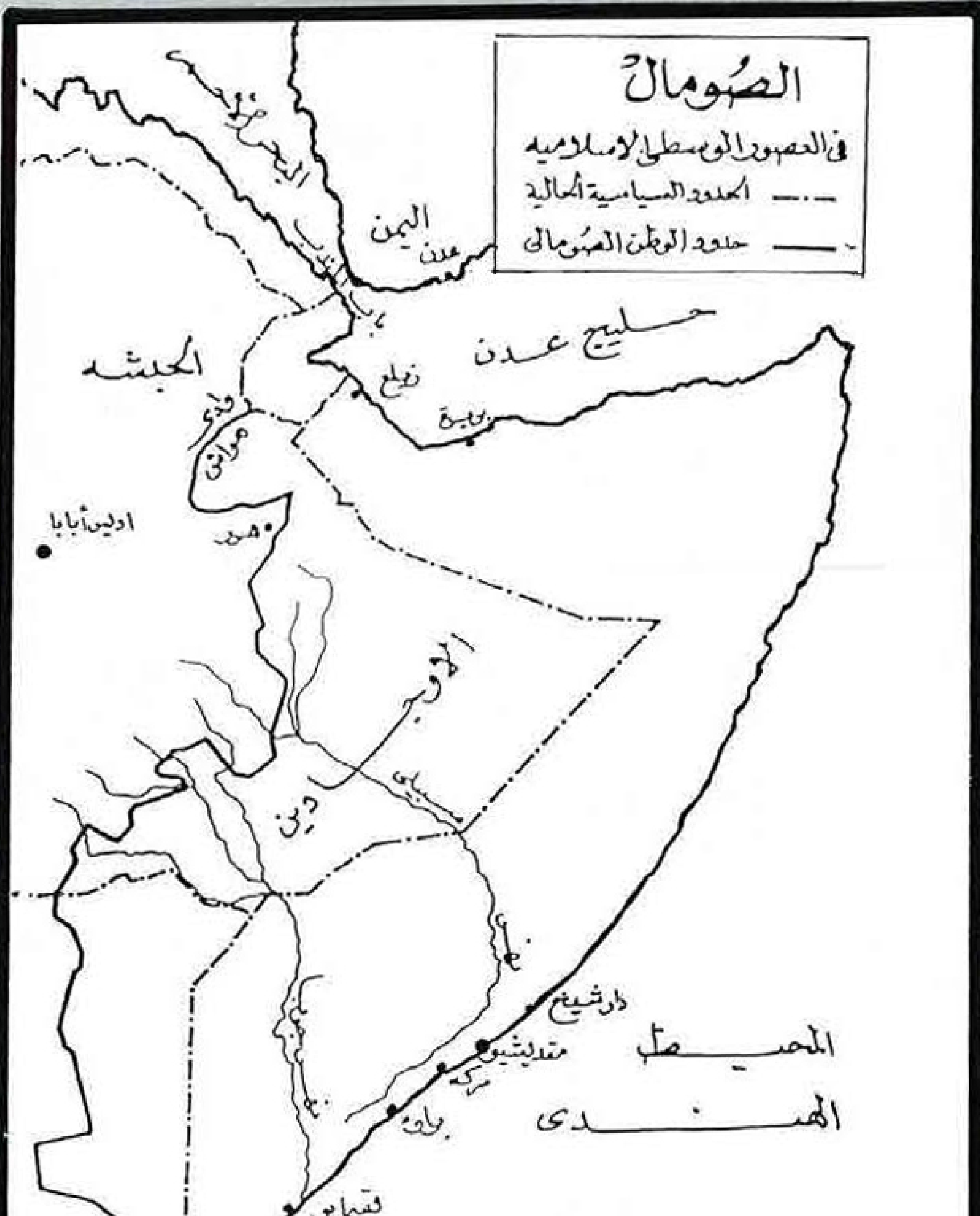
وبعد أليست هذه الحالة نتيجة لحروب صليبية تقوت بقدوم البرتغاليين ثم الانجليز والايطاليين والفرنسيين وهي مستمرة حتى الآن ؟ والا ما معنى ما حدث للصومال من تفتيت وما معنى ما يحدث للاسلام الآن فى تنزانيا وكينيا من مسخ، وابادة جماعية للمسلمين في اوغندا، وما يحدث للمسلمين في الصومال الغربى أو ما يحدث لمسلمي الحبشة وما معنى ما حدث ويحدث للمسلمين فى ارتيريا من ابادة وتشريد، ثم ما معنى ما يحدث الآن فى جنوب السودان. ثم بماذا يفسر المركز الخاص الذى كانت وما زالت تتمتع به الحبشة قديما وحديثا من لدن الدول الأوروبية. غربية كانت أم شرقية اضافة للولايات المتحدة الامريكية ؟

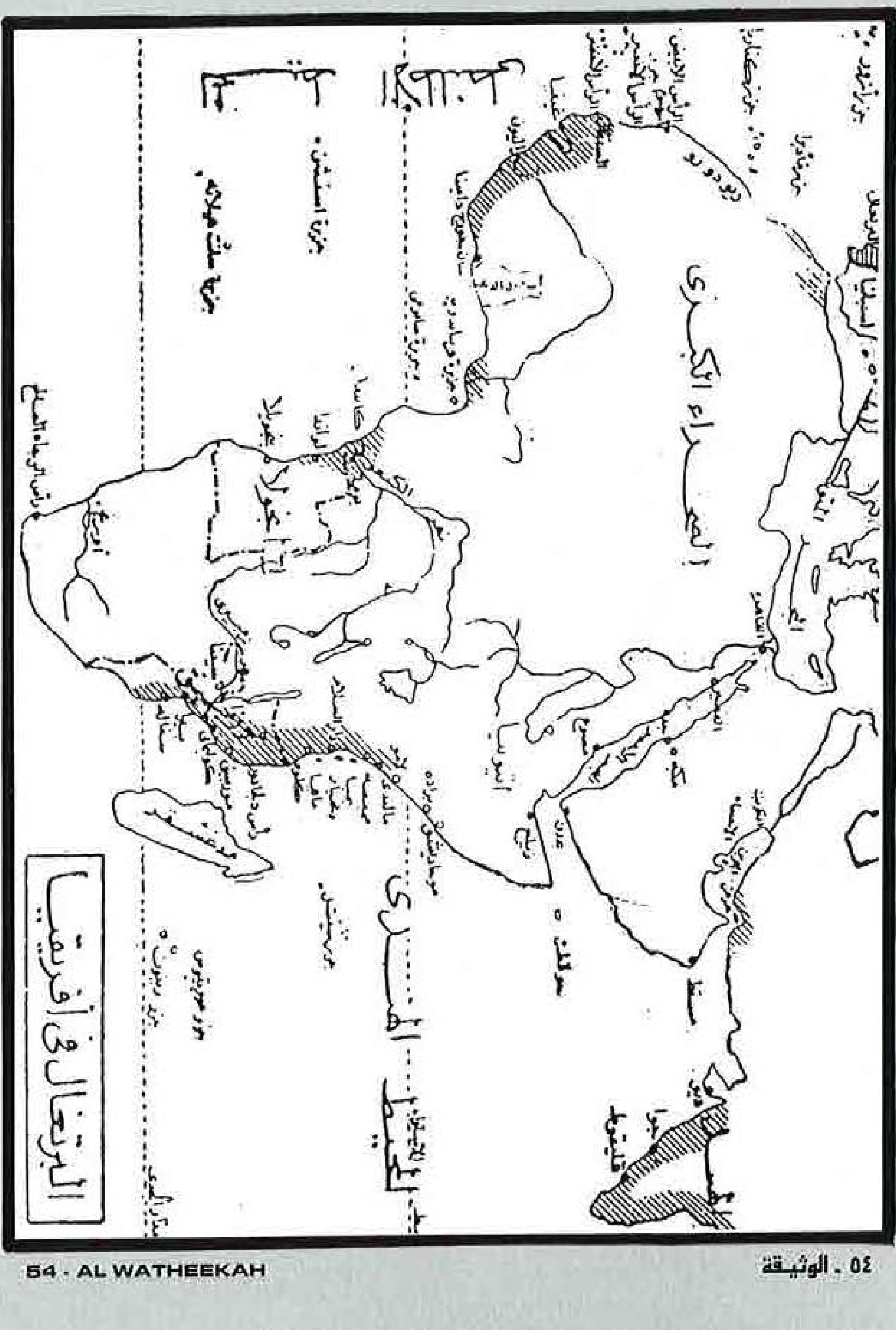
ومرة اخرى أليست هذه حروب صليبية؟. نعم على الاقل طبقا لوجهة نظرنا نحن أبناء المنطقة.



العرب ونشاطهم فى شرق أفريقيا


رحلات البرتغال الكشفية
المحيط
الأطلسى


الصومال
في العصور الوسطى الاسلامية
الحدود السياسية الحالية
حدود الوطن الصومالي
اليمن
عدن
خليج عدن
الحبشة
زيلع
بربرة
اديس أبابا
هرر
المحيط
الهندي
مقديشو
براوة
كسمايو
كيلومتر


البرتغال في أفريقيا
الصحراء الكبرى

الهوامش

١ ـ د . عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم ـ علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، ص ١٧ ، دارة الملك عبدالعزيز ، الرياض ، ١٩٨٢ .
٢ ـ د . جلال يحي ـ تاريخ افريقيا الحديث والمعاصر ص ٧٢ ، المكتب الجامعي الحديث ـ الاسكندرية ـ ١٩٨٤ ، انظر كذلك
E,W. Bovill – The Golden Trade of Moors, P.91
٣ ـ نوال حمزة يوسف الصيرفي ـ النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرنين ١٠هـ/١٦م ، ص ٦٩ ، الرياض ، ١٩٨٣ .
٤ ـ د . محمود متولى ود . رأفت الشيخ ـ افريقيا فى العلاقات الدولية المعاصرة ، ص ١٤١ ، دار الثقافة ـ القاهرة .
٥ ـ نوال حمزة ـ مصدر سابق، ص ٦٨ .
٦ ـ المصدر السابق ص ٦٦، لمزيد الاطلاع على دوافع البرتغال الدينية انظر : شوقى الجمل ـ تاريخ كشف افريقيا واستعمارها ص ١٣١ ، ط ٢ مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٨٠ . وكذلك د . محمود متولى ود . رأفت الشيخ ـ مصدر سابق، ص ٣٣ ـ ٣٧ .
٧ ـ نوال حمزة ـ مصدر سابق ، ص ٦٧ .
٨ ـ د . سيد مصطفى سالم ـ الفتح العثمانى الاول لليمن (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) ص ٦٣ ، ط ٣ ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٨ .
٩ ـ د . عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم ـ مصدر سابق، ١٨ .
١٠ ـ د . السيد رجب حراز ـ افريقية الشرقية والاستعمار الاوروبى ص ١٣، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٨ . ونوال حمزة مصدر سابق ص٧٠ .
١١ ـ نوال حمزة ـ مصدر سابق ص ٧٢ ، لمزيد الاطلاع عن البعثات الدينية البرتغالية الى الحبشة انظر : ممتاز العارف ـ ارتيريا بين احتلالين ص ٥٥ ، دار الجاحظ ، بغداد .
١٢ ـ لمعرفة حوادث هذه الحرب انظر كلا من : ـ
أ ـ عرب فقيه (شهاب الدين احمد عبدالقادر بن سالم بن عثمان

الجيزاني) : تحفة الزمان (فتوح الحبشة) . الجزء الاول . وقد عاصر هذا المؤلف احداث الحرب ووصفها وصفا دقيقا وموضوعيا .
ب - د . رجب محمد عبدالحكيم - العلاقات السياسية بين مسلمي الزيلع ونصارى الحبشة في العصور الوسطى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥ .

١٣ - نوال حمزة - مصدر سابق ص ٧٨ .
١٤ - د . محمود متولى ود . رافت الشيخ - مصدر سابق ، ص ٥٤ .
١٥ - بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ، ج ٢ ، ص ٦٢٤، الدوحة ١٩٧٦ .
١٦ - د . حسن ابراهيم حسن - انتشار الاسلام في القارة الافريقية، ط٣ ، ص ١٧٦، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٨٤ .
١٧ - د . محمود متولى ود . رافت الشيخ - مصدر سابق ، ص ٣٣ - ٣٥ .
١٨ - المصدر السابق ، ص ٤٦
١٩ - د . السيد رجب حراز - مصدر سابق ص ١١ - ١٢ ، وانظر كذلك : كتاب العلاقات العربية الافريقية، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار ص ٦٣ ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٧ .
٢٠ - د . حسن ابراهيم حسن - مصدر سابق - ص ١٧٧ .
٢١ - نوال حمزة - مصدر سابق - ص ٩٥ .
٢٢ - د . السيد رجب حراز - مصدر سابق - ص ١٤ .
٢٣ - المصدر السابق - ص ١٥ .
٢٤ - د . حسن ابراهيم حسن - مصدر سابق - ص ١٧٨ .

٢٥ - صلاح الدين حافظ - صراع القوى العظمى حول القرن الافريقي، ص ٥٣ ، عالم المعرفة ، الكويت ، ١٩٨٢ .
٢٦ - د . السيد رجب حراز - مصدر سابق - ص١٥ .
٢٧ - يرد اسمه في كل المصادر هكذا : الامام احمد بن ابراهيم الملقب بـ «جرين» اى «الاشول» وهو خطا ناتج من خطا في ترجمة كلمة "GUREY" الصومالية التى تطلق على الاشول ، وترجمتها بالعربية حرفيا هى «جُرَى» وليست «جرين» او «غرين» ولذا وجب التنويه .
٢٨ - مجلة دراسات افريقية، ص ٥٥ ، العدد الاول، ابريل ١٩٨٥ ، المركز الاسلامي بالخرطوم، وانظر كذلك : ندوة البحر الاحمر في التاريخ والسياسة المعاصرة - ص ٢٣٨ ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٩ .
٢٩ - العلاقات العربية الافريقية - مصدر سابق - ص٦٦ .
٣٠ - د . السيد رجب حراز - مصدر سابق، ص١٥ .
٣١ - د . حسن أحمد محمود - الاسلام والثقافة العربية في افريقية، جـ١ ، ص

٤٧٦ ، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣ .
٣٢ - صلاح الدين حافظ - مصدر سابق - ص٥٤ .
٣٣ - ج.ج لوريمر - دليل الخليج ، القسم التاريخى، الجزء الاول، ص٦٤٣ ، الدوحة ، ١٩٧٦ .
٣٤ - نوال حمزة - مصدر سابق - ص١٨٦ .
٣٥ - د . حسن احمد محمود - مصدر سابق - ص٤٧٧ .
٣٦ - صلاح الدين حافظ - مصدر سابق - ص٥٤ .
٣٧ - بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية - مصدر سابق، ص٦٤٣ .
٣٨ - المصدر السابق - ص٦٥٠ .
٣٩ - المصدر السابق ص ٦٤٧ ، د . شوقى عطا الله الجمل - دور مصر فى افريقيا فى العصر الحديث ، ص ١٠٤ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤ .
٤٠ - د . حسن احمد محمود - مصدر سابق، ص٤٦٦ ، العلاقات العربية الافريقية - مصدر سابق - ص٧٥ .
٤١ - ندوة البحر الاحمر - مصدر سابق ص٢٣٨ - قيل ان الامام انهى علاقاته مع العثمانيين لسببين : -
أ - تذمره من مطالبات الجنود العثمانيين الكثيرة فى الغنائم .
ب - غضب الدولة العثمانية لقتله القائد البرتغالى، وكان العثمانيون يريدون ان يسلم لهم وهو حى حتى يستفيدوا منه فى معرفة الخطط البرتغالية الحربية فى الحبشة .
٤٢ - العلاقات العربية الافريقية - مصدر سابق - ص٧٣ .
٤٣ - د . حسن احمد محمود - مصدر سابق - ص٤٧٨ .
٤٤ - د . السيد رجب حراز - مصدر سابق - ص ١٨ .
٤٥ - المصدر السابق - ص٢٠ .
٤٦ - المصدر السابق - ص٢١ .
٤٧ - المصدر السابق - ص٢١ .
٤٨ - المسح الشامل - مصدر سابق ص ٦٢ .
٤٩ - بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية - مصدر سابق ص٧٧٦ . ومجلة دراسات افريقية ، العدد الثانى، ص ٨٣ ، المركز الاسلامى بالخرطوم/١٩٨٦ .
٥٠ - بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية - مصدر سابق ص٧٨٣ .
٥١ - جلال يحي - مصدر سابق - ص٢٠٥
٥٢ - بحوث مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية، مصدر سابق ص٧٨٥ .
٥٣ - العلاقات العربية الافريقية - مصدر سابق - ص٨٤ .

٥٤ ـ المصدر السابق ـ ص٨٥ ، دونالد وندنر ـ مصدر سابق ـ ص١٤٨ .
٥٥ ـ ١ ـ كلوة وجزيرة زنجبار وتوابعها فى جمهورية تنزانيا الحالية .
٢ ـ مالندى وممبسة ولامو فى كينيا .
٣ ـ مقديشيو ، براوة، كسمانيو، زيلع، بربرة فى جمهورية الصومال الديمقراطية .
٤ ـ هرر عاصمة الصومال الغربى المحتل من قبل الحبشة .

المراجع

١ - د . السيد رجب حراز - افريقية الشرقية والاستعمار الاوروبى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٨ .

٢ - د . السيد رجب حراز، ارتيريا الحديثة (١٥٥٧ - ١٩٤١) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٤ .

٣ - جامعة عين شمس - البحر الاحمر فى التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة (سمنارات الدراسات العليا للتاريخ الحديث) ، القاهرة ١٩٨٠ .

٤ - ج.ج. لوريمر - دليل الخليج، القسم التاريخى، الجزء الاول، اعداد قسم الترجمة بقصر الدوحة، قطر .

٥ - د . جلال يحي - تاريخ افريقية الحديث والمعاصر، المكتب الجامع الحديث الاسكندرية ، ١٩٨٤ .

٦ - د . جلال يحي - مصر الافريقية والاستعمار الاوروبى فى القرن التاسع عشر، دار المعارف، الاسكندرية .

٧ - دونالد وتدنر - تاريخ افريقيا جنوب الصحراء ، ترجمة راشد البراوى مكتبة الوعي العربى، القاهرة .

٨ - و . جون فيج - موجز تاريخ افريقيا، ترجمة دولت صادق ومحمد السيد غلاب .

٩ - حمدى السيد سالم - الصومال قديما وحديثا (جزءان)، وزارة الاستعلامات الصومالية، مقديشيو ، ١٩٦٥ .

١٠ - د . حسن ابراهيم حسن - انتشار الاسلام فى القارة الافريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٨٤ .

١١ - د . حسن احمد محمود - الاسلام والثقافة العربية فى افريقية، الجزء الاول، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣ .

١٢ - مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية (بحوث المؤتمر - الجزء الثانى)، الدوحة - قطر، ١٩٧٦ .

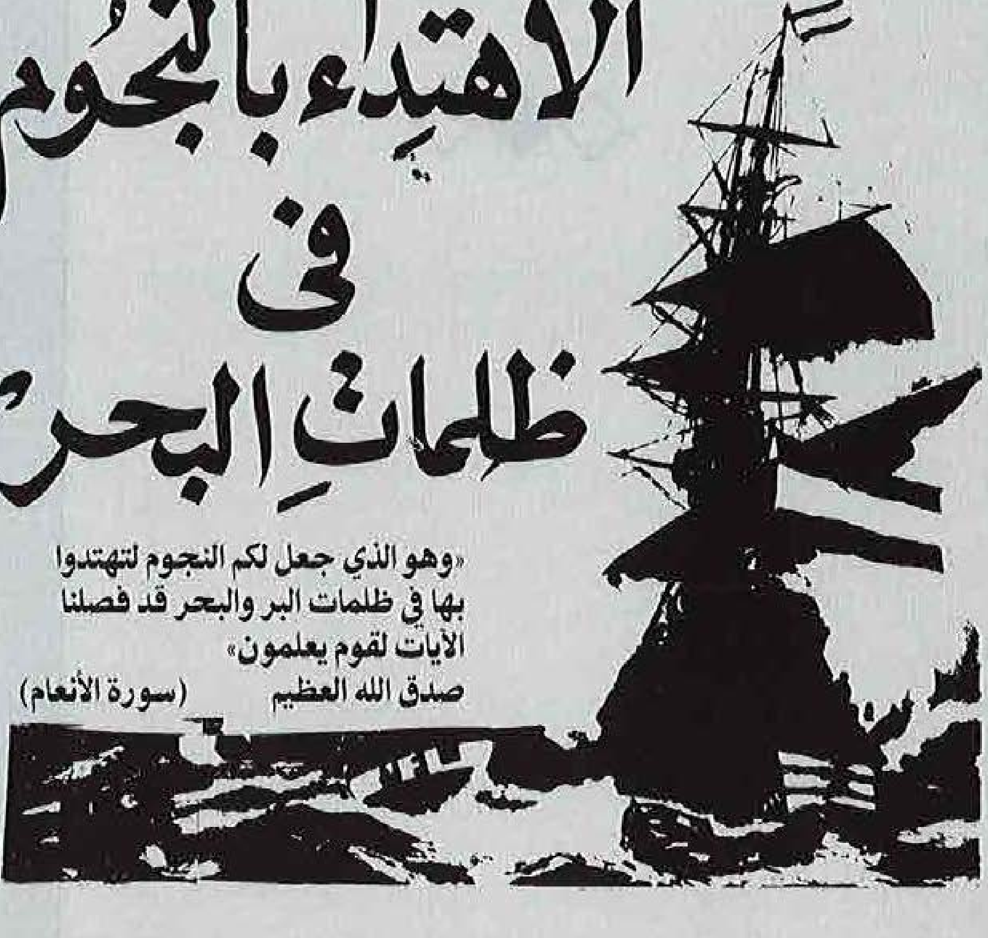
١٣ - د . محمد عبدالعال احمد - البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى

للسيطرة عليه ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية، ١٩٨٠ .
١٤ ـ د . محمود متولى ود . رافت الشيخ ـ افريقيا فى العلاقات الدولية المعاصرة ، دار الثقافة، القاهرة .
١٥ ـ ممتاز العارف ـ ارتيريا بين احتلالين، دار الجاحظ ، بغداد، ١٩٧٩ .
١٦ ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ المسح الشامل لجمهورية الصومال الديمقراطية ، بغداد ، ١٩٨٢ .
١٧ ـ معهد البحوث والدراسات العربية ـ العلاقات العربية الافريقية ، دراسة تاريخية للآثار السلبية للاستعمار، القاهرة، ١٩٧٧ .
١٨ ـ نوال حمزة يوسف الصيرفى ـ النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرنين العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى ، دارة الملك عبدالعزيز الرياض، ١٩٨٣ .
١٩ ـ د . سيد سالم مصطفى ـ الفتح العثمانى الاول لليمن (١٥٣٨ ـ ١٦٣٥) ط٣ ، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٨ .
٢٠ ـ عبدالمجيد عابدين ـ بين الحبشة والعرب، دار الفكر العربى، القاهرة .
٢١ ـ د . عبدالعزيز عبدالغنى ابراهيم ـ علاقة ساحل عمان ببريطانيا، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٩٨٢ .
٢٢ ـ عبدالرحمن النجار ـ الاسلام فى الصومال ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية، القاهرة ، ١٩٧٣ .
٢٣ ـ عرب فقيه (شهاب الدين احمد عبدالقادر بن سالم بن عثمان الجيزانى) ـ تحفة الزمان او فتوح الحبشة ، الجزء الاول ، تحقيق فهيم محمود شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٤ .
٢٤ ـ د . فاروق عثمان اباظة ـ عدن والسياسة البريطانية فى البحر الاحمر (١٨٣٩ ـ ١٩١٨)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦ .
٢٥ ـ فتحى غيث ـ الاسلام والحبشة عبر التاريخ ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة .
٢٦ ـ صلاح الدين حافظ ـ صراع القوى العظمى حول القرن الافريقى، عالم المعرفة الكويت، ١٩٨٢ .
٢٧ ـ د . رجب محمد عبدالحليم ـ العلاقات السياسية بين مسلمى الزيلع ونصارى الحبشة فى العصور الوسطى، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٨٥ .
٢٨ ـ شارل اندريه جوليان، تاريخ افريقيا، ترجمة طلعت عوضى اباظة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٦٨ .
٢٩ ـ د . شوقى الجمل ـ تاريخ كشف افريقيا واستعمارها، ط٢ ، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥ .

٣٠ - د. شوقي الجمل - دور مصر في افريقيا في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤ .
٣١ - E,W Bovill – The Golden Trade of The Moors, Oxford Un. Press.
٣٢ - الدارة (مجلة)، العدد الثاني ، السنة العاشرة، دارة الملك عبدالعزيز الرياض، سبتمبر ١٩٨٤ .
٣٣ - دراسات افريقية (مجلة)، العدد الاول، ابريل ١٩٨٥، المركز الاسلامي الافريقي بالخرطوم .
٣٤ - دراسات افريقية (مجلة) ، العدد الثاني، ابريل ١٩٨٦ ، المركز الاسلامي بالخرطوم .

من علوم العرب البحرية

الاهتداء بالنجوم في ظلمات البحر



«وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون»
صدق الله العظيم (سورة الأنعام)

بقلم : حسن صالح شهاب

لا يزال رجال البادية ، في بلاد العرب ، حتى الوقت الحاضر ، يهتدون في ظلمات البوادي بالنجوم ، ومثلهم أيضا بعض بحارة الجزر والمراسي الصغيرة في البحر الأحمر .

وحتى أيام المقريزي (١٣٦٤ ـ ١٤٤٢ م) كان البحارة العرب لا يستعملون إبرة أو سمكة المغناطيس ، لمعرفة الجهات من حولهم ، الا اذا كانت الليلة مظلمة ، ولم يروا من النجوم ما يهديهم الى الجهة المقصودة . فكانوا حينئذ يخرجون «حديدة مجوفة على شكل سمكة ويبالغون في ترقيقها ، جهد المقدرة ، ثم يعمل في فم السمكة شيء من مغناطيس جيد . ويحك فيها بالمغناطيس . فإن السمكة اذا وضعت في الماء دارت واستقبلت القطب الجنوبي واستدبرت القطب الشمالي (١) ، فإذا عرفوا جهة القطب الشمالي سهل عليهم معرفة بقية الجهات .

ويخبرنا الرحالة العربي ابن جبير (١١٤٥ ـ ١٢١٧ م) بأنه سافر في البحر الأحمر من (عيذاب) على الساحل المصري الى (جدّة) ، وعندما اقتربوا من ساحل الحجاز وشاهدوا الطيور «المحلقة من بر الحجاز ، لمع برق من جهة البر المذكور ، وهي جهة الشرق ، ثم نشأ نوء أظلم له الأفق الى أن كسا الآفاق كلها ، وهبت ريح شديدة صرفت المركب عن طريقه ، راجعا وراءه ، وتمادى عصف الرياح ، واشتدت حلكة الظلمة وعمت الآفاق فلم ندر الجهة المقصودة منها ، الى ان ظهر بعض النجوم فاستدل بها بعض الاستدلال (٢)

وقبل ابن جبير روى لنا بزرك (نحو ٩٥٣ م) قصة قصها عليه محمد بن بابشاد هي انه ، أي محمد بن بابشاد ، «كان يمضي في مركبه من (فنصور) (٣) يريد عمان ، فلما قطع بحر (هرقند) [بين الهند وسمطرى وبورما] ودخل في بحر الهند [بين الهند وشرقي افريقيا] ، وعزم على ان يعبر الى بلاد العرب ، قال له ربان مركبه : أي مرسى تعلق من مراسي العرب ؟ قال : أعلق (ريسوت) (٤) أو فوقها بفرسخ أو دونها بفرسخ . فقال له الربان : نحن نعلق المرسى الفلاني ، دون (ريسوت) بخمسين فرسخا . فتخاطروا في عشرين دينارا يتصدقون بها . وبين الموضع الذي هم فيه وبين (ريسوت) ، على الأقل أربعمائة فرسخ . فساروا خمسة عشر يوما الى ان قدروا أنهم قد قاربوا جبال العرب ، وأخذوا يتكلمون فيما كانوا تخاطروا فيه الى الليل ، وساروا الى غد ذلك اليوم . فلما أصبحوا صعدوا بالديدبان (٥) ، الى رأس الدقل ، فلم ير شيئا فنزل . فلما صلوا العصر قال محمد بن بابشاد : أرى آثار الجبال . فقالوا : ما نرى شيئا . فقال للديدبان : اصعد . فلما صعد الديدبان ، واستقر على رأس الدقل صاح : رحم الله من كبر ! فكبروا واستبشروا ، وبكوا من شدة

الفرح والسرور وساروا طيلة ليلتهم الى قرب السحر فلما كاد الفجر ان يطلع قال محمد بن بابشاد : اطرحوا الأنجر . فطرحوه ، وحطوا الشراع . وقال للربان : أين نحن ؟ فقال في موضع كذا . وذكر موضعا بينه وبين (ريسوت) أربعون فرسخا . فقال له محمد بن بابشاد : نحن على (ريسوت) سواء . إما ان تكون بين أيدينا برمية سهم ، أو بحذاء المركب ، أو دوننا برمية سهم . فأصبحوا وهم على ريسوت سواء » [1] .

هذه الحكاية تثبت بشكل قاطع ان البحارة في القرن الرابع الهجري ، لم تكن لديهم ضوابط تحدد اتجاه المجرى الى المكان المقصود ، كأجزاء او اخنان دائرة بيت الإبرة (البوصلة) ، التى نجدها عند البحارة المتأخرين . فمحمد بن بابشاد وربانه ، بعد ان استدارا حول جزيرة (سيلان) من الجنوب ، ودخلا بحر الهند ، سارا نحو الجهة الشمالية الغربية الى بلاد العرب ، مسترشدين بالنجوم التى تهديهم الى هذه الجهة . فلو كان لديهما ما يحدد لهما اتجاه المجرى الى أي مرسى يريدونه غير النجوم لما سأل الربان صاحب المركب : أي مرسى تعلق من مراسي العرب ؟

ويفخر ابن ماجد في قصيدته «الذهبية» بأنه سافر من غير حقه أي (بيت الإبرة) في موسم الديماني ، وهو الربع الأخير من موسم الرياح الجنوبية الغربية ، وتسافر فيه المركب من بلاد العرب وشرقي افريقيا الى الهند . قال :

ومن سار في الديمان من غير حقه
... في المرسى المراد المخالب [2]

وقال في قصيدته «كنز المعالمة» إن قضى الله عليك يوما بركوب البحر فما عندك ما تهتدي به في ظلماته غير النجوم الزهر . ففيها علوم يهتدى بها الى معرفة المسافات في البر والبحر ، في البر تقدر بالأميال ، وفي البحر بالأزوام . وهي ، أعني النجوم تدور حول محور الفلك ، محبوبها ، عن يمينه وعن شماله :

فان قضى الله يوما بالركوب له
لا يهتدى بسوى الزهر المشاعيل
لأن فيها علوما يهتدون بها
في البر والبحر ذازام وذا ميل
تدور عن محور الأفلاك ميمنة
ويسرة وهو محبوب ومشمول

ابن ماجد بات خمسين حجة يسامر النجوم

مع مرور الزمن تطورت معرفة البحارة العرب بالنجوم والاستفادة منها في الملاحة ، بحيث أصبحت خريطة النجوم عندهم بمثابة خريطة بحرية يعرفون منها مواقع المراسي ، والرؤوس ، والجزر وغيرها من الأماكن التى تهم البحار معرفتها ، وأصبح من السهل على من يجيد قراءة هذه الخريطة ، من البحارة ، ان يستخرج منها عرض البلد الذى يقصده ومقدار بعده عنه .

وبلغ هذا العلم حد الدقة والكمال ، في القرن الخامس عشر ، على يد الملاح العربي ، أسد البحار ، أحمد بن ماجد .

رحم الله ابن ماجد ! لقد بات يرعى النجوم خمسين حولا ، حتى تخيلها لطول الفته لها ومرافقتها في أسفاره الطويلة كائنات حية ، تحزن لفراقه ، وتشكوه لبارئها اذا ما هجرها . قال في القصيدة «الذهبية» :

وإلا فمن حـزن لفقـدي تـزلـزلت
بـلا شك أفـلاك السما بـالكـواكب
ومن بـات يرعـاهن خمسين حجـة
على طلب عاف الكرى في الغياهب
وقال في قصيدة أخرى :
هذي النجوم اشتكت مني لخـالقها
تقـول هـذا جفـانـا في تُنُخّـوَذِهِ
قد كان يوصلنا طول الزمـان وقد
كـانت منـافعنـا جمـاً عـلى يَـدِهِ
ويعاف النجم قياسه اذا ما مات ، لأنه لن يجد من بعده من يجيد قياسه مثله . قال في «المكيّة» :
إذا مت عاف النجم بعدي قياسه
ولي تشـهـد الـرائيتـين النـوادر
وحصر قياسات النجوم القريبة من الأفق ليهتدي بها سالك البحر المحيط :
حصرت نجوم الأفق في البحر هاديا
بهـا سـالـك البحـر المحيط المعظم
ودعا بالهلاك على من لا يهتدي بقياسات النجوم ، وأنكر نسبته اليه ، وتبرأ من صحبته . قال في «الذهبية» :
عـدمت الذى لا يهتـدي بقياسهـا
ولا هو من قومي ولا ذاك صاحبي
ولقد هداه طول تأمله في النجوم الى ابتداع قياسات جديدة لم تكن معروفة من قبل ، وهذب كثيرا من القياسات الشائعة بين بحارة عصره . لكن حساده من الربابنة ، ينكرون فضله في تهذيب وتطوير القياسات ، قال في «الذهبية» :
كشفت جميع البحر مع جملة السما
فـإن مت فلا حي يعـد كغائب [٨]
فيـاعجبـا يـا قـوم والحق أبيض
وقد بلغ السيـل الربـا والهواضب
أينكـر أفـعـالي وقـولي جمـاعـة
مسـوّدة والـعـار شر الـعـواقـب
هبـوا أنكـم حسـادنـا فتـأملـوا
لما هو ماض من سيوف قـواضب

القيــــاس

المسافة بين النجم وخط الأفق استفاد البحارة منها في تحديد مواقع الأماكن من رؤوس ، وبنـادر ، وأخـوار وغـيرهـا ، وسموها ، أعني المسافة ، أي ارتفـاع النجم ، قياسا . وكانوا يقيسونها في بادىء الأمر - كما يبدو - بالبنانة العادية . قال ابن ماجد في «المكيّة» :
أصـابـع سبعـا قستهم بـأنـامـلي
وينقص ربعـا ليس فيـه مكـاثـر
وقال في قصيدة أخرى :
ومن قاس في جاه اربـع بسماكـة
فخمس يـراه من أنـاملـه العشر
يقول من قاس ارتفاع نجم (السِّماك الرامح) عندما يكون ارتفاع نجم (الجاه) أربع أصابع فسيرى قياس السماك خمس أصابع من أصابعه العشر .
والقياس بالبنان ظل مستعملا ، حتى عهد قريب جدا ، عند بعض بحارة المحيط الهندي ، ويعرفون عند البحارة الذين يستعملون قياس ميل الشمس عن دائرة خط الاستواء - كما أخبرني أحد المسنين من الربابنة - بأهل التبنين [٩] .
لكن مقدار البنانة أو الإصبع العادية يختلف بالطبع ، من شخص لآخر ، تبعا لاختلاف حجم كفّ كل منهما . لذلك اتفق علماء الملاحة في المحيط الهندي ، من عرب وهنود وغيرهم ، على جعل مقدار الاصبع ربع (ذُبَان) ، وجعلوا مقدار (الذبان) من الشطب ، أي الشقوق ، التى في راحة الكف

اليمنى ، والتي تلي منابت الأصابع ، الى ما يقابل منتصف ظفر الخنصر [١٠] . فهذا القدر من الكف يساوي أربع بنان ، أي (ذبان) [١١] .

وبموجب (الذبان)قدروا أطوال عيدان القياس ، أي العيدان التى يقيسون بها ارتفاع النجم عن خط الأفق ، وهي عند ابن ماجد اثنا عشر عودا . أربعة منها للقياسات المرتفعة ، من اثنتي عشرة بنانة الى تسع بنان ، وأربع للقياسات المعتدلة الارتفاع وهي من ثمان بنان الى خمس ، والأربع الأخيرة للقياسات المنخفضة القريبة من الأفق . ويشترط ابن ماجد على القائس ان يجعل بين راس العود وأسفل النجم مقدار خيط كحد السكين ، ومثله بين خط الأفق وأسفل العود . وأن يمد يده بالعيدان الكبيرة ، قدر ما يستطيع ، بين عينه والمسافة التى بين النجم وخط الأفق . وان يقصر يده ، قدر استطاعته ، بعيدان القياسات المنخفضة . أما المعتدلة فيمد بها يده كالعادة [١٢] . ويشترط عليه أيضا ان يغسل وجهه قبل القياس بالماء البارد ، وأن يغمض عينه اليسرى ويفتح اليمنى ، وأن يكون سليم النظر ، وأن يمد يده اليمنى بالعود ، وأن يجلس القرفصاء على صدر المركب . وأن يكون الجو صافيا عند القياس ، بحيث يستطيع تمييز صفحة الماء من صفحة السماء . وألا يقيس في ضوء القمر الباهر [١٣] .

ولا يزيد القياس على اثنتي عشرة بنانة ، فإذا ارتفع النجم على هذا القدر من البنان ، يؤخذ قياس غيره من النجوم القريبة من الأفق . وأصح القياسات هي قياسات النجوم المجاورة للقطبين ، لأنها بطيئة السير ، وأضعفها قياسات النجوم المجاورة للمشرق والمغرب ، لأن نجومها سريعة السير [١٤] .

ولا يعني ارتفاع النجم ارتفاعه الناتج عن دوران الأرض ، وإنما ارتفاعه باقترابك منه ، اذا كنت تسير نحوه ، وانخفاضه بابتعادك عنه إذا كنت تسير نحو الجهة المقابلة له .

القياسات الأصلية

هي القياسات التى جعلوها عروضا للبلدان البحرية ، وهى بالطبع أصح وأدق من عروض البلدان ، المقدرة بالدرج ، المعروفة في كتب الجغرافيا . فالبحار في معلوماته الجغرافية ، يختلف تماما عن الجغرافي التقليدي ، فهذا يتعامل نظريا مع المادة الجغرافية ، أما البحار فإن طبيعة عمله تفرض عليه أن يعرف بالممارسة صفات تضاريس الساحل الدقيقة ، وأعماق بحره وطبيعة قاعه . فأدنى خطأ في معلوماته الجغرافية قد يؤدي الى هلاكه . كذلك إذا لم يكن قياس عرض المكان الذى يقصده صحيحا تجاوزه أو قصر عن بلوغه ، فيواجه حينئذ المتاعب والمصاعب وقد يواجه المخاطر ، إن كان البحر حوله خطرا .

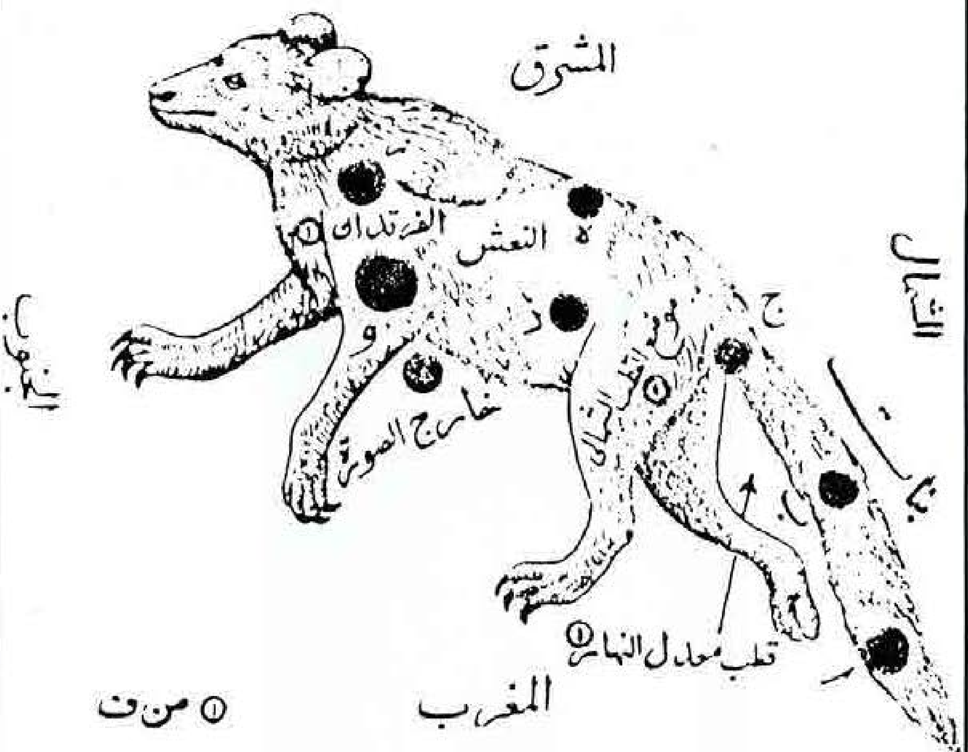
والقياسات الأصلية ثلاثة : قياس نجم القطب الشمالي ، المعروف عند البحارة بـ «الجاه) ، وهو أحد نجوم «الدب الأصغر) التى تسميها العرب (ببنات نعش الصغرى) . وقياس (الفرقدين) ، وهما الكوكبان النيران من كوكبة (الدب الأصغر) . ويشبه ابن ماجد صورة هذه الكوكبة بحرف اللام ، ويمثل الفرقدان عقفة اللام . ويمكن مشاهدة هذه الصورة بسهولة في الجانب الشمالي ، وهي تدور حول مركز القطب الشمالي ، ونجم الجاه أحد

النجوم التى تمثل الخط المستقيم من حرف اللام . أما القياس الثالث فهو قياس «النعش» : الخامس والسادس من نجوم (بنات نعش الكبرى) أو (الدب الأكبر) ونجوم هذه الصورة يمكن تمييزها ايضا بسهولة من بين نجوم الجانب الشمالي . أربعة منها على شكل مربع يمثل جسم الدب ، وثلاثة تمثل ذنب الدب ، أسفل المربع . وهي أعلى من صورة الدب الاصغر [١٥] .

ويبدأ قياس نجم (الجاه) غالبا من ارتفاع احدى عشرة اصبعا ، وهو عرض رأس (الحد) بالطرف الجنوبي الشرقي من عُمان . ويقاس نجم (الجاه) وبقية نجوم القياسات الأصلية ، وقت استقلال منزله (الصرفة) ، أي عند وقوفها في منتصف السماء. ثم يتناقص قياس النجم تدريجيا نحو الجنوب الى ان يصير إصبعا واحدة ، اى أن نجم الجاه يكون حينئذ مرتفعا عن خط الأفق بمقدار بنانة ، ويكون ارتفاع الفرقدين حينئذ أيضا ثمان أصابع . وهذا القياس ، أعني قياس اصبع لنجم الجاه وثمان أصابع للفرقدين هو عند سليمان المهري ، قياس جزيرة (كنديكل) أول جزر (ذيبة المهل) (مالديف حاليا) ورأس جزيرة (شمطره) (سمطرى) . و(السيف الطويل) من ساحل الصومال الشرقي [١٦] .



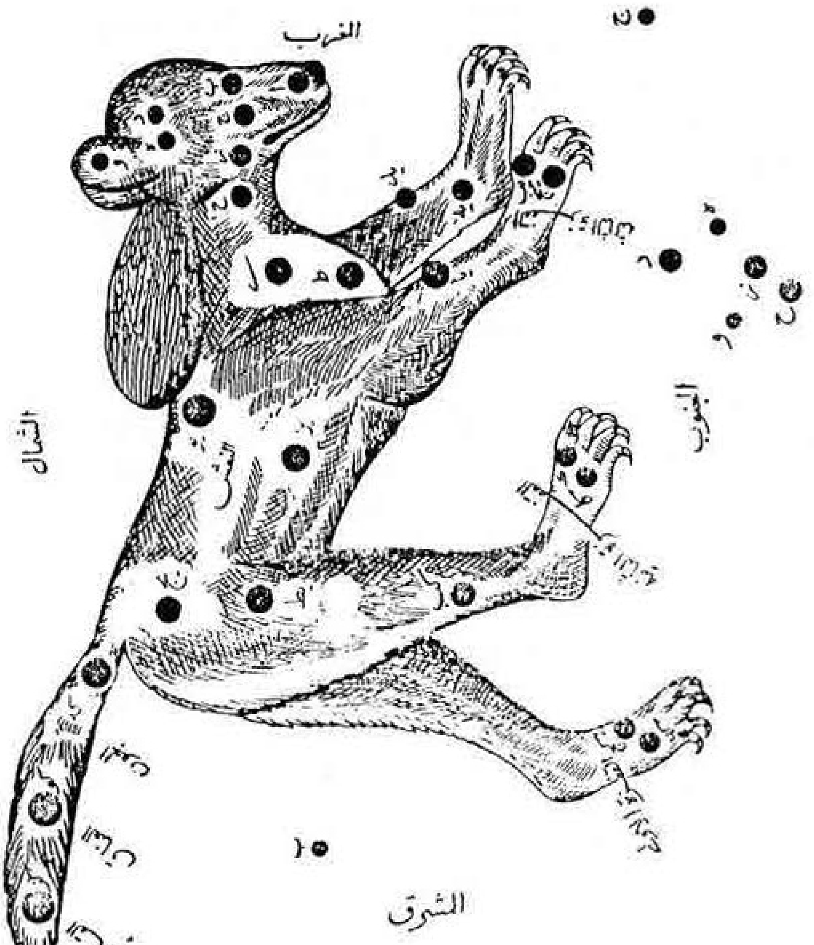
صورة الدب الأصغر على ما ترى في السماء



لمعرفة الوضع الصحيح لنجوم هذه الصورة في السماء اجعل الصورة بوضع أفقي فوق الرأس بحيث يكون شمالها مواجها للشمال وجنوبها نحو الجنوب .

(صورة الكواكب لأبى الحسين الصوفي)

صورة الدب الأكبر على ما ترى في السماء



لمعرفة الوضع الصحيح لنجوم هذه الصورة في السماء اجعل الصورة بوضع أفقي فوق الرأس بحيث يكون شمالها نحو الشمال وجنوبها نحو الجنوب .

ويؤخذ قياس (الَفرقدَيْن) بدلاً من قياس (الجاه) في البحار الجنوبية التي لا يري فيها نجم (الجاه). ويتناقص كذلك قياس (الَفرقدَيْن) إذا ابتعدنا عنه نحو الجنوب ، ويكون ارتفاعهما عند خط الاستواء - كما قال ابن ماجد - خمس أصابع ( )، أى أن خط الاستواء ، عندهم ، على عرض خمس بنان بقياس الَفرقدَيْن . فإذا تابعنا السير نحو الجنوب حتي نرى (الَفرقدَيْن) على إرتفاع إصبع عن خط الافق . عند الجزيرة (الخضراء)بجوار ساحل شرقى افريقيا الجنوبية ، او جـزيرة (تـوبن) بشرقي جزيرة(جاوه) . ويختفى الفرقدان بعدهما الى الجنوب :

فنأخذ بعدهما ، إذا استمررنا في السير نحو الجنوب ،قياس (النعش): الخامس والسادس من نجوم(بنات نعش الكبرى) (الدب الأكبر) ، وارتفاعهما عن خط الأفق هناك، الى الجنوب من الجزيرة (الخضراء) أو جزيرة(توبن) اثنتا عشرة إصبعـا . ونستمر فى قياسهما الى أن يصبح ارتفاعهما عن خط الأفق مقدار اصبع واحدة وهو قياس جنوبى (سفالة) وجزيرة (مدغشقر) .

فجملة أصابع قياسات العرض من (رأس الحد) شمالاً إلى جنوبى جزيرة (مدغشقر) هي ثلاثون إصبعاً :

الجاه	١١
الفرقدان	٧
النعش	١٢
	٣٠

والاصبع تقدر بدرجة وخمسة اسباع الدرجة [١٧] فتصير الثلاثين الاصبع باحدى وخمسين درجة، وثلاثة أسباع الدرجة .

ويقاس نجم (الجاه) وهو على ارتفاع اثنتي عشرة بنانة، وهو غاية قياسه عادة عند البحارة، أما داخل الخليج العربى والجزء الشمالي من البحر الأحمر، حيث ارتفاع نجم (الجاه) أكثر من ثلاث عشرة اصبعاً ، فيقيسون النجوم الجنوبية .

ولابد لقياس نجم من شاهد يضبط وقت قياسه، والشاهد يكون بقياس نجم آخر معه فى جانب بعيد عنه، وباستقلال احدى المنازل، فلو اننا قسنا أحد الكواكب عند طلوعه فى الساعة الرابعة من فجر أحد الأيام، مثلا ، فأننا نجده فى مثل هذا الوقت من الليلة التالية قد ارتفع عن المستوى الذى قسناه فى الليلة الاولى، بسبب طلوعه قبل الوقت الذى طلع فيه فى الليلة الاولى. وهكذا يستمر فى التقدم فى طلوعه، حتى يطلع عند غروب الشمس بعد حوالى ستة اشهر، اما اذا قيدنا وقت قياسه بموقع نجم آخر، كأن يكون بوسط السماء ، او على جانبيها فى المشرق او المغرب. فاننا نقيسه عندما يكون النجم الذى جعلناه شاهداً : عليه فى موقعه الصحيح، ولا يتغير الا وقت قياسه. فاذا قسناه فى الليلة الاولى فى الساعة الرابعة فإننا نقيسه فى الليلة التالية قبل هذا الوقت، اي عندما يكون شاهده فى موقعه الذى قسناه فيه فى الليلة الاول [١٨] .

وتختلف قياسات بعض عروض البلدان البحرية عند البحارة العرب عن قياساتها عند البحارة الهنود، بمختلف طوائفهم، الا ان الاختلاف لا يزيد على اصبع واحدة، وغالباً ، ما يكون الاختلاف بينها نصف اصبع، ويرجع سليمان المهرى سبب

الاختلاف فى القياسات بوجه عام الى [19] :
- الاختلاف فى حجم عود القياس من حيث الطول والقصر .
- النقل الفاسد، كالنقل عن شخص قليل المعرفة بعلم البحر .

- فساد القياس المنقول عنه .
- الغلط فى فهم اللغة كنقل العربى عن الهندي او العكس .

ولم يستعمل البحارة الاسطرلاب، والربع المجيَّب [20] فى قياس النجوم، لأن القياس بهما يحسب بالدرج وليس بالأصابع. فأبن ماجد يقول فى «السفالية» أنه قاس نجمي سُهَيْل والعَيّوق فى بندر (زنجبار) بشرقى افريقيا، بالاسطرلاب فوجد قياسهما ٣٩ درجة :

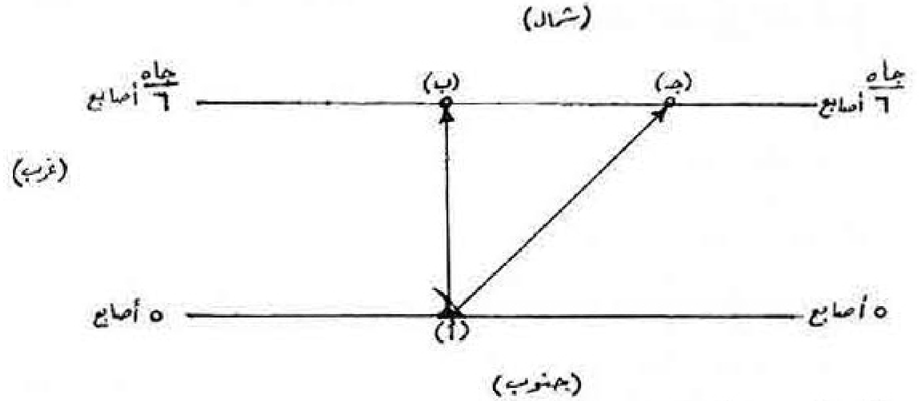
الربابين لهم حساب
قد قستهم هناك بالاسطرلاب
كانوا بها هناك تسع زوايده
على الثلاثين درجة بالقاعدة

اما طريقة القياس بواسطة قطعة العظم او العود المثقوب التى يحركها القائس عند القياس على عُقَد الخيط الذى يخترق العظمة، والتى وصفها الملاح التركي المشهور (سيد على ريّس) فلا نجد لها ذكراً، عند ابن ماجد، وسليمان المهرى [21] ولعلها احدى الطرق القديمة، وتقوم العقد مقام الاصابع، وتبدأ من (الذبان) وتنتهى باثنتي عشرة اصبعاً .
فى خط طول واحد .

مسافة الاصبع العرضية

تختلف هذه المسافة باختلاف اتجاهاتها. فاذا كنت، مثلاً ، تقصد مكاناً عرضه ست أصابع، أي أن ارتفاع نجم (الجاه) عنده ست اصابع، وقت استقلال منزلة (الصرفة) وكنت أنت فى مكان عرضه، بقياس نجم (الجاه) ايضا، خمس اصابع، بفارق اصبع واحدة بينهما، وكانا على خط طول واحد، بحيث تصل اليه بالجرى فى خط مستقيم نحو الشمال، فانك تقطع مسافة الاصبع : الفارقة بين عرض مكانك وعرضه فى ثمانية أزوام، واذا كان الفرق بين العرضين اصبعين فانك تقطعهما على حسابهم، فى ستة عشر زاماً . وقس على ذلك، وتسمى هذه الأزوام أزواماً قياسية، وحسابية، وهى تختلف عن الازوام الزمنية العادية، التى يقدر الواحد منها بثلاث ساعات، والتى يسميها ابن ماجد أزوام (الجُمّة) [22] لكن اذا كان المكان الذي تقصده منحرفاً عن خط طول مكانك، يميناً او شمالا، فإنك تقطع مسافة الاصبع الفارقة بين العرضين بجرى اكثر من ثمانية أزوام. وهكذا كلما ازداد انحراف المكان المقصود، اى كلما ازداد طوله بعداً عن طول مكانك، ازداد طول مسافة الاصبع العرضية بينهما، كما نرى فى الشكل التوضيحى التالى [23] :

وتعرف مسافة الإصبع العرضية عندهم بـ (التِّرفة) . والبحارة في عدد ازوامها مختلفون . وسنشرح سبب هذا الاختلاف في موضع آخر إن شاء الله .



(أ) و (ب) : يقطع المركب مسافة الاصبع بينهما في ثمانية ازوام لأنهما في خط طول واحد.

(أ) و (حـ) : مسافة الاصبع بينهما يقطعها المركب في ستة عشر زاماً لانحراف (حـ) عن خط طول (أ) بخمس واربعين درجة وهو اتجاه خن مطلع العيوق.

قياس سرعة المركب

كما استفاد البحارة من المسافة بين خط الأفق وموقع أحد نجوم القياسات الأصلية ، أي مقدار ارتفاعه عن خط الأفق من البنان ، في تحديد عروض البلدان ، كذلك استفادوا من ارتفاع النجم الذي أمام صدر المركب ، وانخفاض الذي خلف عجزه ، في تقدير سرعته وما قطعه من الأزوام . قال ابن ماجد في الفصل العاشر من أرجوزة «الحاوية»(٢٤) :

وإن ترى نجمان قد استقلا
عن حسبة القياس لا تتخلا
عن خطبة اثنا عشر اصبع
وهم على قطية المشبع
فقسهما وقس بعجز المركب
نجماً وقيد ثم اجر واكتب
وكلما غاص نجيم التفر
اصبع فحقق أيها المسافر
لأنّ مركبك قطع ثمانية
أزوام لم تنقص بل هي وافية
أما الذي قيدت في القطية
بحالة إفتهم الوصية(٢٥)

يقول إن رأيت نجمين قد استقلا ، أي ارتفعا على جانبي سطح مؤخرة المركب ، فلا تتخلى عن أدوات القياس ، عن عود اثنتي عشرة بنانة ، فقسهما ، على قطية المركب أي وأنت على القطية : أحد جانبي سطح مؤخرة المركب المعروف بـ(النيِّم) عند بحارة الخليج العربي : وعند بحارة حضرموت بـ(الشتري) . ثم قس ارتفاع النجم المقابل لعجز المركب ، أي خلف مؤخرته تماماً . وقيّدْ قياس النجمين المقابلين لقطية المركب ليكون شاهدا على وقت قياسك للنجم المقابل لتفر المركب اى مؤخرته فاذا رأيت نجم التفر قد هبط مقدار بنانه عن مستواه الذي قسته في الليلة الأولى فأعلم ان مركبك قد قطع

ثمانية أوزام. أما القياس الذي قيدته وأنت على قطية المركب فيبقى كما قيدته في الليلة الأولى . فإذا قست ارتفاعهما عشر بنان ، مثلاً ، في الليلة الأولى ، فقس النجم الذي خلف عجز المركب في الوقت الذي يكون فيه قياس كل من النجمين المقابلين للقطية عشر بنان كل ليلة . فيصير قياسهما ضابطاً لوقت قياس نجم التفر . ويعطي ابن ماجد لاستقلال النجم معنى ارتفاعه إلى حد اثنتى عشرة بنانة ، وهذا الحد يصل إلى منتصف الجانب المقابل لوجه من ينظر إلى الأفق ، من السماء تقريباً .

وابن ماجد هنا استعمل قياس النجم الذي خلف المركب ، وهذا القياس يتناقص كلما ابتعد المركب عنه ، بخلاف قياس النجم الذي أمام صدر المركب ، الذي يزداد بازدياد اقتراب المركب منه . والإصبع تحتسب ، في حالة زيادة القياس أو نقصانه ، بثمانية أزوام . فإذا استعملت قياس النجم الذي أمام صدر المركب فإن كل إصبع تزيد في قياسه تحتسب بمثابة أزوام مثل قياس نجم التفر[٢٦] . ولا بد من شاهد يضبط وقت قياس النجم الذي أمام المركب أوخلفه وذلك بتقييد قياس نجم آخر أو نجمين .

والزام القياسي أو الاصطلاحي يحتسب «بمشي المركب بأي ريح كان ، ضعيفاً كان أو قوياً» . أما الزام العرفي الزمني فيحسب بمشي «المركب بريح غامز معتدل» أي بريح معتدلة القوة (التحفة) إلّا ان الزام العرفي أكبر من الزام القياسي «لأن من (مَدْرَكَةْ) إلى (صَوْقَرَة) ستة عشر زاماً ، وربما يقطعها المركب في أقل من ثمانية أزوام ، والنادرة تقطعها في ستة ، والثقيل في عشرة»[٢٧] .

(مدركة) و(صوقرة) بساحل بلاد العرب الجنوبي التابع لعمان ، وقياس عرض رأس (صوقرة) ثمان أصابع بقياس نجم الجاه وعرض (مدركة) تسع أصابع ، الفرق بين عرضيهما اصبع واحدة ، يقطعها المركب ـ كما قال ابن ماجد ـ في ستة عشر زاماً قياسياً أو حسابياً . لأن (مدركة) تقع في اتجاه مطلع خن أو نجم (العَيُّوق) عن (صوقرة) ، على بعد خمس وأربعين درجة إلى الشرق عن خن أو نجم (الجاه)[٢٨] الذي يطابق خط طول (مدركة) . والإصبع في اتجاه مطلع أو مغيب العيوق يقطعها المركب ، على حسابهم ، في ستة عشر زاماً حسابيّاً (انظر الشكل التوضيحي السابق) . لكن هذه المسافة يقطعها المركب العادي في ثمانية أزوام عرفية ، اي في اربع وعشرين ساعة (٣×٨=٢٤) ، والمركب السريع يقطعها في ستة أزوام ، والمركب الثقيل البطيء السير يقطعها في عشرة أزوام عرفية . وعلى هذا يمكن أن يقطع المركب ، المعتدل السرعة ، الثمانية الأزوام القياسية في أربعة أزوام عرفية أو ـ كما يسميها ابن ماجد ـ أزوام (جُمَّة)[٢٩] .

السفر في ليالي الغيوم

في بعض الرحلات الطويلة يحدث أن يواجه البحار ليالي تحتجب فيها النجوم بالغيوم فلا يرى منها شيئاً . فبماذا كان يهتدي في مثل هذه الليالي ؟ سؤال نجد الجواب عنه عند ابن ماجد في أرجوزته «الملعقية» التي يصف فيها الرحلة من (كِليكوت) ، أهم موانيء (الملِيبار) بساحل

الهند الغربي ، إلى (ملقه) أو (مَلْعَقَة) بشبه جزيرة ملقا (مليزيا حالياً) ، في موسم (الداماني)، الأيام الأخيرة من موسم الرياح التجارية الجنوبية الغربية . ففي هذا الموسم يستمر غالباً احتجاب النجوم بالغيوم في أغلب ليالي هذه الرحلة ، خاصة من (كليكوت) إلى جزر (ناك باري) ، إلى الشمال الغربي من جزيرة (سمطرى) . لذلك نجد ابن ماجد يستعمل عدد الأزوام التي تستغرقها الرحلة ، والمجربة لدى البحارة ، كضابط لطول الرحلة قال :

لكن أزوامي لكم أساس
جعلتها خيراً من القياس

جعل الأزوام بدلاً من القياس في ضبط مسالك هذه الرحلة .

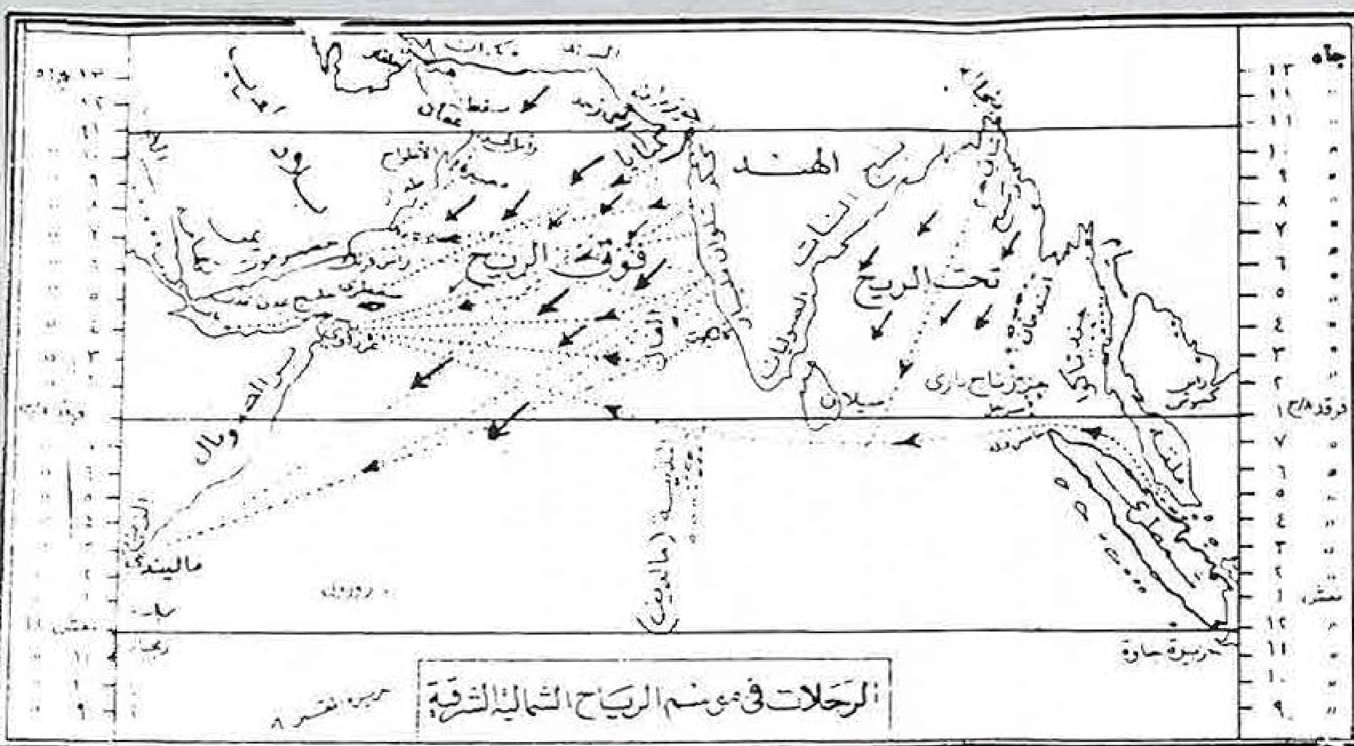
خوفاً من السحائب الداماني
مع عدم القياس ياربان

وجملة الأزوام من (كاليكوت) إلى (ناك باري) حوالى مائة زام ، بثلاثة عشر يوماً تقضيها في مسالك هذه الرحلة ، وهذه الأزوام مشهورة عند البحارة :

فإن أزوامك المذكورة
قريب ماية زام هي مشهورة
من صوب (كاليكوت) لـ(ناك باري
ثلاث عشرة يوم في المجاري

وهناك علامات أخرى كان البحارة العرب يسترشدون بها في معرفة الطرق بالليل دون الاستعانة بالقياس إلاّ في حالات قليلة جداً ، كا يسترشدون بها في النهار أيضاً . ومن أهم هذه العلامات أعماق البحر ولونه . ففي الرحلة من (ديو) بساحل (كجرات) ، الجزء الشمالي من ساحل الهند الغربي ، إلى (شاتي جام) بساحل بنجالة (بنجلادش) ، نجد سليمان المهري يشق طريقه في عرض البحر من شرقي جزيرة (سيلان) إلى (ركنج) بساحل (بورما) . ومن (ركنج) إلى (شاتي جام) ، أهم موانيء (بنجالة) قديما ، يهتدي بأعماق البحر ولونه إلى أن يصل الى (شاتي جام) . قال ما معناه : فإن كشفت (ركنج) فاجر في اتجاه خن مغيب (النعش) ، على ماء عمقه خمسة وعشرون باعاً ، فيأتي فشت (هيوميوه)[٣٠] إلى يمينك ، وكن حذراً من الفشت . فإذا خلّفت الفشت مل قليلاً إلى ناحية البر ، واجر على ماء عمقه ستة عشر باعاً ، فتأتيك جزر (درديوه) إلى يمينك وأنت في مجراك . فإذا خلّفت هذه الجزر اجر في ماء اثني عشر باعاً في اتجاه خن مغيب النعش ، فتأتي إلى خوركبير[٣١] يقال له (باكال) ، وبعده تقابلك خمسة رؤوس ، يحسبها من لا يعرفها جزراً . وبعد الرؤوس تأتيك غُبَّة (مرقة) ، كلها شعاب وأوساخ[٣٢] تسمى (كوكرديو) ، وبعدها ترى جزيرة (زنجليا) أمام صدر المركب تماماً ، وأنت تجري في اتجاه مغيب (النّعش) . فإذا اقتربت من (زنجليا) مل إلى عرض البحر قليلاً لأن برأسها الجنوبي يرقَ (ماء ضحل) يبدو ماؤه مبيضاً ، وترى إلى جهة عرض البحر الماء مخضراً فمل الى ناحيته وعمق ماء مجراك يزداد قليلا قليلا الى ان يصير ثمانية عشر باعاً أو سبعة عشر باعاً[٣٣] .

وهكذا يمضي سليمان المهري في وصف أعماق الطريق للمسافر من (ركنج) إلى (شاتي جام) بالبنجال .



نشرت هذه الخريطة فى كتابى «الدليل البحرى عند العرب» .

الهوامش

١ ـ المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج[١] ، ص٢١٠ .
٢ ـ أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير ، الرحلة ، ص٥٨ (الطبعة الأولى) القاهرة .
٣ ـ قنصور : أهم ميناء بساحل جزيرة (سمطرى) الغربي .
٤ ـ ريسوت : ميناء بساحل بلاد العرب الجنوبي ، تابع لسلطنة عمان .
٥ ـ الديدبان : يسمى في أيام ابن ماجد (الفنجري) ، ومهمته تسلق عود الدقل الرئيسي ليستكشف ما في الأفق حول المركب .
٦ ـ بزرك شهريار : عجائب الهند ، ص٩٠ ـ ٩٢ .
٧ ـ موضع النقط لفظة مصحفة ليست واضحة المعنى .
٨ ـ في الأصل : «يعد كفايت» وهو تصحيف واضح .
٩ ـ أهل التَّبْنين : أصحاب القياس ببنان اليدين . وذلك بأن يمد الواحد يديه جاعلاً بنان كفيه في وضع أفقي أمام عينيه ، بين النجم وخط الأفق .
١٠ـ انظر التفاصيل في كتابي «فن الملاحة عند العرب» .
١١ـ شهاب الدين أحمد بن ماجد ، كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد ، ص٢٦ ، ٢٧ (تحقيق خوري) دمشق ١٩٧١ .
١٢ـ نفس المصدر ، ص٦٠ .
١٣ـ نفس المصدر ، ص٢٣٦ .
١٤ـ سليمان بن أحمد المهري ، شرح تحفة الفحول في تمهيد الأصول في أصول علم البحر ، ص ٩٧ (تحقيق خوري) دمشق ١٩٧٢ .
١٥ـ للمزيد من التفاصيل انظر كتاب «فن الملاحة عند العرب» .
١٦ـ سليمان المهري ، المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر ، ص٤٩ (تحقيق خوري) دمشق ١٩٧٠ .
١٧ـ سليمان المهري ، شرح التحفة ، ص٦١ .
١٨ـ انظر «فن الملاحة عند العرب» .
١٩ـ سليمان المهري ، شرح التحفة ، ص١٠٠ و١٠١ .
٢٠ـ انظر التفاصيل في «فن الملاحة عند العرب» .

٢١- سيدي علي ريس) أمير البحرية المصرية ، وأحد علماء الملاحة البحرية ، له كتاب «المحيط» فرغ من تاليفه سنة ١٥٥٤م . حطمت العاصفة أسطوله ، الذي قاده من البصرة ، على ساحل (كجرات) بالهند .

٢٢- ابن ماجد ، الفوائد ، ص١٧١ .

٢٣- انظر التفاصيل في «فن الملاحة عند العرب» .

٢٤- ابن ماجد ، ارجوزة «حاوية الاختصار في أصول علم البحار» في الف واثنين وثمانين بيتا ، فرغ من نظمها سنة ٨٦٦ هـ ، وهو في أول الشباب .

٢٥- اسقاط في الشطر الثاني من البيت اخل بوزنه .

٢٦- انظر كتاب «فن الملاحة عند العرب» .

٢٧- ابن ماجد ، الفوائد ، ص١٧١ .

٢٨- انظر التفاصيل في «فن الملاحة عند العرب» .

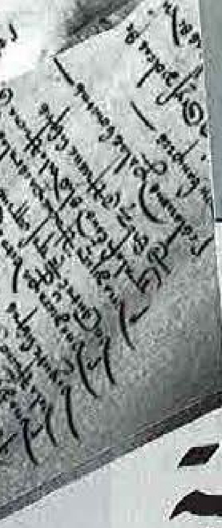
٢٩- ابن ماجد ، الفوائد ، ص١٧١ .

٣٠- الفشت : قطعة مستوية ، في مستوى سطح البحر أو تعلوه قليلاً ، من الرمل والحجارة الهشة (الحشا) .

٣١- الحور : لسان من البحر داخل في البر ، أو خليج صغير .

٣٢- الشعاب : صخور مرجانية . والأوساخ : يطلق على كل ما فيه خطورة على الملاحة من حجارة وعروق صخرية ونحوها .

٣٣- سليمان المهري ، العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية ، ص ١٨٦ ـ ١٨٧ ، (تحقيق خوري) دمشق ١٩٧٠ .



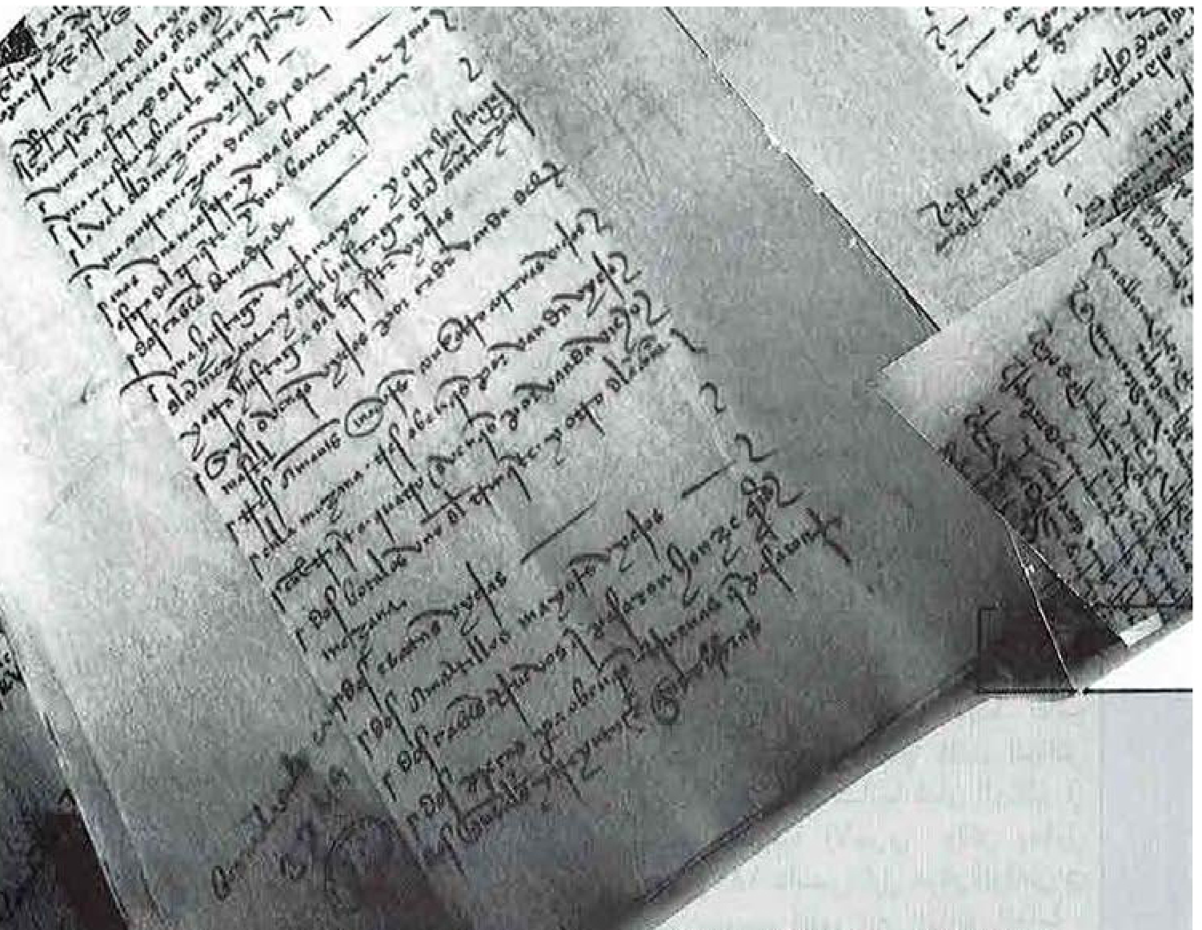
الوثيقة.. وأهميتها في الدراسات التاريخية

بقلم الدكتور سامي عبدالحافظ القيسي

مع دراسة لمختارات من المادة الوثائقية في مركز الشرق الأوسط في جامعة أكسفورد



يهدف هذا البحث الى دراسة وتحليل بعض الأوراق الشخصية التى تعود لعدد من الأفراد الذين مارسوا مسئوليات مختلفة في الشرق الأوسط خلال الفترة الممتدة من عشرينات هذا القرن وحتى الخمسينات . ان هذه الأوراق الشخصية لها أهمية خاصة لأنها تكشف للدارس في حقل البحوث التاريخية أمورا لا يجدها في الوثائق العامة التى اعتاد الباحثون مراجعتها في دور الوثائق العامة .



رغم الاختلاف بين الوثائقيين في تعريفهم للوثيقة فيمكن القول انها تعني : «الوثيقة العامة المتعلقة بأعمال جهاز اداري رسمي أو غير رسمي ـ حكومي أو غير حكومي ـ أو فرد أو جمعية والتي انتهى العمل منها بحيث يمكن الرجوع اليها مستقبلا عند الحاجة وتحفظ بطرق خاصة لغرض صيانتها والمحافظة عليها ولها قيمة تاريخية وأهمية قانونية ومالية وادارية [1] .

وعلى هذا الأساس لا يقتصر معنى الوثيقة على الأرشيف الورقي الذى يشمل الرسائل والبيانات والتقارير والبرقيات والخرائط والقصاصات الصحفية . بل يتعداه ليشمل البرديات والرقوق والأختام والنقود والتسجيلات الصوتية وغيرها من المواد المسجل عليها أي نوع من النشاط حدث في وقت ما وتم توثيقه ليشكل فيما بعد دورا مصدريا أصيلا في الدراسات التاريخية التى لا يستغنى عنها الباحث . نظرا لما تقدمه الوثيقة وتكشف عنه من معلومات وتفاصيل تساعده في التوصل الى آراء وتفسيرات جديدة وفهم أعمق للأحداث التاريخية .

وهذا الأمر يعتمد بالأساس على المركز أو المكانة التى يتمتع بها كاتب الوثيقة أو مؤلفها سواء أكان اداريا أو سياسيا أو عسكريا أو اقتصاديا أو صحفيا بما يؤهله ذلك المركز الذى يشغله من حرية الاطلاع على بعض حيثيات الأحداث وتفاصيلها .

والحق يقال ان بعض الأكاديميين والباحثين يعلقون أهمية كبيرة جدا قد تصل أحيانا الى درجة المبالغة ـ على استخدام الوثائق وتوظيفها في البحث . حتى ان البعض منهم يرى أن البحث أو الدراسة قد تكون ضعيفة أو قليلة الشأن إن لم تكن قائمة المصادر تحتوى على عدد كبير من الوثائق لا سيما غير المنشور منها .

ورغم ان هذا التوجه الوثائقي له أهميته الا انه لا يخلو من مخاطر . فالثابت ان الوثيقة رغم ضرورتها وأهميتها فانها تفتقر الى جملة عناصر من البحث التاريخي منها انها مختصرة ولا تمثل الحقيقة كلها أحيانا ، فضلا عن إفتقارها الى عنصر التسلسل التاريخي للأحداث وانها تمثل أحيانا وجهة نظر شخصية .

من هذه الزاوية بات من الضروري على الباحث في حقل التاريخ العربي الحديث والمعاصر ان يتعامل مع الوثائق بشكل حذر ، ويضع المعلومات التى تقدمها له الوثائق موضع المقارنة والدرس والتحليل ، مع ما يتوفر من معلومات تاريخية معتمدة في المصادر وكتب المذكرات والوثائق الوطنية والمخطوطات بهدف تشخيص مواطن الضعف والتحيز والتعصب [٢] .

الوثائق البريطانية . تاريخها وتطورها :

لقد أخذت الدول المتقدمة تتسابق فيما بينها للاهتمام بالوثائق وجمعها وصيانتها ودراستها وفهرستها ونشرها وتأسيس المباني الفخمة لحفظها حتى أصبحت مراكز دور الوثائق من المظاهر الحضارية التى تفخر بها الأمم والشعوب . وفي بريطانيا كانت الوثائق موزعة هنا وهناك شأنها شأن الوثائق في الدول الأوربية الأخرى . ولكن بحلول عام ١٨٣٨ تأسس أول مركز للوثائق في لندن بموجب قانون دار الوثائق العامة : Public Record Office الذى تم بموجبه تجميع كافة المواد الوثائقية المتفرقة ووضعها تحت إشراف كبير القضاة : Master Of The Rolls [٣] .

وفي سنة ١٨٥١ وضع حجر الأساس لبناية خاصة كانت بمثابة مركز وطني للوثائق العامة في بريطانيا نقلت اليه المادة الوثائقية بعد تحديد نوعها بموجب القانون . وقد بلغت تكاليف البناء في حينه ما يقرب من ٨٨٤٩٠ جنيها استرلينيا .

وتقرر أن يكون مركز الوثائق مستقلا وليس تابعا لأي وزارة وان يهتم أولا بوثائق الحكومة المركزية وثانيا بالوثائق المحلية والخاصة .

وفي عام ١٨٨٨ تأسست في بريطانيا

جمعية الوثائق البريطانية : The British Records Society التى لعبت دورا مميزا في تعزيز الاهتمام بالوثائق والعمل الجاد على تأسيس وانشاء دور خاصة لها مع تأكيد الاستمرار في العناية بها .

وفي الربع الثاني من القرن العشرين إزداد الاهتمام بصورة أكثر فأكثر بالوثائق الاقليمية المحلية Local وكان من نتائج ذلك تكاثر مراكز الوثائق وانتشارها . أما في المناطق التى لا توجد فيها مراكز أو دور للوثائق فان المكتبات عوضت عن ذلك . كما ان الوثائق والأوراق الشخصية كانت هي الأخرى موضع اهتمام وعناية الجهات الوثائقية المختصة [٤] .

وبمرور الأيام تضخمت وتعاظمت المادة الوثائقية وازداد العمل الوثائقي واتسعت حقوله وتضاعفت أعداد الباحثين في الملفات الوثائقية . لذا أنشأت الحكومة البريطانية مركزا جديدا للوثائق في منطقة كيو جاردن : Kew Garden نقلت اليه أكثر من مليون ونصف وثيقة . وأخذ بتقديم خدماته للقراء والباحثين منذ حزيران ١٩٧٧ .

وهكذا شهدت فترة السبعينات والثمانينات من هذا القرن تطورا واضحا في الدراسات التاريخية الوثائقية لا سيما بعد ان وضعت الوثائق البريطانية التى تم الكشف رسميا عنها تحت تصرف الباحثين وفق أساليب متطورة في الاستعارة تعتمد على أساليب التكنولوجيا الحديثة والخدمة السريعة .

لذا توجه اهتمام الباحثين الأكاديميين الى تحديد دراساتهم وفقا للأقطار في الوثائق الأجنبية خلال فترة تاريخية محددة . وقد حظيت أقطار الوطن العربي بمجال أوسع في مثل هذه الدراسات الوثائقية التخصصية . وكان البعض منها قد ترجم الى اللغة العربية فأضاف الى المكتبة العربية اضافات جديدة [٥] .

وثائق مركز الشرق الأوسط . في جامعة اوكسفورد :

الى جانب دار الوثائق العامة في لندن (P.R.O.) تتوفر في الجامعات البريطانية كجامعة اوكسفورد وجامعة درهام وجامعة اكستر مراكز دراسية متخصصة عن الشرق الأوسط تحتوى مكتباتها على مادة وثائقية مهمة [٦] .

وفي جامعة اوكسفورد يوجد مركز الشرق الأوسط : The Middle East Centre التابع الى كلية سانت أنطوني : St. Antony College الذى تحتوى مكتبته على مجموعة وثائقية متنوعة تغطي فترات زمنية مختلفة . ان موضوعات تلك الوثائق مهمة جدا بالنسبة للمؤرخ إذ تتعلق أغلبها بالأمور الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . أما لغة الوثائق فهي الانكليزية عدا بعض الوثائق العربية .

ومن ضمن هذه المجموعة الوثائقية سجلات وفايلات لأوراق شخصية Private Papers فريدة في نوعها تعود الى أناس كانوا يشغلون في يوم من الأيام

مراكز ووظائف مختلفة في بلدان الوطن العربي في فترة ما بين الحربين العالميتين . وبدلا من ضياع وتلف هذه الأوراق قام ورثتهم بإيداعها في مركز الشرق الأوسط لحفظها أولا ولجعلها تحت تصرف الباحثين ثانيا .

من هذه الوثائق أوراق تعود الى قادة بريطانيين شغلوا وظيفة مندوب سام كهربرت صمويل والسير ألن كننجهام وديكسون وغوردون ومايلز لامبسون وأوراق أخرى لأناس كانوا قناصل وخبراء أراضي كالسير أرنست داوسن في العراق وادواردس في مصر . ورجال شرطة وأمن وكمارك كأدموندز والمس بيل وكروري وديدس . وأوراق أخرى تركها بعض من اشتغل في تخطيط بعض المدن العربية وأصحاب شركات ونشاطات اقتصادية وأطباء ورؤساء لجان الاشراف على التشكيلات العسكرية في بعض البلدان العربية .

وفضلا عما تقدم فهناك أوراق تعود لبعثات تبشيرية اشتغلت في المنطقة العربية بين الحربين . ومذكرات لصحفيين ومثقفين عرب وأجانب . وكذلك أوراق أخرى على شكل مراسلات تعود الى الملك فيصل الأول مع بعض البريطانيين . وأوراق أخرى تتضمن جانبا من نهاية عهد الملكية في مصر وسقوط الملك فاروق .

ان هذه الأوراق موزعة على فايلات ومرتبة بشكل بسيط غير معقد اعتمادا على الحروف وطبقا لنظام يعتمد على استخدام الكارت الذى يحتوي على تفاصيل تخص المؤلف والموضوع . أما النظم والأساليب المتبعة في المركز فتمتاز بوضوحها وسهولتها فضلا عن توفر القوائم والكشافات التفصيلية للمجموعات المحفوظة لديهم .

وفيما يلي دراسة لمختارات من هذه المادة الوثائقية علها تفيد الباحث المؤرخ المهتم بدراسة تاريخ الوطن العربي الحديث والمعاصر . وكذلك لتسهم في تسليط الضوء على ان الباحث رغم اعتماده على الوثائق الموجودة في دار الوثائق العامة (P.R.O.) فانه لا يستغنى عن الوثائق الموجودة في المراكز الأخرى إتماما للفائدة واستكمالا لمتطلبات البحث .

١ ـ آدمسون ، ريتشارد :

Adamson, Richard

في أوراقه الخاصة تفاصيل وجهة النظر البريطانية فيما يتعلق بمحاكمة بعض العناصر الوطنية التى ساهمت في ثورة ١٩١٩ في مصر . وكذلك تفاصيل عن الوضع الأمني في القدس خلال المظاهرات التى حصلت أثناء عيد الفصح عام ١٩٢٠ .

٢ ـ اللنبي ، السير أدموند :

Allenby, Sir Edmund

ترك اللنبي في أوراقه الخاصة تفاصيل تخص الحملة الى فلسطين تلك التى قادها عام ١٩١٧ . نماذج ومقتبسات من رسائل شخصية الى زوجته تتعلق باحتلال حلب ١٩١٨

وزيارته الى اسطنبول في شباط ١٩١٩ . كذلك احتوت أوراقه الشخصية على رسائل وتقارير كتبها أناس كانوا شهود عيان للفترة نفسها منها مثلا رسائل من هـ . شوفيل ورسائل الى السير هربرت صموئيل ١٩٢٠ ـ ١٩٢٥ . ورسالة الى السير و. هيتر مؤرخة في ٦/٥/١٩٢٤ حول سعد زغلول فضلا عن رسائل استلمها من ويفل و.ج ديلاني حول كتاب ويفل المعنون : «اللنبي في مصر» .

٣ ـ مشروع الأرشيف الانجلو ـ فلسطيني :

Anglo- Palistine Archives Project

يحتوي هذا المشروع على (١٢) مجلداً من الفايلات والسجلات التى تتضمن مراسلات مختلفة مع أشخاص ومؤسسات متعددة . كذلك احتوت سجلات هذا المشروع على دليل مطبوع وعلى قائمة بالمصادر تتعلق بالمؤسسات والهيئات منها هيئة الوثائق الانكلو ـ فلسطينية ومحاضر لاجتماعات مختلفة .

٤ ـ أنطونيوس ، جورج :

Antonius, George

ترك أنطونيوس في أوراقه الخاصة تقارير عن فلسطين ولبنان ومصر وسوريا والعراق للفترة من ١٩٣٠ ـ ١٩٣٩ . كان انطونيوس قد جمعها وأضاف اليها بعض الملاحظات عن قضية طه حسين عام ١٩٣٢ وجمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده .

٥ ـ عارف ، العارف :

Aref El- Aref

اشتملت أوراقه الخاصة على يوميات مكتوبة باللغة العربية من ضمنها يوميات عن عمان غطت الفترة ١٩٢٦ ـ ١٩٢٨ وكذلك يوميات عن الأحداث في غزة للفترة من تموز ١٩٣٩ الى حزيران ١٩٤٠ .

٦ ـ تصريح بلفور :

Balfour Declaration

نسبة الى آرثر جيمس بلفور وزير الخارجية البريطاني الذى اشتهر بوعده المتضمن «اقامة وطن قومي لليهود في فلسطين» . وفي هذه السجلات توجد رسائل وتقارير وملاحظات متنوعة لها علاقة بموضوع وعد بلفور وكيف صدر وما هي آثاره .

٧ ـ باربور ، نيفل :

Barbour, Nevill

احتوت أوراقه الخاصة على نسخ من مقالات ونشرات اذاعية حول الشرق الأوسط وشمال افريقيا . وكذلك مواضيع أخرى متعددة حول الصهيونية ونشاطاتها تغطي الفترة من ١٩٣٦ ـ ١٩٦٣ مع ترجمة باللغة الانجليزية لجزء من مذكرات صدقي باشا .

٨ ـ بارنج ، إفلين

Baring, Evelyn (I st Earl of Cromer

في أوراقه الشخصية مسودة لرسالة كتبها كرومر الى الملكة فيكتوريا مؤرخة يوم ١٤/١/١٩٠١ ورسائل أخرى كتبها الى ميشيل ـ انسز تاريخها ٢٠/٤/١٩٠٧ ورسالتان الى هاري بويل مؤرختان يوم ٥/١٠ و١٠/١٠/١٩١٤ تتضمنان مناقشة لامكانية اثارة العرب

للقيام بثورة ضد الأتراك .

٩ ـ بيل ، جرترود :

Bell, Gertrude

احتوت أوراق المس بيل على يوميات لرحلتها الى حائل من كانون الثاني الى مارس ١٩١٤ ورسائل الى همفري بومان ١٩٢٠ ـ ١٩٢٥ والى اللورد اللنبي بتاريخ ١٣/٥/١٩٢٠ كذلك توجد ضمن أوراقها الشخصية أوراق لمحاضرة عنوانها : «جرترود بيل في الشرق الأوسط» الا ان مؤلف هذه المحاضرة وتاريخها مجهولان . وفضلا عن ذلك توجد ضمن أوراقها مجموعة تركها و. سي . دونكين عنوانها : رسائل جرترود بيل (نيوكاسل ١٩٦٦) .

١٠ ـ بنتوج ، نورمان :

Bentwich, Norman

احتوت أوراقه الشخصية على رسائل في اللغتين العربية والانكليزية تسلمها خلال خدمته مستشارا قانونيا في حكومة فلسطين ١٩٢١ ـ ١٩٢٩ . كذلك فان هناك أوراقا أخرى تتعلق بالادارة القانونية في العراق وفلسطين في ظل الانتداب البريطاني . فضلا عن أوراق أخرى تتعلق بالمهمات والأعمال التى أنيطت به في اثيوبيا عام ١٩٤٣ وأخرى لها علاقة بادعاءات اثيوبيا في اريتريا والصومال.

١١ ـ بلينكينسوب ، ف ، و ، ج :

Blenkinsop, F.W.G.

في أوراقه الخاصة مذكرة تتضمن بعض الأفكار عن الصراع العربي ـ الصهيوني مؤرخة في ١/١١/١٩٤٤ .

١٢ ـ بليث ، ي :

Blythe, Miss E.

في مجموعة المس بليث أوراق شخصية تتعلق بالاسقف بليث وتغطي الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى ومن ضمنها كتاب عنوانه :

The All Highest Goes To Jerusalem (london, 1918) وفي هذا الكتاب يوميات تصف زيارة الامبراطور الألماني وليم الثاني الى الأراضي المقدسة . كذلك في هذه الأوراق الشخصية مناقشات لبعض دورات مجلس اللوردات وملاحظات وبيانات سياسية ... الخ . حول فلسطين للفترة ١٩٢٠ ـ ١٩٢٩ مع قصاصات صحفية .

١٣ ـ بووين ، هـ . سي:

Bowen, H.C.

في أوراقه الشخصية مخطوطات لمحاضرات عددها ست حول الوجود العربي في شمال افريقيا واسبانيا . مصادر لتاريخ المسلمين في أوربا وأوراق تغطي جوانب متعددة في التاريخ الاسلامي وكذلك ملاحظات حول تاريخ الامبراطورية العثمانية .

١٤ ـ بومان ، هـ . ي:

Bowman, H.E.

يوميات تشمل الفترة الممتدة من ١٩٠٣ ـ ١٩٤٩ ومن ضمنها يوميات عن مصر للفترة ١٩٠٣ ـ ١٩١١ ، السودان ١٩١١ ـ ١٩١٤ ، العراق ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ ، فلسطين ١٩٢١ ـ ١٩٣٧ .

ورسائل شخصية أرسلت له من السير هوغ بيل والسير ربتورز خلال الفترة ١٩١٠ ـ ١٩٥٤ . تعيينه مديرا للتعليم في العراق ١٩١٧ ـ ١٩٢٠ . عروض بتعيينه في وزارة التربية المصرية للفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ . مراسلات مع الحكومة المصرية ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥ تتضمن التوقيفات التقاعدية ، اللجنة الملكية الفلسطينية في التعليم . متفرقات تتضمن أوراقا مختلفة ورسائل شخصية الى والديه . كذلك محاضرات عن الجنرال كوردن وعروض لكتب مختلفة ومراسلات مع المندوب السامي البريطاني في فلسطين ١٩٣٤ ـ ١٩٣٦ .

١٥ ـ **بويل ، هاري:**

Boyle, Harry

مراسلات مع زوجته وأمه للفترة من ١٨٨٤ ـ ١٩٢٣ . ومتفرقات تشمل أوراقا شخصية ورسائل الى اللورد رينيل تاريخها ١٩٠٢/١٠/١١ و١٩٠٧/٤/٢١ . كذلك مذكرة يرجع تاريخها الى ١٩٠٥ حول الخلفيات التاريخية للاحتلال البريطاني لمصر . مذكرة دبلوماسية سرية أرسلها الى السير ي . كري تاريخها ١٩٠٨/٨/١٦ ، مهمة ملنر ، ١٩٢١ : رسائل ومذكرة .

١٦ ـ **برود هيرست ر.جي.سي :**

Broadhurst, Brig R.j.c

أوراق مختلفة تتضمن معلومات مفيدة عن الكمارك ومسائل مختلفة تتعلق بقضايا النفط في مصر ١٨٨٦ ـ ١٨٨٧ .

يوميات مخطوطة من قبل عضو في الكتيبة الايرلندية الملكية حول حملة النيل لسنة ١٨٨٩ مع قصاصات مختلفة لمعلومات عن الفترة تتضمن تقارير في كيفية التغلب على التهريب والمهربين نتيجة خدمات حراس الساحل المصري للفترة ١٨٨٩ ـ ١٨٩٠ .

١٧ ـ **برونتون ، سي. دي :**

Brunton, Capt. c.d.

احتوت أوراقه الشخصية على مطبوعة «من هو في دمشق لعام ١٩١٩» . كذلك أوراق مختلفة عن الوضع السياسي في فلسطين للفترة ١٩٢٠ ـ ١٩٢١ . مقترحات «للقوة الاحتياطية» في الاردن تاريخها ١٩٢٠/٩/١١ . مقالة بقلم و. دان عنوانها «بدايات الفيلق العربي» وهو مستل من مجلة : دراسات الشرق الأوسط .

١٨ ـ **كافيراتا ، ر. أو :**

Cafferata, Col.R.O.

نسخ مصورة من مقتطفات الصحف وملاحظات عن حياة الكولونيل كافيراتا حول «الشرطة في فلسطين : ١٩٢٢ ـ ١٩٤٨» .

١٩ ـ **جانسيلور ، السير جون :**

Chancellor, Sir John

من أوراقه الخاصة تصريح تاريخه ١٩٢٩/٩/١ له علاقة بأحداث حائط المبكى في فلسطين . وهذا التصريح نسخه بالعربية والانكليزية والعبرية .

٢٠ ـ **تشيتهام ، السير ملن :**

Cheetham, Sir Milne

تحتوى مجموعة أوراقه الخاصة على رسائل شخصية وبرقيات الى السير أ. نيكلسون ، السير لويس ماليت ، السير الدون غورست واللورد كتشنر وجميعها تدور : «حول السياسة البريطانية في مصر ١٩١٠ ـ ١٩١٤» . كذلك هناك رسائل من ر. س. باترسون ، السير ر. غراهام ، اللورد اللنبي وملنر وهي تتعلق بمصر وتشمل الفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ .

٢١ ـ كلايتون ، السير جلبرت :

Clayton, Sir Gilbert F.

من أوراقه الشخصية نسخة مصورة لرسالة بعثها الى السير ر. وينكيت يعود تاريخها الى ١٩١٦/٨/٣ تتعلق بأحوال القاهرة حينذاك .

٢٢ ـ كلايتون ، التايد . ن :

Claton, Bri. Iltyd N.

اشتملت أوراقه الشخصية على مذكرات كتبها الميجر نوربري حول حصار الكوفة . فلسطين : أوراق رسمية (من وعد بلفور الى ١٩٣٩) مجلدة بغلاف قوي . أوراق متنوعة تشتمل أجزاء من مذكرات الى عام ١٩٢٩ . نسخة من مقال كتبه البرت حوراني عنوانه «بريطانيا العظمى والقومية العربية» عام ١٩٤٣ . مقال عنوانه : «مستقبل فلسطين» مع المراسلات المتعلقة بالموضوع عن فلسطين للفترة من عام ١٩٤٤ وما بعدها . مقالات عن لبنان بقلم جاريس مالك عام ١٩٤٤ . مقال بقلم موسى العلمي عن مشروع استصلاح الأراضى مع المراسلات المتعلقة بعام ١٩٤٦ . مخطوطة مطبوعة بقلم السير جلبرت كلايتون عنوانها «يوميات كلايتون في مهمة الى ابن سعود» . كذلك هناك مخطوطة مطبوعة الا انها مجهولة المؤلف عنوانها : خلفيات أعمال المركز البريطاني في مصر» .

٢٣ ـ كوركيل ، دكتور ن.ل :

Corkill, Dr. N.L.

تضمنت أوراقه الشخصية مقالات وأوراقا مختلفة عن أوضاع الصحة في ايران ، أبوظبي ، المملكة العربية السعودية وكذلك بعض القبائل البدوية . كذلك بعض الملاحظات عن الأحوال الصحية لدى قبائل شرقي عدن للفترة من ١٩٢٧ ـ ١٩٦٤ . مسح اقتصادي عن التغذية في مخيمات اللاجئين الفلسطينيين في ربيع ١٩٥١ .

٢٤ ـ كورنواليس ، السير كنهان :

Cornwallis, Sir Kinhan

ترك كورنواليس رسالة مؤرخة يوم ١٩٣٩/٥/١٧ الى اللورد ويفل مدونا فيها الحديث الذى حصل بين فيصل واللنبي في دمشق بتاريخ ١٩١٨/١٠/٣ . كذلك ترك تفاصيل الصلاة التأبينية التى أقيمت في لندن عند الاطاحة بنوري السعيد عام ١٩٥٨ .

٢٥ ـ كرين ، تشارلز . ر :

Crane, Charles R.

نسخ مصورة لرسائل مختلفة أرسلت اليه من البلاد العربية تعود الى شتاء عام ١٩٢٦ . ١٩٢٧ ، مع مقتطفات من يوميات جدة عام ١٩٣١ .

٢٦ ـ كروسمان ، ر. هـ . اس

Crossman, R.H.S.

من أوراقه الخاصة فايلات ومقتطفات ورسائل ومسودات ... الخ حول تفاصيل مهمة لجنة التحقيق الانجلو ـ امريكية والـ Unscop لأعوام ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ وما تبع ذلك . من تفاصيل تتعلق بالاعتراف «باسرائيل» . كما احتوت مجموعته على (١٢) رسالة خاصة أرسلت الى المسز زيتا كروسمان من فلسطين ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ ومن ضمنها رسالة الزيارة التى قام بها الى حاييم وايزمان .

٢٧ ـ كرودي ، جي. دي :

Crowdy, J.D.

أربع رسائل تركها كرودي على شكل كتاب أشبه باليوميات عن خدماته خلال الحملة البريطانية على العراق خلال أعوام ١٩١٦ ـ ١٩١٨ .

٢٨ ـ كننجهام ، السير ألن :

Cunningham,Sir Alan

ترك في أوراقه الخاصة مجموعة من البرقيات والأوراق الرسمية عن الفترة التى خدم فيها مندوبا ساميا في فلسطين لأشد فترات تاريخها تداخلا ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ .

٢٩ ـ ديدس ، ويندهام :

Deedes, Wyndham

الامبراطورية العثمانية وفلسطين : يبدو انه مشروع كتاب احتوى على رسائل عديدة أرسلها الى ذويه وضح فيها تفاصيل عن خدمته في الجندرمة العثمانية ، حملة غاليبرلى ، حملة فلسطين . كذلك من أوراقه الخاصة مجموعة من رسائل حول خدمته مديرا للأمن في مصر ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ، ورسائل أخرى عن خدمته في فلسطين ١٩٢٠ ـ ١٩٢٣ وما تبع ذلك من علاقاته بالصهاينة وبالحركة الصهيونية .

٣٠ ـ ديلاني ، جيرالد :

Delany, Gerald

من أوراقه الخاصة مجموعة ملاحظات تركها عن مساهمات جي . سي سيندر في التسوية المصرية عام ١٩٢١ وملاحظات أخرى عن اللورد لويد وسعد زغلول والنقراشي باشا . مخطوطة الفصل الأخير بكتاب اليجود ب : تاريخ مصر : Elgood's History OF Egypt وقد كتب هذا الفصل خلال الحرب العالمية الثانية باللغة العربية . مذكرة حول الوطنية والمسائل المتعلقة بالمشكلة الزراعية في مصر . مقال في جريدة Spectator تاريخه ١٩٤٥/٣/٢ حول اغتيال أحمد ماهر باشا .

كذلك ترك ضمن أوراقه رسائل من ويفل حول كتابه عن اللورد اللنبي ورسائل من ابن ويفل عن حياة أبيه اللورد ويفل . ورسالة الى اللورد ويفل الأصغر يعود تاريخها الى ١٩٥٢/٧/٢٧ حول الأوضاع السياسية في مصر خلال مسئولية ويفل قائدا لقوات الحلفاء مقره في القاهرة خلال الحرب العالمية الثانية .

٣١ ـ ديكسون ، هـ . ر. ب:

Dickson H.R.P.

ترك ديكسون رسائل عديدة تضمنت معلومات مختلفة منها الحملة البريطانية

في العراق ، عمليات سوق الشويخ ، التهدئة في المنتفك ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ، العــراق ١٩١٧ ـ ١٩١٩ وحــوادث الناصرية للفترة نفسها . أوضاع الادارة والخدمات في ولاية البصرة وبغداد . التقارير الادارية للوكالة السياسية في الكويت خلال أعوام ١٩١٨ ـ ١٩١٩ ، ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ . البحرين : يوميات عن مهمته في البحرين ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ . رسائل شخصية ذات طابع سياسي عن العراق ومنطقة الخليج العربي أرسلت الى الهند خلال العشرينات ومن ضمنها رســائـل الى الســير ب كــوكس ، أ.ت. ويلسون ، فيلبي ، برترام توماس . تقارير من الحملة ١٩٢١ ـ ١٩٢٢ . أوراق تخص مؤتمر العقير ١٩٢٢ . الكويت والصحراء ، مقالات ومقتطفات صحفية : ١٩٣١ ـ ١٩٤٨ . الكويت ، التجهيزات التجارية ١٩٣٢ ـ مختصر تقارير الاستخبارات في الكويت لعام ١٩٣٤ : من الشهر ٢ ـ الى الشهر ٤ ، الشهــر ١٠ ـ الى الشهر ١٢ ، عــام ١٩٣٥ كامل ، عام ١٩٣٦ ـ الشهر الأول فقط . يوميات الكويت ١٩٣٧ ـ ١٩٥٨ . الكويت والمملكة العربية السعودية والمملكة المتحدة : تشمــل مجموعــة تفاصيل تتضمن المعاهدات والمؤتمرات وملاحظات عن الحــدود العراقيــة ـ الكويتية .

٣٢ ـ ديكسون ، جون :

Diekson, John

مراسلات مختلفة للفترة من ١٨٧٦ ـ ١٩١٦ مع جرترود بيل وآخرين حول مواضيع تتعلق بــالرحــلات والآثار . يوميات خلال عمله قنصلا في دمشق ١٨٨٢ ـ ١٨٨٨ . ورســائل عــائلية تتضمن معلومات عندما كان قنصلا عاما في القدس ١٨٩٢ ـ ١٩٠٦ . ومتفرقات لرسائل أخرى من قنصليات بيروت ، دمشق والقدس خلال الفترة ١٨٩٠ ـ ١٩٠٠ .

٣٣ ـ داوسن ، السير أرنست :

Dowson, Sir Ernest

رسالة الى ف. م. ادوارد حول موضوع ضرائب الأراضي في فلسطين مؤرخة في ٢٥ أيلول ١٩٣٧ .

٣٤ ـ ادموندز ، سي. جي :

Admonds. C.J.

من أوراقه الشخصية رسائل مختلفة تتضمن تفاصيل عن خدمته في العراق للفترة ١٩١٥ ـ ١٩٤٥» وأوراقا أخرى خلال مسئوليته مفتشا اداريا ١٩٢٢ ـ ١٩٢٤ وضابط ارتباط خلال عمل اللجنة الدولية للتحقيق في مشكلة الموصــل ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦ .

٣٥ ـ فاروق ، ملك مصر السابق :

Farouk, Ex- King

نسخ من نشرة أخبار الامبراطورية Empire News للفترات التالية : ١٢، ١٩، ٢٦ شهر تشرين الأول ، ٢، ٩، ١٦، ٢٣، ٣٠ شهر تشرين الثاني ، ٧، ١٤، ٢١، ٢٨ كانون الأول ١٩٥٢ . وكذلك ٤ ، ١١ كانون الثاني ١٩٥٣ . جميع هذه النسخ من النشرة تحتوى على معلومات تتعلق بسقوط الملك فاروق وانتهاء ملكه .

٣٦ ـ فيصل ـ ملك العراق السابق :

Feisal, (King Of Iraq

أوراق مختلفة ومن ضمنها تقارير استخبارية كتبت بالعربية والانكليزية وتغطي الفترات ١٩١٦ ـ ١٩٣٩ ، ١٩٤١ ، ١٩٣٩ ، ١٩٤١ ، ١٩٦٥ ـ مراسلات مع الجنرال غورو ، اللورد اللنبي في حزيران ١٩١٨ وفي لندن ١٩١٩/١/٣ .

٣٧ ـ فوستر ، ترنر ، و :

Foster- Turner, W.

من أوراقه الخاصة بيانات وأوراق عن تخطيط المدن والخدمات العامة في فلسطين ١٩٣٣ ـ ١٩٤٦ .

٣٨ ـ غوردون ، الجنرال سي. جي :

Gordon, Gen. C. G.

أوراق متنوعة تشتمل على رسائل من السودان والتي تغطي الفترة ١٨٧٤ ـ ١٨٨٤ وواحدة من هذه الرسائل بعثها من ماساوه في ١٨٧٩ يصف فيها زيارته للامبراطور جون امبراطور اثيوبيا. كذلك في أوراقه دراسة عن حياته كتبها ف.ي. فريسي فضلا عن ٣٤ رسالة بعثها غوردون نفسه الى المسز فريسي ١٨٧٤ ـ ١٨٨٠ هناك أيضا مخطوطة (رسالة) بعثها الى أخيه من السودان تاريخها ١٨٧٨/١٢/١٢ يشير فيها الى طموحات خديو مصر في اثيوبيا والصومال .

٣٩ ـ كري ـ مكنزي وشركاه المتحدة :

Cray, Mackenzie & Co.

وثائق مختلفة حول الملاحة البخارية في دجلة والفرات ووثائق أخرى تخص امتياز طريق طهران دزفول ١٨٨٢ ـ ١٩٢٤ .

٤٠ ـ كيرني ، السير هنري :

Curney, Sir Henry

«ملحق فلسطين» يشتمل على وثائق للأيام الأخيرة للانتداب (من ضمنها يوميات تشمل الفترة من ٣/١٥ ـ ١٩٤٨/٥/١٣) .

٤١ ـ هيننج ، ليوتانت. جنرال. ر. هـ :

Haining, Lt. R.H.

برقيات رسمية حول العمليات العسكرية نفذت من قبل القوات البريطانية في كل من فلسطين وشرقي الاردن خلال فترة قيادة الجنرال هيننج من ١٩٣٨/٤/١ ـ ١٩٣٩/٧٧/٣٠ . القدس خلال عام ١٩٣٩ . وقصاصات صحفية عن الفترة نفسها ورسالة من مالكولم ماكدونالد .

٤٢ ـ هينسي ، إيه . اس. ف :

Hennessey, A.S.F.

ترك ضمن اوراقه الشخصية تفاصيل رحلته الى الرياض مرافقا للجنة التحقيق الانجلو ـ امريكية حول فلسطين عام ١٩٤٦ .

٤٣ ـ هربرت ، ميرفين :

Herbert, Mervyn

في أوراقه الخاصة يوميات تغطي فترة خدمته في القاهرة ١٨٨٧ ـ ١٩٢٣ ومن ضمنها جزئان ـ الأول يخص الفترة ١٩١٢ ـ ١٩١٧ كذلك رسالة تاريخها ١٩٢٥/١١/٢٠ من اللورد لويد حول انطباعه الأول كسفير الى القاهرة .

٤٤ ـ هوجارت ، د. جي :

Hogarth, D.G.

ملاحظات ورسائل وبيانات تغطي

الفترة ١٨٩٧ ـ ١٩٢١ بعثها الى أمه وزوجته وابنه ذكر فيها دراسة عن بعض الشخصيات مثل المس بيل ، لورنس. ت.أ كذلك ضمن أوراقه رسالة بعثها لورنس نفسه الى ابن هوجارت تاريخها يعود الى ١٩٢٨ .

٤٥ ـ هولدين ، أندرو :

Holden, Andrew

في أوراقه بيانات وتفاصيل تؤرخ للفترة التى كان يعمل فيها لدى الحكومة المصرية ١٩٠٧ ـ ١٩٥٢ تتضمن تخمينات لضريبة الأرض ومحاولات شراء الأراضي في أبى قير وضمان اعتماد لمشاريع الرى والزراعة وبعض الموضوعات عن الحركة الوطنية المصرية .

٤٦ ـ هولمس ، ر. جي :

Holmes, R. J

عدن : مراسلات وتقارير وبيانات عن بعض القضايا ١٩٤٢ ـ ١٩٦٧ . أوراق حول المؤتمر الانجلو ـ يمني ١٩٥٠ مراسلات مجلس ميزانية شرق افريقيا ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ . مراسلات ومذكرات حول التطور الدستوري في الامارات العربية المتحدة ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ . بريطانيا والجنوب العربي . مخطوطة لكتاب عن التاريخ الدستوري والقانوني للجنوب العربي يشمل الفترة التى سبقت الاستقلال وهو يقع في ٢٤٨ ص .

٤٧ ـ هورنسبي ، السير برترام :

Hornsby, Sir Bertram

أوراق حول خدماته الحربية في مصر ١٩١٥ ـ ١٩١٩ . مخطوطة مجهولة المؤلف والأرجح ان كاتبها مصري ينتقد فيها المسودة التى وضعها السير و. برنياني حول الاصلاح الدستوري في مصر والتى وضعت عام ١٩١٨ . العلاقات الأنجلو ـ مصرية خلال فترة اللورد اللنبي واللورد لويد . مواضيع اقتصادية ومالية مختلفة لسنتي ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣ . مسودة لمخطوطة مجهولة المؤلف (بيد كاتب بريطاني) ينتقد فيها الحكومة البريطانية حول مباحثات المعاهدة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ . مشروع رهن عقارات فلسطين ١٩٢٣ . أوراق حول عمل وطبيعة البنك الوطني في مصر وعلاقته مع الحكومة المصرية عام ١٩٢٩ .

٤٨ ـ إنجرامس ، وليم هارولد :

Ingrams, William Harold :

... تقرير حول مؤتمر القاهرة ١٩٢١ . متنوعات : أوراق حول المكلا وحضرموت خلال الثلاثينات الى الستينات . مختصر تقارير الاستخبارات (عدن) ١٩٣٥ ـ ١٩٣٦. مختصر تقارير الاستخبارات (حضرموت) : ١ ـ ١٤٤ (١٩٣٧ ـ ١٩٤٠) . مختصر تقارير الاستخبارات (شرقى عدن) ١٩٤١ ـ ١٩٤٤ : ملاحظات ، مقتطفات صحف أوراق ورسائل ، برقيات عن عدن خلال الفترة من الأربعينات الى الستينات ... مقال حول التركيب القبلى والولاءات فى اليمن كتب عام ١٩٦٥ لأغراض استخدامات وزارة الخارجية البريطانية (F.O.).

٤٩ ـ جاردن ، ليونيل :

Jardine, Lionel :

حملـة الفـرات (بعثـة الفـرات الاستكشافية) : نسخة من التعليمات الى الكولونيل حسني ... لندن ١٨٢٧ . خارطة أخذت من الجيش التركي في الرمادي ١٩١٨ ، قراءة في الادارة المدنية لبلاد مابين النهرين عام ١٩٢٠ . وكذلك أوراق متنوعة تتعلق بأحوال العراق خلال الحرب العالمية الأولى .

٥٠ ـ القدس والبعثة الشرقية :

Jerusalem & the East Mission:

تتضمن هذه المجموعة الوثـائقية ملفات وفايلات للفترة بين ١٨٤١ ـ ١٩٧٠ من ضمنها مواد عن فلسطين وسوريا والعراق والأردن وإيران والخليج العربي ومصر والسودان وقبرص وشمالي أفريقيا ، مع مراسلات خاصـة عن الوضع السياسي في فلسطين ١٩١٦ ـ ١٩٦٧ .

٥١ ـ كيث ـ روتش ، ادوارد :

Keith-Roach, Edward :

تتضمن أوراقه نسخة من مخطوطة مطبوعة تقع في جزئين عنوانها : باشوات القدس تغطي الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٩ ـ ١٩٤٣ ، فضلاً عن مقتطفات ذات أهمية خاصة للفترة نفسها .

٥٢ ـ كيون ـ بويد ، السرأ :

Keown - Boyd, Sir A. :

اشتملت أوراقه على تفاصيل خدمته في السودان ومصر للفترة ١٩١٤ ، وكذلك للفترة ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ . ومذكرة بين فيها رأيه عن إنتخابات مصر لعام ١٩٣٠ ، ورسائل متفرقة للفترة نيسان ١٩٥١ وتموز ١٩٥٣ وجميعها تتناول موضوع السياسة المصرية .

٥٣ ـ كسلر ، ل . مع جولدسمد ، كولونيل :

Kessler, L. & Goldsmid, Col. A. :

تفاصيل مدونة في كتاب يبحث حول مدى امكانية أو عملية إسكان اليهود في سيناء ١٩٠٣ .

٥٤ ـ كنتش ، ادوارد ألك :

Kinch, Edward Alec :

ملاحظات عن سيرته الذاتية للفترة ١٨٩٦ ـ ١٩٥٨/ ٥٩ ومراسلات عندما كان مستشاراً سياسياً في الموصل ، ومراسلات مع السر كنهان كورنواليس وآخرين تغطي الفترة ١٩٤١ ـ ١٩٤٤ .

٥٥ ـ لامبسون ، مايلز ، و :

Lampson, Miles W. :

كان مندوباً سامياً في مصر وترك يوميات أحتوت على معلومات مهمة تغطي الفترة ١٩٣٤ ـ ١٩٥١ .

٥٦ ـ لورنس ، ت . أ . :

Lawrence, T. E. :

في أوراق لورنس رسالة بعثها الى الكولونيل س.ف. نيوكمب ويعود تاريخها الى ١٧/١/١٩١٧ . كذلك احتوت أوراقه على : رسالة الى الشريف حسين ـ ملك الحجاز ـ تاريخها ٢٥/٦/١٩١٨ حول بعض التفاصيل التي تخص الثورة العـربية . نسخـة من رسـالـة الى جي، و. أ.يونغ يرجع تاريخها الى شباط ١٩٢١ وفيها يعلق لورنس على مقاله لزيارته الى جدة . رسالة من رنيل رود الى ليدل هارت تاريخها ٥/٤/١٩٥٤ تتعلق

بالعرض على لورنس لتولي سكرتارية بنك انكلترا .

٥٧ ـ ليتشمان ، كولونيل. جي :
Leachman, Col. G. :

احتوت أوراق ليتشمان على يوميات للفترة ١٩٠٠ ـ ١٩٠٢ (حرب البوير) ، ١٩٠٤ (العراق وسوريا) ، يوميات بدون وجود تواريخ عليها تتعلق بالعراق .

٥٨ ـ لي رى، هـ. ج. :
Le Ray, H. G. :

تقارير سنوية لمدير المساحة ، فلسطين ، ١٩٢٠ ـ ١٩٣٩ . مواد اخرى حول قوانين الأرض ، ضرائب الأرض ، وكذلك عن توزيع الأراضي في فلسطين خلال فترة الانتداب .

٥٩ ـ لودر، جي، دي فيري :
Loder, J. de Vere :

دفتر رسائل ويوميات عن حملات غاليبولي وفلسطين ، ١٩١٥ ـ ١٩١٨ ، ومذكرة لدراسة الشخصيات الأعضاء في المنظمة الصهيونية لعام ١٩١٨ .

٦٠ ـ ليوك، السر هاري. سي :
Luke, Sir Harry C. :

تتضمن أوراق ليوك يوميات تغطي الفترة ١٩٠٣ ـ ١٩٥٩ ومن ضمنها معلومات عن خدمته خلال الحرب العالمية الأولى فى قبرص وفلسطين . ورسائل حول النزاع على حائط المبكى عام ١٩٢٩ . ملاحظات عن الجلسة ١٧ للجنة الانتداب الدائمة والتابعة لعصبة الأمم . كذلك فى أوراقه الخاصة بيانات ومذكرات ووريقات صغيرة تتعلق بفلسطين (١٩٣٠/٥/٩) وبالوكالة اليهودية :
Jewish Agency .

٦١ ـ ماكليفري ، السر دونالد :
Macgillivray, Sir Donald :

في أوراقه الخاصة بيانات مختلفة ومعلومات تغطي الفترة التي خدم فيها في فلسطين ١٩٣٨ ـ ١٩٤٥ . كذلك أوراق أخرى عن استمرار الثورة الفلسطينية لعام ١٩٣٦ وعن فلسطين للفترة (١٩٤٤ ـ ١٩٤٧) وعن الانسحاب البريطاني (١٩٤٧ ـ ١٩٤٨) .

٦٢ ـ مينرتز هاجن ، كولونيل ر. :
Meinertzhagen Col. R. :

ترك في أوراقه الخاصة رسالة يعود تاريخها الى ١٩٤٦/١/١٢ أرسلت الى لندمان ذكر فيها أن بلفور ولويد جورج كانت لهما بعض الآراء المتعلقة بسياسة تخص شرق الأردن ، إلا أن هذه السياسة أعيدت صياغتها في مؤتمر القاهرة عام ١٩٢١ .

٦٣ ـ مونكتون ، ر. ف. پ. :
Monckton, R. F. P. :

اشتملت أوراقه الخاصة على بيانات ورسائل لفترة خدمته في كل من فلسطين وشرق الأردن ١٩١٧ ـ ١٩٢٥ ومن ضمنها مواد عن الفترة السابقة لتنصيب الأمير عبد الله في شرقي الأردن وأحاديث مدونة تخص شرقي الأردن . كذلك في أوراقه ملاحظات حول أوراق سومرست ومراسلات مع مركز الوثائق في (اسرائيل) وقائمة بأسماء الضباط في حكومة فلسطين لعام ١٩٢٠ وتقارير

ومراسلات لفترة الستينات .

٦٤ ـ مونرو ، اليزابيث :

Monroe, Elizabeth :

تتضمن أوراقها الخاصة ترجمة لبعض وثائق من الأرشيف القيصري حول سقوط الأمبراطورية العثمانية ١٩١٤ ـ ١٩١٥ . ملاحظات حول المكتب العربي ١٩١٦ ـ ١٩١٩ . كذلك في أوراقها الخاصة رسائل من سي. جي. أدموندز حول لجنة الموصل ، الأكراد والمعاهدة العراقية ـ البريطانية لسنة ١٩٢٦ . رسائل من فرياستارك ١٩٤٣/١١/٤ ـ ١٩٤٤/٦/١٨ حول جوانب مهمتها الى الولايات المتحدة الأمريكية . ملاحظات حول السياسة البريطانية في فلسطين للفترة من ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ مع الاشارة خاصة الى أرنست بيفن «وزير الخارجية البريطانية حينذاك» . رسائل حول أوضاع الأردن ١٩٥١ ـ ١٩٥٥ . الدعاية الناصرية في الخليج العربي ١٩٥٥ ـ ١٩٥٧ وتأثيرات أزمة السويس على السياسة العراقية . رسائل حول التطورات في كل من إيران والعراق خلال عام ١٩٥٧ . ومذكرة حول المملكة العربية السعودية ١٩٧٠ ـ ١٩٧١ . خارطة لسكة حديد الحجاز. مواد حول الجهود المصرية لنشر الدعاية لمصر من خلال ارسال المدرسين والمندوبين المصريين الى الخارج.

٦٥ ـ موت رادكليف ، تشارلس :

Mott- Radclyffe, Charles :

مذكرة حول وضع الجيش البريطاني في منطقة قناة السويس مع تقارير عن لقاءاته بكل من جمال عبد الناصر ومحمد نجيب في مايو ١٩٥٤ .

٦٦ ـ نالدر ، أل. ف. :

Nalder, L. F. :

في أوراقه الخاصة ترجمة مع النص العربي لرسالتين بعثهما الأمير فيصل الى والده الشريف حسين خلال نهضة العرب وثورتهم الكبرى عام ١٩١٦ .

٦٧ ـ فلسطين : مؤتمرات حول فلسطين :

تفاصيل الاجتماعات التى عقدت بين الجانبين البريطاني ـ العربي للفترة من شباط الى آزار ١٩٣٩ .

٦٨ ـ برون ، ستيورات :

Perowne, Stewart :

تتضمن رسائله الشخصية رسائل الى عائلته تغطي فترة حياته العملية من ١٩١٣ ـ ١٩٤٧ ومن ضمنها أوراق خدمته الى اليزابيث مونرو مؤرخة في ١٩٧١/٨/٥ حول استخدام سكك حديد فلسطين للمواصلات مع حكومة فيشي الفرنسية في سوريا خلال الحرب العالمية الثانية .

٦٩ ـ فيلبي ، هـ. ست. جي :

Philby, H. St. J. :

مراسلات ومذكرات ويوميات لرحلات ومخطوطات مطبوعة وغير مطبوعة تشمل مواضيع متعددة تتعلق بالأردن والعراق وفلسطين والمملكة العربية السعودية وتغطي الفترة الواقعة بين ١٩١٥ ـ ١٩٥٧ .

٧٠ ـ روليام ، بريجدير. سي. دي. :

Ruilliam, Brig. C. D. :

رسائل وقصاصات مختلفة من النقراشي باشا ومن ليستر وآخرين . كذلك رسائل وأوراق مختلفة تتعلق بمحاكمة وعقوبة الاعدام التي انزلت بحق رئيس الوزراء المصري السابق إبراهيم عبد الهادي (١٩٥٣) .

٧١ ـ راپ ،السر توماس :
Rapp, Sir Thomas :

تتضمن أوراقه الشخصية مذكرات غير مطبوعة تغطى فترة خدمته في مصر في منطقة قناة السويس ١٩٢٠ ـ ١٩٢٢ ، ١٩٢٤ ـ ١٩٢٥ ، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٣ ، مصر ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥ ، ١٩٥٠ ـ ١٩٥٢ ، الحجاز ١٩٢٤ ، المغرب ١٩٢٦ ـ ١٩٣٠ ، أذربيجان ١٩٤٣ ـ ١٩٤٤ .

٧٢ ـ راندل ، السر جورج :
Rendel Sir George. :

من ضمن أوراق راندل مذكرة كتبها عندما كان سكرتيراً أول في المفوضية البريطانية في أثينا في اليونان خلال الحرب العالمية الثانية عنوانها «ملاحظات حول مساهمات اليونان المقترحة خلال الحرب» . كذلك بعض المقترحات لموضوع تعديلات في الحدود العراقية السورية ١٩٢٩ ـ ١٩٣١ . وموضوع أخر حول المملكة العربية السعودية خلال فترة الثلاثينات ، ومسألة انتقال الوكالة البريطانية من بوشهر الى البحرين فضلاً عن موضوعات أخرى تتعلق بالكويت .

٧٣ ـ رنتون ، ميجر جنرال ، جي. م. ل. :
Renton Maj. Gen J. M. L. :

تتضمن أوراقه الخاصة مواد حول الأثوريين وقوات الليفي في العراق وكذلك معلومات عن تطور الجيش العراقي ١٩٣٥ ـ ١٩٥٤ .

٧٤ ـ رولات ، السر فردريك :
Rowlatt, Sir Frederick :

في أوراقه الخاصة محاضر إجتماع مع التجار البريطانيين في الاسكندرية عام ١٨٦٤ مع خارطة للأضرار التي لحقت بالبيوت اثناء عمليات قصف مدينة الاسكندرية في عام ١٨٨٢ . رسائل عن تعيينه نائباً للحكومة المصرية وحاكماً للبنك الوطني في مصر عام ١٨٩٨ . رسالتان من اللورد كرومر تاريخهما عام ١٩٠٦ مع نسخة مصورة لخارطة توضح فيها الأحياء السكنية في الجزيرة والقاهرة مع أسماء الساكنين وأعمالهم (١٩١٧) .

٧٥ ـ صاموئيل ، هربرت :
Samuel, Herbert L.:

معظم أوراق صاموئيل تتعلق بفلسطين ومستقبلها ، وعد مكماهون للشريف حسين ، الصهيونية ومشاريعها الاستيطانية في فلسطين ١٩١٤ ـ ١٩٣٩ . كذلك في أوراقه مراسلات مع اللورد كرزن وغيره حول مواضيع تتعلق بالقومية العربية فضلاً عن الأقطار العربية المجاورة لفلسطين ، الفرنسيون في سوريا .... الخ .

٧٦ ـ سبيرس ، الميجر جنرال ، السر ا. ل. :
Spears, Maj. Gen. Sir E.L. :

تشتمل أوراق سبيرس على مواضيع متعددة منها على سبيل المثال وثائق حول مهمته في سوريا ولبنان ١٩٤١ ـ ١٩٤٤

ومن ضمنها مراسلات مع تشرشل وإيدن . محاضر ومذكرة حول اللجنة السورية عام ١٩٤١ ومواد مختلفة حول الأزمة الدستورية في لبنان عام ١٩٤٣ والعلاقات البريطانية ـ الفرنسية في كل من سوريا ولبنان . تسويات ما بعد الحرب ومواد حول فلسطين من ضمنها مواد عن لجنة التحقيق الانجلو ـ أمريكية (١٩٤٦) وتقرير الكونت برنادوت الى هيئة الأمم ١٩٤٨ . مراسلات شخصية مع الساسة العرب ومع الساسة الغربيين حول فلسطين ، الصهيونية وشئون الشرق الأوسط بشكل عام .

٧٧ ـ سايكس ، السير مارك :

Sykes, Sir Mark :

أربع بكرات مايكروفيلم مع نسخ مصورة للوثائق المرقمة من ١ ـ ١٣٠ تشتمل على مواد حول الثورة العربية ١٩١٥ ـ ١٩١٦ واتفاقية سايكس ـ بيكو ١٩١٦ واحتلال بغداد عام ١٩١٧ واتفاقيات تخص آسيا الصغرى ومواضيع أخرى عن الصهيونية والتسويات في فلسطين ١٩١٧ ـ ١٩١٩ .

٧٨ ـ تيجارت ، السر تشارلز :

Tegart, Sir Charles :

ان معظم أوراق تيجارت ذات طبيعة أمنية منها تعليمات الدفاع عن فلسطين ١٩٣١ ، ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ وتعليمات للطوارىء عام ١٩٣٦ ويوميات ١٩٣٧ ـ ١٩٣٨ . أوراق حول الشرطة وشئون الأمن في فلسطين ١٩٣٧ ـ ١٩٣٩ . مواد أخرى حول لجنة اللورد بيك ولجنة وودهيد . أوراق حول الثورة الفلسطينية ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ومن ضمنها التقارير اليومية للتحقيقات الجنائية حول الأحوال العامة في المناطق الريفية وفي المدن وكذلك مواد حول الجمعيات والأشخاص البارزين .

٧٩ ـ طيباوي ، عبد اللطيف :

Tibawi, Abdul-Latif :

رسالتان مطبوعتان من بطريارك القدس وانطاكية (١٨٨٧) ، خارطة الأقسام الادارية لسوريا (الكبرى) ١٩١٤ ، الثورة الفلسطينية عام ١٩٣٦ مع بيانات القاوقجي الأول والثالث . مجموعة مقالات ورسائل ومقتطفات صحفية مع بيان عنوانه : «مراسلات حسين تويدي اوين مكماهون» أو : «فلسطين كانت ضمن وعود بريطانيا عام ١٩١٥ المتعلقة باستقلال العرب ، يافا ، ١٩٣٩ . تقرير حول التعليم في سوريا من شباط ١٩٤١ الى تشرين الأول ١٩٤٥ .

٨٠ ـ تويدي ، أوين :

Tweedy, Owen :

يوميات تغطي الفترة ١٩٢٦ ـ ١٩٥٢ وتشمل أحوال مصر والشرق الأوسط بشكل عام : ١٩٢٦ ـ ١٩٢٧ ، ١٩٢٩ ـ ١٩٣٠ ، ١٩٣٠ ـ ١٩٣١ ، ١٩٥١ ـ ١٩٥٢ ، فلسطين ، قبرص ، أريتريا ، جدة ، ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩ روسيا ، ١٩٣٣ ألمانيا .

٨١ ـ وثائق الدبلوماسية الأمريكية :

U. S. Dept of State :

ملفات وزارة الخارجية الأمريكية

المتعلقة بالشئون الداخلية في العراق ١٩٣٠ ـ ١٩٤٤ وهي في (١٨) مايكروفيلم .

٨٢ ـ وترفيلد ، جوردون :
Waterfield, Gordon :

نسخ من وثائق وزارة الخارجية البريطانية (F. O.) تتضمن معلومات عن فارس ١٩٢٠ ـ ١٩٢٦ مصر ١٩٢٩ ـ ١٩٣٦ ، تركيا ١٩٣٣ ـ ١٩٣٨ ، إيطاليا ١٩٣٩ ـ ١٩٤٠ . ونسخا لرسائل عددها ست من جرترود بيل الى برسي لورين ١٩٢١ ـ ١٩٢٣ .

٨٣ ـ وينجت ، السر رونالد :
Wingate, Sir Ronald :

التصريح البريطاني لكانون الأول ١٩١٤ والمتعلق بعزل خديو مصر وتأسيس الحماية البريطانية في مصر . محاضرة عن خدماته للفترة بين ١٩١٧ ـ ١٩٢٢ في العراق وجنوب شرقي الجزيرة العربية . أوراق عن خدمته في مسقط ١٩١٩ ـ ١٩٢٢ وفي العراق عام ١٩٢٠ .

٨٤ ـ ييل ، وليم :
Yale, Willam :

مايكروفيلم ونسخ مصورة لتقارير من القاهرة والقدس ولندن ... الخ تغطي الفترة بين عامي ١٩١٧ ـ ١٩١٨ وكذلك مؤتمر الصلح في باريس ١٩١٩ وأوراق عن تعيينه في القاهرة ١٩١٧ . رسالة من اللورد اللنبي تاريخها ١٩١٩/١/٢٨ ومقابلات في لندن ١٩١٩ ومراسلات تتعلق بفلسطين ١٩٢٠ ـ ١٩٥١ ومراسلات مع اليزابيث مونرو خلال الستينات .

٨٥ ـ يونج ، السر هيوبرت :
Young, Sir Hubert :

رحلة عبر الأمبراطورية العثمانية ١٩١٢ وأوراق حول خدماته في الشرق الأوسط ١٩١٧ ـ ١٩٢٢ وبشكل خاص في العراق وتشتمل ايضاً على حملة الاشراف ١٩١٧ ـ ١٩١٨ وبعض الأوراق حول مستقبل فلسطين .

التعريف ببعض أصحاب الأوراق الخاصة :

١ ـ ادمسون ، ريتشارد :

رجل أمن بريطاني إشتغل في مؤسسات الشرطة البريطانية في كل من مصر وفلسطين خلال عشرينات هذا القرن . وقد عكس في أوراقه الخاصة وجهة النظر البريطانية حيال الثورة المصرية عام ١٩١٩ والثورة الفلسطينية عام ١٩٢٠ .

٢ ـ اللنبي ، السر ادموند : (١٨٦١ ـ ١٩٣٦) :

مارشال انجليزي ، قاد القوات البريطانية في كل من مصر وفلسطين ١٩١٧ ـ ١٩١٨ . وعين مندوباً سامياً في مصر معاصراً لسعد زغلول .

٣ ـ انطونيوس ، جورج :

من المثقفين العرب ومن أصل فلسطيني . تولى سكرتارية الوفد العربي في مؤتمر المائدة المستديرة المتعلق بالقضية الفلسطينية عام ١٩٣٩ . من

مؤلفاته البارزة كتاب «يقظة العرب» الذي ترجم وأعيد طبعه عدة مرات.

٤ ـ بلفور آرثر (١٨٤٨ ـ ١٩٣٠)

سياسي بريطاني ترأس الوزارة ١٩٠٢ ـ ١٩٠٥ كان وزيرا للخارجية ١٩١٦ ـ ١٩١٧ اشتهر بوعده المشئوم الذي وعد فيه الصهاينة بإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.

٥ ـ باربور نيفل :

إذاعي وصحافي بريطاني. له مقالات متعددة حول فلسطين وأطماع الحركة الصهيونية : له كتاب مطبوع باللغة الانكليزية عن تاريخ القضية الفلسطينية عنوانه : Nisi Dominus : Asurvey of fhe Palestine Controveisy, (London, 1946) :

٦ ـ بيرنك، إفلين :

وهو اللورد كرومر الذي تحكم بأحوال مصر في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى.

٧ ـ بيل، جرترود :

اشتهرت بالمس بيل. أصبحت في عام ١٩١٥ موظفة في المكتب العربي في القاهرة بصفة مترجمة وعميلة للمخابرات البريطانية. وفي السنة التالية التحقت بالقوات البريطانية في العراق. توفيت عام ١٩٢٦ بعد أن لعبت دوراً بارزاً في أحوال العراق السياسية من مؤلفاتها المطبوعة :

1 - Desert and the Snow (London, 1907)

2 - The letters of Gertrude Bell (London, 1927).

٨ ـ بنتوج، نورمان :

عمل مستشاراً قانونياً لدى حكومة الانتداب البريطانى في فلسطين للفترة ١٩٢١ ـ ١٩٢٩ ونقلت خدماته الى أثيوبيا خلال الحرب العالمية الثانية.

٩ ـ بومان، هـ. ي :

كان مسئولاً عن أحوال التعليم في العراق خلال ١٩١٧ ـ ١٩٢٠. وقدم معلومات مهمة عن تطور التعليم في فلسطين الى لجان التحقيق التي كانت قد شكلت لدراسة عوامل الصراع على الأرض الفلسطينية.

١٠ ـ كلايتون، السر جلبرت :

أصبح مندوباً سامياً في العراق في أزار ١٩٢٩. كان عضواً في مؤتمر جدة الذي عقد للنظر في العلاقات العراقية ـ السعودية. كما أنه إشتهر بنشاطاته الاستخبارية في المكتب العربي في القاهرة في بداية الحرب العالمية الأولى، وأصبح فيما بعد ضابط الارتباط في الشام.

١١ ـ كورنواليس، السر كنهان :

من خبراء بريطانيا في الشرق الأوسط ومن رجال وزارة الخارجية البريطانية البارزين. عرف بعلاقاته غير الودية والمعادية لرجال ثورة مايو ولحكومة رشيد عالى.

١٢ ـ كننجهام، السر ألن :

أصبح مندوباً سامياً في فلسطين خلال ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨. وفي أوراقه الخاصة معلومات مهمة عن القضية الفلسطينية والمدخولات حولها خلال هذه الفترة.

١٣ ـ ديدس ، ويندهام :

أصبح مديراً للأمن في مصر ١٩١٩ ـ ١٩٢٠ ثم إنتقل بعد ذلك الى فلسطين عام ١٩٢٠ ـ ١٩٢٣ . وقد اشتهر بدعمه للصهيونية ولنشاطاتها العدائية .

١٤ ـ ديلاني ، جيرالد :

من رجال بريطانيا البارزين وخبرائها عن مصر في فترة مابين الحربين . ترك أوراقا شخصية تضمنت معلومات مهمة عن مصر ورجالاتها .

١٥ ـ ديكسون ، هـ. ر. ب. :

كانت خدماته تابعة الى حكومة الهند . ترك تقارير ورسائل وبيانات غاية في الأهمية عن العراق ومدنه وعن بلدان الخليج العربي . له كتاب مطبوع عنوانه :

Kuwait and her Neighbours (London, 1968).

١٦ ـ داوسن ، السر أرنست :

خبير الأراضي المشهور الذي درس موضوع ضرائب الأرض في فلسطين ، كما ترك كتابا مترجما عنوانه : بحث في كيفية التصرف بالأراضي والمسائل المتعلقة بذلك (بغداد ، ١٩٣٢) .

١٧ ـ شركة كري ـ مكنزي :

شركة للملاحة إستأثرت بالملاحة في دجلة والفرات ولها فرع في البصرة . وفي أوراق الشركة الخاصة معلومات تجارية وملاحية مهمة .

١٨ ـ أدموندز ، سي. جي. :

من رجال بريطانيا الذين شغلوا وظائف مهمة في العراق ولاسيما خدمته الطويلة مستشاراً في وزارة الداخلية . وكون علاقات متينة مع ساسة العراق ورجالاته . وكانت لتقاريره عن أوضاع العراق أهمية إستثنائية ، كما ترك بعض المؤلفات المطبوعة منها :

Kurds, Turks and Arabs, (London, 1957)

١٩ ـ هيننج ، ليوتانت. جنرال. ر. هـ. :

قائد عسكري بريطاني خدم في فلسطين وشرقي الأردن في الفترات الحرجة التي سبقت قيام الحرب العالمية الثانية . وكانت لتقاريره العسكرية أهمية بالغة لدى أصحاب القرار في الوزارة البريطانية .

٢٠ ـ هينسي ، أ. س. ف. :

خبير بريطاني ساهم مع لجنة التحقيق الانجلو ـ أمريكية حول فلسطين عام ١٩٤٦ .

٢١ ـ هربرت ، ميرفين :

من رجال وزارة المستعمرات البريطانية إشتغل في مصر وترك يوميات مهمة عن أحوال مصر للفترة من ١٩١٢ ـ ١٩٢٣ .

٢٢ ـ هوجارت ، د. جي. :

من العناصر البريطانية التي إشتغلت في المكتب العربي في القاهرة خلال سنوات الحرب العالمية الأولى . وكون علاقات وطيدة مع كثير من البريطانيين الذين إشتغلوا في الشرق الأوسط في فترة الحرب العالمية الأولى . كما ترك بعض المؤلفات المطبوعة منها :

Arabia (Oxford, 1922).

The Penetration of Arabia — a record of the development of Western knowledge concerning the Arabian Peninsula (London, 1905)

٢٣ ـ هولدين ، أندرو :

من خبراء الأرض الذين إشتغلوا في مصر . وتعتبر نشاطاته مشابهه لأعمال ومشاريع أرنست داوسن في العراق .

٢٤ ـ هورنسبي ، السر برترام :

خدم في مصر خلال أعوام ١٩١٥ ـ ١٩١٩ ولاسيما في الجهاز العسكري وقد ترك في أوراقه الخاصة معلومات مفيدة جداً عن الثورة المصرية لعام ١٩١٩ والعلاقات البريطانية المصرية خلال فترة اللورد اللنبي واللورد لويد .

٢٥ ـ انجرامس ، وليم هارولد :

ترك أوراقا مهمة عن أحوال اليمن وحضرموت وعدن غطت فترة الأربعينات والخمسينات والستينات لأغراض استخدامات وزارة الخارجية البريطانية . فضلاً عن التقارير الاستخبارية للفترة من عام ١٩٣٥ ـ ١٩٤٤ . وله كتاب مطبوع عنوانه :
Arabia & the Isles (London, 1943)

٢٦ ـ جاردن ، ليونيل :

من خبراء الملاحة الذين عملوا ضمن بعثة الفرات الاستكشافية . وقد ترك أوراقا احتوت على معلومات وبيانات مهمة عن العراق خلال الحرب العالمية الأولى بعنوان : قراءة في الادارة المدنية لبلاد مابين النهرين عام ١٩٢٠ .

٢٧ ـ القدس والبعثة الشرقية :

وهي بعثة تبشيرية لها فروع في بلدان الشرق الأوسط وفي أوراقها ملفات وسجلات وبيانات واحصاءات تغطي الفترة من ١٨٤١ الى ١٩٧٠ وتشمل البلدان التالية : فلسطين وسوريا والعراق والأردن وإيران وبلدان الخليج العربي ومصر والسودان وقبرص .

٢٨ ـ كيون ، بويد . السر أ . :

من خبراء بريطانيا عن مصر وله عنها أوراق مهمة غطت فترات متفرقة ، لعل أبرزها تلك الرسائل للفترة من نيسان ١٩٥١ وتموز ١٩٥٣ .

٢٩ ـ لامبسون ، مايلز :

من رجال وزارة الخارجية البريطانية المشهورين كان مندوباً سامياً في مصر خلال أحرج السنوات التي سبقت الحرب العالمية الثانية وفي اثنائها . وقد كان لتقاريره المستمرة الى وزارة الخارجية البريطانية أبلغ الأثر على توجيه السياسة البريطانية وعلى اصحاب القرار في الخارجية ولاسيما فيما يتعلق بموضوع القضية الفلسطينية وصدور الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩ .

٣٠ ـ لورنس ، ت. أ. :

من رجال الاستخبارات البريطانية الذين لعبوا دوراً مهماً قبيل الحرب العالمية الأولى وفي إثنائها . وفي أوراقه الخاصة معلومات وبيانات مهمة عن الثورة العربية الكبرى . ومن مؤلفاته المطبوعة : Seven Pillars of Wisdom, (London, 1952)

٣١ ـ لي ري ، هـ. ج. :

إشتغل لدى حكومة فلسطين خلال فترة العشرينات والثلاثينات خبيراً في الأراضي والزراعة والمساحة . وفي أوراقه معلومات مهمة عن مشكلة الأراضي في فلسطين خلال فترة الانتداب .

٣٢ ـ لودر ، جي. دي ڤيري :

في أوراقة الخاصة معلومات عن فلسطين وعن الحركة الصهيونية ورجالاتها . كما أن له كتاباً مطبوعاً عنوانه : The truth about Mesopotamia, Palestine * Syria (London, 1923).

٣٣ ـ ليوك ، السر هاري. سي. :

من رجال وزارة المستعمرات البريطانية إشتغل في قبرص وفلسطين والعراق في فترة مابين الحربين العالميتين . كما أنه ترك كتاباً مطبوعاً عن الموصل عنوانه : Mosul and its Minorities (London, 1925)

٣٤ ـ ماكليفري ، السر دونالد :

إشتغل لدى حكومة فلسطين ضمن ملاكات وزارة المستعمرات البريطانية . وفي أوراقه الخاصة معلومات مهمة عن فلسطين لاسيما عن الثورة الفلسطينية لعام ١٩٣٦ وعن أوضاعها خلال أعوام ١٩٤٤ ـ ١٩٤٨ .

٣٥ ـ مينرتز هاكن ، كولونيل ر. :

عمل ضابطاً سياسياً في سوريا لجليبرت كلايتون خلال أعوام ١٩١٨ ـ ١٩٢٠ . وله كتاب مطبوع عنوانه . Middle East Diary 1917 — 1956 (New York, 1960)

٣٦ ـ مونرو ، اليزابيث :

صحفية بريطانية وكاتبة متخصصة في شئون الشرق الأوسط ضمن ملاك جريدة التايمس البريطانية . لها مؤلفات مطبوعة كما أن في أوراقها الخاصة معلومات مهمة عن العراق وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر والمملكة العربية السعودية خلال فترات الأربعينات والخمسينات والستينات .

٣٧ ـ موت ، رادكليف ، تشارلز :

عسكري بريطاني برتبة عالية ضمن التشكيلات البريطانية في منطقة قناة السويس . في أوراقه الخاصة نقل الانطباعات التي تولدت لديه عندما قابل كلا من جمال عبد الناصر ومحمد نجيب في مايو ١٩٥٤ .

٣٨ ـ نالدر ، أل. ف. :

من ملاك المقيمية البريطانية في بغداد في فترة الانتداب ١٩٢٠ ـ ١٩٣٢ . ترك معلومات قيمة عن الموصل والحدود ومعاهدة ١٩٢٧ فضلاً عن التقارير الادارية لولاية الموصل من ١٩١٩ الى ١٩٢١ .

٣٩ ـ برون ، ستيوارت :

من ملاك حكومة فلسطين . سجل إنطباعاته ومذكراته عن أحوال فلسطين للفترة من ١٩٢٥ ـ ١٩٣٤ بضمنها معلومات عن حائط المبكى وثورة عام ١٩٣٣ . ثم نقلت خدماته الى العراق في السنوات ١٩٤١ ـ ١٩٤٧ .

٤٠ ـ فيلبي ، هـ. ست. جي :

من الشخصيات البريطانية البارزة

ترك بعض الذكريات عن خدماته في العراق خلال العشرينات ثم انتقاله الى المملكة العربية السعودية حيث بقي ملازماً للملك عبد العزيز آل سعود لسنوات طويلة . وتعتبر أوراقه الخاصة غنية جداً لما حوته من معلومات تتعلق بالأردن والعراق وفلسطين والسعودية ولتغطيتها فترة زمنية طويلة إمتدت من ١٩١٥ الى ١٩٥٧ . وله بعض المؤلفات المطبوعة منها : Arabia of the Wahhabis (London, 1928)

٤١ ـ راپ ، السر توماس :

من موظفي وزارة الدفاع البريطانية الذين عملوا في قناة السويس لفترة طويلة من العشرينات وحتى الخمسينات .

٤٢ ـ راندل ، السر جورج :

من رجال وزارة الخارجية البريطانية البارزين وقد شغل مسئولية الدائرة الشرقية في الوزارة المذكورة خلال فترة الثلاثينات . وكانت علاقته مع وزير الخارجية البريطاني (السر انطوني ايدن) والسفير البريطاني في القاهرة (السير مايلز لامبسون) قد امتازت بالتفاهم والانسجام والاحترام . وتعتبر أوراقه الخاصة في مركز الشرق الأوسط من الوثائق المهمة التي يعول عليها كثيراً .

٤٣ ـ رنتون ، ميجر جنرال :

شغل وظيفة المفتش العام في الجيش العراقي وكان رئيساً للبعثة العسكرية البريطانية في العراق . وتشكل أوراقه الخاصة مادة أساسية لمن يريد الكتابة عن تطور الجيش العراقي .

٤٤ ـ رولات ، السر فردريك :

من العناصر البريطانية التي أسهمت في تعزيز النفوذ البريطاني في مصر عبر النشاطات الاقتصادية . وكان شاهد عيان لأحداث ضرب الأسكندرية عام ١٨٨٢ وعلى أثر موقعة التل الكبير . ويبدو أنه كان مهتماً بالأحوال الديموغرافية في كل من القاهرة والأسكندرية .

٤٥ ـ صاموئيل ، هربرت :

أول مندوب سام في فلسطين خلال العشرينات من هذا القرن في أوراقه الخاصة معلومات قيمة تتعلق بمراسلات حسين ـ مكماهون . كذلك مقترحات عدة لوضع حلول للمشكلة الفلسطينية ومراسلاته مع الزعماء العرب بصددها .

٤٦ ـ سبيرس ، الميجر جنرال :

كان سفيراً لبريطانيا في سوريا ولبنان خلال سنوات الحرب العالمية الثانية . ولأوراقه الخاصة أهمية إستثنائية لتنوعها وشمولها لمعلومات عديدة تخص سوريا ولبنان . ويبدو أن لا أحد يستغني عن مراجعة هذه الأوراق فيما لو تصدي لدراسة موضوع استقلال سوريا ولبنان .

٤٧ ـ سايكس ، السير مارك :

صاحب اتفاقية سايكس ـ بيكو السيئة الصيت . وقد نقل في أوراقه الخاصة بعض المعلومات عن التسويات الشرق أوسطية في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

٤٨ ـ تيجارت ، السر تشارلز :

من موظفي الحكومة البريطانية في

فلسطين . وقد شغل مسئوليات أمنية في فلسطين في فترة الثلاثينات . ومعظم أوراقه الشخصية ذات طبيعة أمنية تخدم وجهة النظر البريطانية .

٤٩ ـ طيباوي ، عبد اللطيف :

من المثقفين العرب . له مؤلفات مطبوعة عن سوريا ولبنان وفلسطين . وفي أوراقه الخاصة معلومات مفيدة جداً فيما يتعلق بمراسلات حسين ـ مكماهون وكذلك تقرير مهم عن أحوال التعليم في سوريا خلال أعوام من ١٩٤١ الى ١٩٤٥ .

٥٠ ـ وثائق الدبلوماسية الأمريكية :

تتضمن ملفات وزارة الخارجية الأمريكية على شكل مايكروفيلم وعددها (١٧) تخص الشئون الداخلية في تركيا بين عامي ١٩١٠ ـ ١٩٢٩ . و (١٨) تخص الشئون الداخلية في العراق بين عامي ١٩٣٠ ـ ١٩٤٤ . من ضمنها مراسلات نابنشو الى وزارة الخارجية الأمريكية أثناء ثورة مايو ١٩٤١ .

٥١ ـ وينكت ، السر رونالد :

في بداية الحرب العالمية الأولى كان ممثلاً للحماية البريطانية في مصر . وفي أوراقه الخاصة معلومات عن خدماته في مصر والعراق وجنوب شرقي الجزيرة العربية التي غطت السنوات من ١٩١٤ الى ١٩٢٢ .

٥٢ ـ يونج ، السر هيوبرت :

من رجال بريطانيا الذين اشتغلوا في أجهزة استخباراتها في القاهرة في بداية الحرب . وكان على علاقة وثيقة مع بعض الساسة والزعماء العرب . تنقل في الحجاز والعراق وفلسطين . وله مؤلفات مطبوعة منها : Independent Arab (London, 1933)

الخاتمة :

ذكر أحد الباحثين المتخصصين في صدد كلامه عن الوثيقة التاريخية وأهميتها قائلاً بأن الوثائق هي «مادة التاريخ وأهم مصادره المعتمدة . فلا تاريخ بدون وثائق . فالوثائق هي ذاكرة الجنس البشري» .

وانطلاقاً مما تقدم أخذت الكثير من الدول في القرن العشرين تتسابق فيما بينها للأهتمام بالوثائق وجمعها ودراستها عبر إنشاء وتأسيس دور الوثائق القومية كعنصر هام من عناصر الثقافة القومية ومستودعاً أساسياً لأدوات البحث التاريخي .

وهكذا وجدنا أنفسنا أمام ظاهرة خلاصتها أن الباحث يواجه في بعض البلدان صعوبة في الحصول على المعلومات نتيجة تعدد مراكز البحث التي تحتفظ بالوثائق وهذا ما يدفعه الى الانتقال من مكان الى آخر مع ما يلاقي في ذلك من متاعب أخرى .

وكانت قد توفرت لكاتب هذا البحث ـ عندما كان يعد أطروحته للدكتوراه ـ فرصة التنقل بين مراكز الوثائق البريطانية سواء المركزية منها في لندن أو تلك الموجودة في الجامعات البريطانية أو في المكتبات

المحلية في بعض المدن . وقد عجب لما شاهده من مادة وثائقية هنا وهناك والنظام الذى تخضع له والأساليب المستخدمة في استخراجها واعتمادها .

ومن هذه المراكز الوثائقية المهمة : مركز الوثائق في جامعة أوكسفورد الذي ، كما ذكر سابقاً ، يحتوى على سجلات وفايلات لأوراق شخصية لبعض الأفراد الذين مارسوا مسئوليات مختلفة في الشرق الأوسط في فترة مابين الحربين العالميتين .

وعليه فإن الباحث في تاريخ العرب الحديث والمعاصر لايمكن أن يلم بحيثيات بحثه دون الرجوع الى هذه الوثائق .

فكثيرون هم أولئك الذين كتبوا عن الثورة العربية الكبرى والمراسلات التي سبقتها والظروف التي أحاطتها والنتائج التي تلتها . ولكن قليلين من أولئك ممن راجع تلك الأوراق الشخصية التي تركها أولئك الرجال الذين عاصروا أحداث تلك الفترة وكان لهم دور مباشر في توجيه السياسة وجهتها التي باتت معروفة لدينا .

وهذا الأمر يصدق على من يكتب عن القضية الفلسطينية والصراع العربى - الاسرائيلي .

إذ كيف يمكن للباحث أن يعطي الموضوع حقه دون مراجعة ودراسة لأوراق أولئك الرجال الذين عملوا في أجهزة سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين للفترة من ١٩٢٠ - ١٩٤٨ ، علماً بأن البعض منهم كان صهيونياً .

وكذلك الحال عند الكتابة عن موضوع الحركة الوطنية في سوريا ولبنان فيما بين الحربين ، حيث تشكل أوراق الميجر جنرال سبيرس مصدراً أولياً حول الموضوع .

وهكذا نخلص الى القول أن الباحث ، أياً كان ، رغم اطلاعه على المادة الوثائقية الموجودة في دار الوثائق العامة في لندن ، تبقي المصادر الوثائقية الأخري المتوفرة في المراكز الأخري تشكل مصدراً أولياً لتعزيز البحث ولسد الثغرات ولدعم الباحث وطروحاته .

الهوامش

١ ـ مصطفى مرتضى الموسوي وآخرون ، الوثائق ، (بغداد، ١٩٧٩)، ص ٨
٢ ـ من عرض للدكتور عبدالجبار ناجي لكتاب « اليمن تحت حكم الامام احمد » الذي حققه ابراهيم الرشيد. انظر مجلة الخليج العربي ، عدد ٢ سنة ١٩٨٨، ص ٢٥٠ .
٣ ـ المعلومات المتعلقة بالتطور التاريخي للاهتمام بالوثائق في بريطانيا مستقاة بشكل اساسي من : سالم عبود الآلوسي ومحمد محجوب مالك، الارشيف : تاريخه، أصنافه ، ادارته (بغداد، ١٩٧٩) .
٤ ـ الآلوسي ومالك، المصدر السابق، ص ٢١ .
٥ ـ ناجي، المصدر السابق، ص ٢٥١ .
٦ ـ أشتهر مركز الشرق الاوسط في جامعة درهام بالدراسات عن السودان ومصر والمغرب، في حين برز مركز الشرق الاوسط في جامعة اكستر بالدراسات عن منطقة الخليج العربي والصراع العربي ـ (الاسرائيلي) .

الأسس الاقتصادية للاستعمار البرتغالي في الخليج العربي

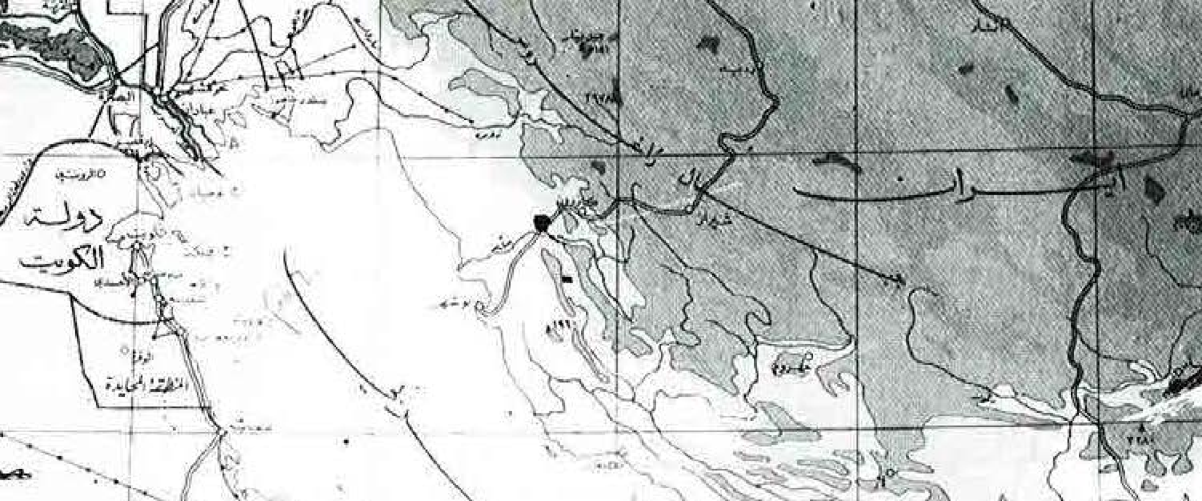
في القرنين السادس عشر والسابع عشر

الدكتور محمد عارف الكيالى

نعتقد ان علماء التاريخ سيرحبون جدا عندما تختلط دراساتهم التاريخية لاى حدث، بالعوامل والاسباب الاقتصادية له. ورغم اننا لن نذهب وننحو منحى الاخرين فى اعتبار العامل الاقتصادى هو العامل الوحيد فى تفسير التاريخ . لكنه بالمقابل يبقى عاملا عريضا وكبيرا ولا يمكن تجاهله فى اية دراسة جادة وموضوعية .

والاستعمار كظاهرة اقتصادية سياسية استيطانية، وبشكليه القديم والحديث، مهما ادعى اصحابه ومؤيدوه من ان غرضه الأساسي كان دينيا تبشيريا او ثقافيا تعليميا او حضاريا فانه فى التحليل الاخير خارج كل ذلك. انه تحويل للريع وفائض القيمة من الاطراف الى المركز عبر آليات السيطرة المنظمة والمدعمة بالقوة العسكرية والاعمال الهمجية الوحشية. والاستعمار البرتغالى للخليج العربى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر لا يخرج عن هذا الاطار .

ولكى يبرر الاستعمار نهبه هذا فلا بد ان يستخدم ويستند على ثقافة معينة يدعم بها توجهاته. فلقد استغل العواطف البريئة لدى الجماهير



والعامة من الناس تارة باسم الدين وتارة باسم الثار.. من اجل ان يغطى اهتماماته بالايرادات والنفقات تلك الاهتمامات التى كانت اكثر بكثير من اهتمامه بنشر التعاليم المسيحية او القيم الغربية.

ان طرح مثل هذا الموضوع القديم - في رأيي - في هذا الوقت بالذات له اكثر من اهمية ودلالة. وربما ياتى على قمتها، ان الحوادث التى جرت في الخليج قبل نحو خمسة قرون تتكرر اليوم تقريبا ولو كانت بصورة اخرى. ومن هنا فان الدراسة الموضوعية للاستعمار البرتغالى فى الخليج تفيد أطرافا متعددة فى وطننا العربى. فالوقوف على الماضى يقدم لنا زادا دسما يغذى عقولنا فى تجنب أخطائه والتسلح بعبره.

ان اساطيل البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والانكليز والتى شكلت الموجة الثالثة للاستعمار الغربى للشرق، تعود اليوم للخليج العربى، بشكل اساطيل امريكية وانجليزية وفرنسية وغيرها. والصراعات القديمة بين الاتراك والفرس والعرب، تعود اليوم فى صراعات اقليمية، بل فى حرب طاحنة بين العراق وايران. مع وجود اكثر من عامل يطوى تحت لوائه اهل المنطقة فى

مواجهة الاخطار الاجنبية الخارجية الكبرى، والتى تتخذ احيانا صفة صليبية الى جانب اهدافها الاقتصادية الاساسية . ان عدم ايقاف الحرب بين دولتين جارتين مسلمتين مهما كانت مبرراته يصب في النتيجة في طاحونة اعداء الامة العربية والاسلامية على السواء .

كان الاساس الاقتصادى للاستعمار البرتغالى ينصب على عنصرين، هما جلب المواد الاولية بما فيها المعادن (الذهب والفضة واللؤلؤ) وتامين سوق لتصريف الفائض من البضائع الاوروبية.. كل ذلك مع احتكار الموقع الجغرافى المتميز للخليج وبالتالى احتكار طرقه التجارية مع الهند شرقا وافريقيا واوربا غربا .

وهذا هو المحور الاساسى الذى انصب عليه الجهد الاساسى فى هذا البحث. ولا بد من الاشارة الى الصعوبات الجمة التى صادفت الباحث. واولها عدم توافر المصادر عن هذا الموضوع القديم. ان الدراسات القديمة وبالاخص العربية كانت تركز على الجوانب التاريخية والحربية، وتغفل تماما الجوانب الاقتصادية رغم اهميتها القصوى.. وربما يعود ذلك الى عدم ظهور علم الاقتصاد آنذاك بهذا المفهوم اليوم اولا.. وثانيا ان العوامل الدينية والمعنوية والقيمية كانت تاخذ حيزا كبيرا في وعي وادراك الاقدمين اكثر من العوامل المادية والاقتصادية.

التقويم التاريخى للعامل الاقتصادى :

ان تفوق الغرب الاقتصادى الحالى على الشرق لا يزيد عمره عن بضع مئات من السنين ، وهى فترة لا تكاد تبلغ الا كسرا عشريا فى التاريخ المدون للانسانية، اما تفوق اهل الشرق وبخاصة العرب فانه يرجع الى بضعة الاف من السنين قبل الميلاد. ويبرز هذا التفوق فى العصر الوسيط ابان الزخم الاسلامى، اذ تمكن العرب بهدى الدين الاسلامى الحنيف ان يكونوا امة تمتد من خليج بسكاى الى دلتا السند، وان يقربوا بين الشرق والغرب الى حد لم يكن معروفا حتى ذلك الحين. وساهموا بشكل فعال فى الحركة التجارية التى امتدت الى كوريا وارخبيل الهند من ناحية وجنوب شرق افريقيا واوربا والبحر البلطيقى من ناحية اخرى (١).

ان نصيب اوروبا في التجارة الدولية في العصر الوسيط كان دون شك متواضعا للغاية ، اذ قل سكانها وضعف انتاجها . وتقلصت حضارتها لتصبح حضارة ريفية قائمة على الاقطاع واذا كانت الجماهير

الاوروبية لم تستهلك الا ما تنتجه في ارضها . فان الصفـوة من اهل السياسة والعلم والقوة فيها كانت تشتري منتجات الترف للمساكن والملابس من الشرق . فلم تخل المساكن والحصون الاوروبية من تأثير الشرق العربي عليها سواء في المواد الاولية او الهندسة المعمارية ، كما ان السيوف الفرنسية والصقلية كانت تتفوق على نظيراتها عندما كانت تصنع على الطراز الشرقي ، ان اميرات اوروبا كن يتباهين بلباسهن الدمسقي (نسبة الى دمشق) والموسلينى (نسبة الى الموصل) . واذا اضفنا الى ذلك كله وصول العرب المسلمين الى الاندلس وبقاءهم هناك قرونا عديدة ونقلهم الحضارة الشرقية عامة والاسلامية خاصة بما فيها علوم الطب والهندسة والفلك والكيمياء.. الخ لادركنا كم استطاع الشرق الاسلامى العربى ان يربط اوروبا به لا سياسيا وحسب بل واقتصاديا[٢].

وليس من الصدفة ان تكون المدن الاوروبية على ساحل البحر المتوسط وبالاخص الايطالية نصف الشرقية ، التي لم تهدأ قط طيلة العصور الوسطى مثل البندقية وسـالرنـو وفينيسيا .. في مقدمة العوامل التي ادت الى النهضة الاقتصادية في الغرب منذ اواخر القرن العاشر الميلادي[٣] .

ان الحروب الصليبية التي شنتها اوروبا على العالم العربي الاسلامي طيلة مائتي عام ، لم تكن باهدافها المعلنة الدينية ، وانما في جوهرها ، تحويل للريع الذي ينتجه الفلاحون العرب الى رجال الاقطاع الأوروبيين تحت حجج ومزاعم دينية زائفة .

وبعد هزيمة الصليبيين ، ادرك بعض رجال الفكر والسياسة الاوروبيين اعتماد الدول الاسلامية والعربية في الشرق على تجارة الهند لذا وضعوا اقتراحات وخططا معينة لتدميرها (ان مارينو سانيتو (Marino Sanuto) اقترح حلفا مع (Tortary dnubia) وبناء اسطول في المحيط الهندي للسيطرة على جزره وسواحله ، في حين نـاضـل غليـوم ادم (Gilloum Adam) من أجل بناء اربع سفن ضخمة في هرمز لتقفل البحر الاحمر من جزيرة سوقطره معتمدا على مساعدة الغرب والمسيحيين له[٤] .

ان مثل هذه الاعمال تضمن للغرب عدة فوائد في آن واحد : فأولها انها تصل الى المواد والسلع التي تحتاجها دوله من الهند والارخبيل الاندونيسي والشرق الاقصى ، دون وساطة العرب وثانيها ، تضعف العرب والمسلمين عن طريق قفل باب التجارة ومصدر الرزق الاساسي لهم ، وثالثها ، تؤمن اسواقا لتصريف منتجات الغرب الفائضة ، بعد ان بدأت بشائر نظام الانتاج الرأسمالي تحل محل نظام الانتاج الاقطاعي في أوروبا بدءاً من القرن الخامس عشر .

ان سيطرة البرتغال على المحيط الهندي والخليج العربي تندرج تحت

هذا الاطار ، ولم يكن عملا ترفيا او استكشافيا او مجرد مغامرة بعض الملاحين .

ان الاستعمار البرتغالي وهو باكورة الاستعمار في العصر الحديث كان نتيجة لتحضيرات طويلة وخطط متقنة وناضجة محكومة بظروف موضوعية .. ورغم ان التحرك الاستعماري البرتغالي الى المنطقة العربية كان هو الاخر بحجج دينية والانتقام من العرب المسلمين الذين سيطروا على شبه الجزيرة الايبيرية الا ان الهدف الاساسي للطموحات البرتغالية كان لاحكام السيطرة الاقتصادية واحتكار التجارة الشرقية .

فقبل وصول البرتغاليين كانت تجارة الهند والشرق الاقصى بيد المسلمين واغلبهم من العرب . (من جنوب وغرب الجزيرة العربية وعمان) ، وكانت الطرق التجارية (البحرية والبرية) تمتد من الهند الى هرمز واعالي الخليج العربي ووادي الرافدين وحلب ، او عبر الخليج جنوب وغربا الى عدن وجده والقاهرة وفينسيا . ان اهالي جنوب ايطاليا اشتروا التوابل من الشرق وبيروت والاسكندرية لتوزيعها في اوروبا وموانيء شمال افريقيا واكثر الارباح كانت تجنى من عملية التجارة في المحيط الهندي . وكانت ارباح السلاطين في الخليج العربي وحتى سلاطين مماليك مصر كبيرة ومضاعفة . ومن جهة قدمت التعريفات الجمركية وسائل سهله في جمع عوائد تلك الدول التي فيها موانيء بحرية او محطات لوسائط النقل البري . ومن جهة ثانية جلبت العمل للأعداد الغفيرة من الجماهير الشعبية لتعمل في التجارة والملاحة والنقل وغيرها . ومن جهة ثالثة أمنت الكثير من المواد الغذائية والملابس للعديد من المدن التي كان من الصعب العيش فيها دون تلك التجارة[٥] .

لم يقتصر الامر على سلب العرب تجارتهم عند وصول البرتغاليين الى الاراضي العربية والهند وافريقيا .. انما عملوا على تدمير الحضارة العربية والاسلامية عن طريق تجميد اشكال الانتاج (الصناعة والزراعة) السائدة أنذاك والتي كان بامكانها التطور الى مراحل راقية وصولا الى مجتمعات متقدمة بالمفهوم السائد اليوم . لقد وجد البرتغاليون انفسهم في أراض أكثر غنى من اراضيهم واستطاعوا التعرف على صناعات حرفية راقية . اكبر واهم بكثير من صناعاتهم ، بالاضافة الى ذلك انهم وجدوا ملاحين مهرة من العرب والهنود وعلى رأسهم البحار العربي المشهور (احمد بن ماجد) الذي استعان به فاسكو دي جاما ليعرفه على سواحل شرق افريقيا والمحيط الهندي ويوصله الى مدينة كلكتا[٦] .

الاستعمار البرتغالي :

لقد نجح البرتغاليون في نهاية المطاف في اكتشاف طريق بحري الى الهند يتجنب طرق القوافل القديمة بين البحر المتوسط من جهة والبحر الاحمر والخليج العربي من جهة ثانية ، وانهم كانوا يدعون بانهم يقومون بشيء ذي اهمية بالغة بالنسبة للعالم(٧) .

لاشك ان اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وبعض مناطق امريكا اللاتينية(٨) افاد البشرية ولكن اقامة الحصون والمحطات التجارية على السواحل الافريقية والعربية والاسيوية وتجنيد المرتزقة وقتل الاهالي او ارغامهم على العمل بالسخرة وتهجيرهم واصطيادهم بالقوة خارج القارة الافريقية (تجارة الرقيق) كل ذلك كان من صلب الاستعمار البرتغالي .

ان السبب الموضوعي والاساسي للاكتشافات الجغرافية - كما هو معروف تاريخيا - انغلاق الاقتصاد الاوروبي بعد سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط والبحر الاحمر وبالتالي قطع المتنفس الوحيد على الاوربيين. وكما كانت الحروب الصليبية هي المنفذ الوحيد للاقطاع (الكنسي والاجتماعي) كذلك كانت الاكتشافات - النافذة الوحيدة للاقتصاد الاوروبي وهو يتحول الى الراسمالية على كل حال لقد اطلقت هذه الاكتشافات الجغرافية سلسلة من ردود الفعل الاقتصادية وغير الاقتصادية واحدثت آثارا تراكمية متصاعدة نتج عنها ثلاث نتائج هامة :

١ - تراكم وانتقال كميات هائلة من الذهب والفضة (رأس المال النقدى) بسبب ما فرضه المستكشفون على اهالى المناطق من اتاوات وضرائب، أو ما نهبوه بشكل مباشر من المناجم او الخزائن. وكان هذا النهب احد أهم المصادر الاساسية للتراكم البدائى لرأس المال الذى وفر الظروف المواتية لنشوء الرأسمالية كعملية اجتماعية تاريخية .

٢ - تدويل السوق : لقد حولت الاكتشافات الجغرافية السوق الاقتصادية من وطنية قومية داخلية الى عالمية، لقد حدث اختلال فى هيكل السوق بين قوى العرض المحلية المحدودة وقوى الطلب العالمية المتعاظمة.. فالطلب اصبح عالميا والعرض لا زال محليا قوميا.. وبقى هذا التناقض يتعاظم الى ان وصل الى الذروة، فكان لا بد من حدوث عمل ليحل هذا التناقض فكان نشوء الثورة الصناعية وهذا هو بالضبط سبب نشوء تلك الثورة. التى هى وليدة النظام الرأسمالى وليست خالقة له. انها شرط تاريخى لاعادة النظام الرأسمالى الى التوازن بعد ان اختل. انها حل للصراع بين المنتج والمستهلك بين الطلب (علاقات الانتاج)

والتكنيك (العرض) (قوى الانتاج) .

٣ - والنتيجة الثالثة والتى تخدم غرضنا بالدرجة الاولى، هى نشوء النظام الاستعمارى. وليس من قبيل الصدفة ان تظهر كلمة المستعمر فى القواميس الاجنبية منذ القرن الرابع عشر [٩] . اى على وجه التحديد فى فترة الانتقال التى سبقت قيام المشاريع الاستعمارية الكبرى للدول الغربية (البرتغال واسبانيا وفرنسا وانكلترا وهولندا). كانت الحروب الصليبية فى الواقع قد انتهت منذ عهد قريب، وكانت الاحداث تدفع نحو فترة الكشوف الجغرافية الكبرى، وتضع اوروبا وجها لوجه أمام عالم جديد يصبح مزرعة لها. ان ظاهرة الاستعمار حولت النظام الرأسمالى من نظام مستقل وطنى (يعيش فى مكانه) الى نظام تابع طفيلى يعيش على حساب وحياة الاخرين. ومن هنا وبعد ان اصبح النظام الرأسمالى عالميا فلا يمكن فصله عن مشكلة التقدم والتخلف [١٠] ان هاتين الظاهرتين لا يمكن إدراكهما على حقيقتهما دون الوقوف على ظاهرة الاستعمار .

لقد قام تصنيع اوروبا الذى شجع عليه تراكم الثروات وهو التراكم الذى يعزى فى المحل الأول الى الاستعمار علي شرطين : استيراد المواد الاولية وايجاد منافذ لتصدير فائض الانتاج. فقد كان على الاستعمار منذ تلك اللحظة ان يحل المشاكل التى يثيرها هذان الشرطان. كانت المناطق المستعمرة تقوم بتزويد المواد الاولية الضرورية للصناعات الاوروبية الناشئة والمتطورة وتستخدم فى الوقت نفسه كاسواق لفائض الانتاج الاوروبى. ولم تكتف الدول الاستعمارية بذلك بل كان لا بد من ثقافة معينة تدعم هذا التوجه مع اجراءات عملية. لكى تبرر الدول المستعمرة أعمالها البشعة ضد سكان المستعمرات، فكانت تثقف شعوبها على ان عملها هذا هو مجرد ثأر للفتوحات الاسلامية فى القرنين السابع والثامن الميلاديين ، والعرب فى رأيهم قد توسعوا فى الحد الغربى وفتحوا شبه جزيرة ايبيريا واستعمروها. وها هم اليوم (البرتغاليون) يهاجمون شواطىء الجزيرة العربية نفسها، بل ويهددون اقدس الاماكن الاسلامية (مكة المكرمة) ويخضعون الامراء العرب والمسلمين على السواء فى هرمز ومسقط وملقا [١١] .

ان مثل هذه الادعاءات لا تحتاج فى تفنيدها الى عناء كثير. فالعرب المسلمون عندما دخلوا شبه الجزيرة الأيبيرية وجنوب ووسط فرنسا، فانهم حرروا سكانها من الظلم والاضطهاد ونشروا علومهم ودينهم الحنيف، واقاموا العدل فى الارض. ولقد سار العرب المسلمون فى فتح الاندلس على مبدأ تقسيم الاقطاعيات والاراضى الزراعية بين فلاحيها الذين كانوا

محرومين من تملك الارض فى عهد (الفزيغوت). وقد ذكر المستشرق المعروف (دوزى) فى كتابه (تاريخ الاندلس) « لقد انقذ الاسلام الطبقات الدنيا من الاوروبيين العبيد واقنان الارض فى العصور الوسطى، وحررهم من سلطة الاقطاعيين الاقوياء الذين كانوا يعتبرون الفلاحين لا عبيدا لهم وحسب، بل وعبيدا للأرض» (١٢)

لقد كان الفتح الاسلامى فى الواقع ميزة وحسنة لاسبانيا والبرتغال، اذ حقق ثورة اجتماعية واقتصادية بالغة، فازال سلطة الطبقات ونقل المجتمع الاوروبى لاول مرة من مجتمع طبقى شبه عبودى (اقنان ونبلاء) الى مجتمع لا طبقى بقضائه على الامتيازات للطبقات العليا الاقطاعية وتوزيعه الاراضى على اكبر عدد ممكن من افراد الطبقات المستغلة (الاقنان). ويذكر مستشرق اخر هو (ليفى بروفاتسال) فى كتابه (اسبانيا المسلمة فى القرن العاشر). « ان الازدهار الزراعى الذى اصاب اسبانيا بعد الفتح الاسلامى يعود الى التقسيم الكبير لملكية الارض » (١٣).

اين موقف العرب والمسلمين هذا من موقف البرتغاليين عندما استعمروا بعض مناطق الخليج العربى ؟ لقد نزعوا كل سلطة من الملوك والامراء والرؤساء التقليديين اصحاب البلاد الاصليين، ووضعوا البلاد فى الموضع الذى ارادوه لها واستحوذوا على ثرواتها الطبيعية وادوات الانتاج فيها، ودمروا الصناعات التقليدية الحرفية فيها (والتى كانت ستتقدم على نظيراتها فى اوروبا والبرتغال نفسها) وحولوا الشعوب التى استعمروها الى أيد عاملة ذليلة، وفرضوا عليها قوانين ومعايير وقواعد تتفق وخصوصياتهم، واخضعوا السكان الاصليين الى عملية سيكولوجية تهدف الى تسييرهم فى اتجاه يتفق ومصالحهم (١٤). وهناك الامثلة الكثيرة على معاملة البرتغاليين الوحشية للمناطق التى استعمروها وبالاخص سكان الخليج العربى. ويكفى ان ندلل على حادثة واحدة وقعت عندما هاجم البوكرك (قائد البرتغال) بلدة خورفكان (الفجيرة) حاليا وقام بنهبها فانه قام بتقطيع اذان وانوف السكان الذين كان يطلق سراحهم.. ومثل هذا العمل كان روتينيا فى المدن العمانية الاخرى (١٥).

ان البورجوازية فى مراحل استعمارها حققت اكبر قدر من الارباح من مستعمراتها واجبرت كل الامم المستعمرة على اتخاذ اسلوبها فى الانتاج، بعد ان قوضت الاساس القومى الوطنى للصناعات المحلية واكسبت الانتاج والاستهلاك فى جميع البلدان صفة عالمية.. انها بالنهاية تقسر هذه البلدان والامم على دخول الحضارة المزعومة (١٦).

ان الاستعمار البرتغالى للخليج العربي ولافريقيا لم يخرج عن هذا الاطار، بل انه اول من طبع هذا الاسلوب بشكل عملي.. فلقد حققت المستعمرات البرتغالية امتيازا مزدوجا للبلد المركز، فقد كانت تشكل اراضي تستقبل فائض السكان وتنتج منتجات تفتقر اليها الاوطان ويمكن ان تستخدمها كمواد للتبادل. وكانت تجارة التبادل تشكل قاعدة العلاقات الاقتصادية في العالم القديم في القرن السادس عشر. وقد حلت محلها التجارة النقدية على نحو مطرد كلما حققت اوروبا غلبتها وسيادتها على العالم (١٧). ان الحصيلة التي تقدمها المستعمرات تسهم باستمرار في تعديل الابنية الاقتصادية للوطن (الام) ولكن الاهداف تتغير فتفرض على الاستعمار اسلوبا ومجرى جديدا.

ومن هذا كله نخلص الى ان الاستعمار البرتغالي انطلاقا من دافع المنفعة والمصلحة المادية بالدرجة الاولى، ارتكز على دعامتين اقتصاديتين او اساسين هما الموارد الاقتصادية والسوق.

الموارد الاقتصادية:

في الخليج العربي يلتقي الماضي المجيد بالحاضر المشرق. وتاريخيا كان الخليج ولا يزال يتمتع بموقع استراتيجي جعله محط انظار العالم منذ الازمنة الغابرة. ومع اكتشاف النفط فيه فقد تضافرت عوامل الجيولوجيا مع عوامل الجغرافيا لتجعل منه اليوم اهم منطقة حيوية في العالم.

ولكن الخليج العربى لا يحتوى على النفط وحسب، وقديما احتوى على ثروات طبيعية هائلة وخاصة فى منطقة عمان، فالموارد الزراعية كانت مصدرا كبيرا من مصادر الاقتصاد القومي، ففي المناطق الجنوبية من الخليج حتى اواسطه (الامارات العربية حاليا) توجد مساحات معتبرة من الاراضي الخصبة والعديد من الواحات الداخلية التي تزرع بها الفاكهة، ففي منطقة الباطنية الساحلية ووادى سمايل وواحة العين وغيرها، يزرع النخيل والمانجو والرمان والجوز والخضراوات والشعير والحنطة وقصب السكر. وحتى القطن كان يزرع في سهول عمان الشمالية ويغزل وينسج ويباع محليا وعالميا (١٨). والثروة الحيوانية بشقيها البرى (الماشية) والبحرى (الاسماك) تكاد تكون هائلة. فالغنم والماعز والجمال والابقار والجياد العربية الاصيلة . كانت متوافرة للغاية في الخليج العربي.

ان طول الشاطىء العماني وحده حوالي (١٥٠٠) كم وبمثله تقريبا بقية المناطق العربية في الخليج وامتداداته . ان الثروة السمكية حتى اليوم تزيد عن حاجة الاستهلاك المحلي حتى ان المواطنين يقومون

بتجفيف الاسماك وتصديرها وتقديمها علفا للحيوانات.

ولقد ذكر ابن بطوطة في رحلته في القرن الثامن الهجري بلاد عمان «بأنها ذات أنهار وحدائق وأشجار ونخيل..» (١٩). ووصفها ياقوت بأنها «تشمل على بلدان كثيرة ذات نخل وزرع» (٢٠) ولقد عاين المقدسي في القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادي ـ اقليم عمان بنفسه وقال: «والتجارات في هذا الاقليم مفيدة لأن به فرضتي الدنيا.. فاليه يخرج أدوات الصيادلة والعطر كله ـ حتى المسك ـ والزعفران والصاج (الخشب) واللؤلؤ والديباج والياقوت والابنوس والنارجيل والحديد والرصاص والخيزران والفلفل وغير ذلك (٢١).

ولقد لخص البشارى المقدسي صحار وباقي مناطق عمان وقصباتها قائلا «انها بلد عامر، أهل محسن، طيب، نزه، ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات اغنى من زبيد وصنعاء.» (٢٢).

وفي مجال التجارة، فبالاضافة الى الموقع الممتاز الذي يربط الخليج العربي افريقيا بآسيا ويجمع على شاطئه العرب وغيرهم ويعتبر نقطة الوصل بين بلاد الرافدين والشام وآسيا الصغرى مع شبه القارة الهندية والجزيرة العربية فان التاجر العربي والملاح العربي الذى وصل الى الصين وارخبيل اندونيسيا شرقا وشواطىء افريقيا غربا كان نموذجا للاهتداء به من قبل بحارة العالم وتجارها (٢٣). وفي هذه المنطقة العربية كان لصناعة السفن شهرة عالمية خاصة ولقد ذكر ذلك الملاح العربي الشهير احمد بن ماجد في العديد من كتبه التي بقيت تدرس في المدارس والجامعات الغربية حتى زمن طويل في بداية العصر الحديث. لقد اشتهرت المدن العمانية بهذه الصناعة مثل مسقط ومطرح وصور وصحار. وكان العمانيون مهرة بدرجة فائقة.. ولم يكتفوا بمواردهم المحلية من الاخشاب لهذه الصناعة، بل ان بعضهم كان يذهب الى الهند لصنع السفن هناك(٢٤) ولقد ضم الاسطول العماني اكثر من (٤٠٠) سفينة من مختلف الاحجام والانواع في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. وكانت هذه السفن تمخر عباب البحار والمحيطات والانهار، رابطة العالم العربي من شماله (وادى الرافدين وبلاد الشمال) الى جنوبه في اليمن وظفار ومن زنجبار الى اندونيسيا.. واليابان (٢٥).

ان صناعة الغزل والنسيج كانت متقدمة في الخليج اكثر مما كانت عليه في البرتغال نفسها، ولقد فوجىء البرتغاليون بوجود صناعات نسيجية متطورة وملابس راقية، تنم عن ذوق سليم، ومتانة فى التصنيع.. بعضها صنع محليا والبعض الاخر استورد من خارج الاقليم وبالاخص الحرائر

التي كانت تستورد من الهند وبلاد الشام (٢٦).

ولم يرق ذلك في سمع وبصر البرتغاليين، فقد عمدوا الى ابادة او محق الاسلام والتجار المسلمين. فقد ارسلوا حملات متعاقبة الى المدن الاسلامية والجوامع لحرقها او تفجيرها وهي مملوءة بالمصلين، ان المشاغل الحرفية كانت تحرق في اى مكان يلطخه البرتغاليون(٢٧). كل ذلك كان يتم عن حقد اعمى دفين، اضافة الى الهدف الاقتصادى. وهو تدمير القاعدة الاقتصادية الوطنية وربط البلد باقتصاديات المستعمر وجعله تابعا له.. كي يسهل استمرار الاستعمار. وبهذه العملية انتقلت الممرات التجارية من مدن الخليج وحولت الى الجنوب، ولذلك فان تلك المدن التى كانت متطورة ضمرت واصبحت بائسة وفي مجال الصناعات المعدنية، فقد وجدت الاواني الفضية والنحاسية والادوات الحديدية. وآلات الحراثة، اضافة الى الصناعات الحربية كالسيوف والعجلات والمدافع والمجانيق وغيرها.

ونحن نتكلم عن الموارد الاقتصادية للخليج العربي لا بد وان نعرج على اللؤلؤ. والذى يعتبر من ارقى أنواع اللؤلؤ في العالم. لقد تعددت مغاصات اللؤلؤ في الخليج بدءا من عمان اقصى الجنوب (خليج عمان) الى الكويت في اقصى الشمال ولكن اهمها واندرها ما كان يستخرج من مغاصات صور في عمان ورأس الخيمة في الامارات.

ان البرتغاليين الذين عمدوا الى الاستيلاء تقريبا على اغلب او جميع هذه الموارد الاقتصادية وبالقوة المسلحة.. وغالبا دون تعويض، فانهم لم يعمدوا الى استغلال مغاصات اللؤلؤ مباشرة عكس مصادر الثروة الاخرى حيث ان عملية الغوص شاقة وخطرة ولذلك قاموا بفرض ضرائب باهظة على المختصين بهذه المهمة، اذ كانو يجبرون السكان على بيعها باثمان بخسة وينقلونها الى الغرب ويحصلون على ارباح وايرادات ضخمة من هذه التجارة الرائجة.

السوق :

كانت السوق الاقتصادية في الخليج العربي معتبرة جدا في الفترة ١٧٠٠ ـ ٢٣٠٠ ق. م حيث كان المركز الحضرى للبحرين صلة الوصل بين حضارة وادى الرافدين وحضارة الاندوس التي بزغت في مناطق السند والبنجاب (٢٨) ولقد لعبت التجارة دورا مهما في الخليج العربي. وكان ذلك بسبب حاجة المنطقة الى الاخشاب والمعادن غير المتوفرة والتوابل والاقمشة المصنعة محليا او المستوردة.. وكانت صيغة التبادل في هذه السوق الاقتصادية الواسعة الممتدة من اندونيسيا شرقا الى بلاد الشام وشرق افريقيا.. وجنوب اوروبا/ تمارس فى صيغة

المقايضة. ولكن مع ازدهار التجارة ادى ذلك الى استعمال النقود على نطاق واسع، واستعملت النقود المعدنية وبالاخص (الفضة والذهب) كمقياس مشترك للقيمة. ولكن مع مجيء عصر الاستعمار البرتغالي، الذى ارتبطت مقوماته بالتبادل الدولي. فلم يقم التبادل في هذه السوق على التبادل المتعادل للسلع فالجيوش البرتغالية وبعثات الاستكشاف في طبيعتها تشكل تهديدا مباشرا وفي تركيبها بما تستطيع حمله معها من المنهوبات. وكانت احيانا اداة الدفع الفضة/ بابخس الاثمان: وعلى اية حال لم تكن هناك ضرورات ايجابية لانشاء وحدات اقتصادية حقيقية او اسواق بالمعنى العلمي الصحيح لها. حيث ان ذلك يؤدي الى اقامة تبادل متعادل في ظروف تنافسية، تتقرر فيها الاثمان بشكل موضوعي.

ان الاجراءات القسرية التي استخدمتها الكولونيالية البرتغالية في الخليج العربي، قد استطاعت اقامة تبادل دولي الا انه لم ينفع الاقطار التى قامت بالسيطرة عليها. وذلك لان اية سلعة تشتريها بالاضافة الى الجزية التى تتقضاها غصبا، كانت تدفع اثمانها مما كانت تستخلصه من دافعي الجزية والضريبة انفسهم.. ان رسائل كولومبوس الى ملكه بعد اكتشاف القارة الجديدة تشير بما لا يقبل الجدل إلى صحة ذلك.

«هؤلاء الرجال لا يحسنون استخدام السلاح.. ويكفي خمسون جنديا لاخضاعهم وحملهم على ان يفعلوا كل ما يريده المرء ان يفعلوا» [٢٩]. انها عبارات قليلة كافية للتعبير عن كل تاريخ الاستعمار القديم. ويلاحظ بيرى اندرسون ان الاستعمار البرتغالي هو (استعمار رد الفعل) ولسنا بصدد مناقشة ذلك. ولكن يؤكد صاحب الفكرة على ان الهدف الجوهرى لهذا الاستعمار من وراء الاكتشافات والرحلات هو السعي الى المنفعة، من خلال الوصول الى الهند وثرواتها الطائلة[٣٠]، ولكن طريقة هذا السعي تتغير وفقا للظروف الطارئة.

لقد حصلوا على الذهب من غينيا وحملوا به سفنهم وكنزوا هذا الذهب واستبدلوه بذهب السودان الذى اخذ يشح وينضب [٣١]. والواقع انه مع نهاية عصر الصليبيين في بلاد الشام ومصر، اخذت التجارة الاوروبية تعاني من عجز لم يكن ذهب السودان يغطي الا جزءا منه.. ان البرتغاليين لم يقتصروا على تجارة الذهب والمواد الاخرى بل اخذوا يحملون معهم العبيد[٣٢] الى لشبونة او مزارع القطن الامريكية. ان ما يسمى بتجارة العبيد يشكل وصمة عار في جبين المدنية الاوروبية الحديثة فلقد حملت اساطيل الدول الاستعمارية من افريقيا اكثر من

(٢٢) مليونا من سكانها غصبا الى نصف الكرة الغربي للعمل في المزارع او المناجم لحساب الرجل الابيض.. وقد قتل او مات اكثر من ربع هذا العدد حتى قبل وصوله اليابسة[٣٣].

كانت السلع التجارية الاساسية تصادر في اغلب الاحيان من قبل المرتزقة البرتغاليين، او تقوم باثمان بخسة للغاية، وكان الملك البرتغالي يحتكر لحسابه الخاص اللؤلؤ والتوابل والعطور والحرير. وعندما كان يتدهور سلطان الملك في ذلك الاحتكار يحول الى قواد الحاميات... ان البرتغال نظرت الى الخليج العربى من زوايا ثلاث:

أولا: موقعه الممتاز: فهو يصل بين قارتين هامتين من العالم القديم (افريقيا وآسيا) وطرفه الشمالي يقرب المسافة بين أوروبا والشرق في حالة استخدام القوافل البرية وبالفعل وصل البرتغاليون في مرحلة ما الى منطقة البصرة وشنوا غارة مفاجئة عليها في عام ١٥٥٦ والحقوا بها بعض الأضرار بالميناء كونهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليه. أما منطقة الفاو فقد استخدموها كقاعدة وميناء لهم لفترة زمنية معينة. كما ان الخليج يسيطر على طرق الملاحة المتجهة من أوروبا الى الهند والشرق الأقصى وبالعكس.

ثانيا: ان شركاتها ورحلاتها الملاحية نظرت اليه من زاوية المصالح التجارية وخاصة في القسم الشرقي منه (بلاد فارس) اذ كانت سوقا استهلاكية لتصريف المنتوجات الأوروبية وما كانت تجلبه معها الى الهند، وبالمقابل فقد كان الخليج منطقة تصدير المواد الأولية والحرير والأخشاب والمواد الغذائية.

ثالثا: انه مصدر نقدى كبير، سواء بما احتواه من مواد نقدية معدنية كالفضة والذهب واللؤلؤ أو بما فرضته السلطات البرتغالية من ضرائب ورسوم وأتاوات خيالية على العمل والانتاج والملاحة.. وحسب ما يرويه احد حكام هرمز من البرتغاليين في عام ١٥٥١ وكان يدعى الفارودى.. ان سلفه جمع أثناء عمله في حكم الجزيرة (١٤٠) ألف بردوسه من العملة البرتغالية، أما هو فقد جمع ضعف هذا المبلغ [٣٤].

ومن الشروط التى قدمها فيليب الثالث الى شاه ايران عام ١٦١٨ ما يتعلق باحتكار الحرير «ينبغي على التجار الايرانيين سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين أن ينقلوا ما يصدرونه من حرير الى هرمز او جوا. واذا ما نقلوا بضائعهم الى مكان آخر فسوف تتخذ الاجراءات الضرورية لمنعهم [٣٥].

واخيرا لا بد من التنويه الى ان البرتغال شأنها شأن اسبانيا طبقت

سياسة اقتصادية في داخل أراضيها عرفت باسم السياسة المعدنية أو السبائكية تقوم على الحصول على الذهب والفضة من المستعمرات بطريق مباشر (المناجم أو الضرائب) وقد انتقلت كميات كبيرة من هذه المعادن الثمينة الى داخل شبه الجزيرة الايبيريه . كما منع خروجها قدر المستطاع اعتقادا من ان وفرة هذين المعدنين يعني غنى الدولة وقوة اقتصادها وبالتالي قوتها .

والى جانب هذه السياسة المحلية الداخلية ، كانت الدول الاستعمارية بما فيها البرتغال تطبق ما يعرف باسم العهد الاستعماري . ومضمونه ان المستعمرات ليست سوى مناطق جعلت لخدمة اقتصاديات الدول الكبرى الاستعمارية . وبالذات لتسهيل الحصول على ميزان تجارى ايجابي . ويتلخص هذا العهد في الميادين الآتية : ان كافة المنتجات والعبيد التى تدخل المستعمرات لا بد ان تأتي من الدول الأم وعن طريقها وبسفن تابعة لها . أما عن المنتجات والعبيد التى تصدر من المستعمرات ، فيجب ان تذهب فقط للدول الاستعمارية (الأم) وعلى سفن تابعة لها . وكذلك لا يمكن للتجار في الدول الاستعمارية شراء منتجات المستعمرات الا من المستعمرات التابعة للدولة وأخيرا يحرم على المستعمرات (الأطراف) اقامة صناعات بها [٣٦] . ان هذا العهد وحده يفند كل نظريات التخلف التقليدية التى تعزو التخلف الى أسباب اجتماعية او اقتصادية أو حتى عرقية أو طبيعية . ان عملية التراكم الأولى التى جرت لصالح المراكز المتقدمة على حساب الأطراف (المتخلفة) هي التى تشكل الميدان الذى تخوض فيه نظرية التراكم على الصعيد العالمي والتى بوسعها وحدها أن تفسر تخلف بعض البلدان وتقدم البعض الآخر [٣٧] .

الخاتمة :

ان البرتغاليين اكتفوا طوال قرنين من تاريخهم الاستعماري للخليج العربي بترديد مزاعمهم الكاذبة عن مسئولياتهم الحضارية والمسيحية ، في حين انهم لم يحققوا أى شىء من التقدم في الخليج ولا في مستعمراتهم التى كانت منتشرة في افريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية [٣٨] بل على العكس يعود تخلف منطقة الخليج العربي شأنها شأن باقي المناطق المتخلفة في العالم بالدرجة الأساس الى ممارسات الاستعمار البرتغالي والحملات الاستعمارية الغربية الأخرى ، والتى لا تزال نراها عملية معاصرة ولكن بأثواب جديدة وأساليب مختلفة .. ان

تحرير الاقتصاد من التبعية للغرب واتباع طرق وأساليب انتاج ملائمة ، واستراتيجيات تنموية خاصة ، هي الضمان الأكيد للتوجه نحو التقدم والرفاه الاقتصادي والاستقرار السياسي والتماسك الاجتماعي .

المراجع

أولا : المصادر العربية :

١ ـ بورد هنرى (راهبة البرتغال) القاهرة، شركة فن الطباعة، الجزء الأول .
٢ ـ نجاتي صدقي، «فاسكودا غاما وابن ماجد» مجلة الأديب، العدد ٤ نيسان ١٩٦٨ .
٣ ـ صوت أفريقيا الناهضة، عرض نشر بمجلة المبادىء، العدد (١ ـ ٢) السنة الرابعة، يناير، فبراير، ١٩٦٤، الرباط .
٤ ـ عبد اللطيف الخطيب ، «كامونيوس ـ (شاعر الفتوحات البرتغالية)، ترجمة نشرت بدعوة الحق، فبراير ١٩٦٤ .
٥ ـ عصام عاشور، وسائل التعاون الاقتصادى بين بلدان الخليج العربى وسائر البلدان العربية .
٦ ـ حصاد ندوة الدراسات العمانية، ستة مجلدات (١ ـ ٦) مجموع البحوث والدراسات التي قدمت في الندوة، ذو الحجة ١٤٠٠ هـ، نوفمبر ١٩٨٠ سلطنة عمان ـ وزارة التراث القومي والثقافة، وفي هذه الندوة مالا يقل عن عشرة أبحاث .
٧ ـ سمير أمين «التراكم على الصعيد العالمى ـ «نقد نظرية التخلف»، دار ابن خلدون، بلا تاريخ .
٨ ـ لبيب شقير، تاريخ الفكر الاقتصادى، القاهرة .
٩ ـ إسماعيل صبري عبد الله، نحو نظام إقتصادى عالمى جديد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧ .
١٠ـ محمد عارف الكيالي، معالم الفكر الاقتصادى الاسلامى، مجموعة محاضرات القيت على طلبة قسم الاقتصاد، جامعة بغداد، للأعوام ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ .
١١ـ روبرت لوبينز، «التاثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية في الغرب»، دار النشر للجامعات المصرية، ١٩٦١، ترجمة توفيق إسكندر .
١٢ـ غي دى بوشير ، «تشريح جثة الاستعمار»، ترجمة ادوار الخراط، دار الآداب ـ بيروت ١٩٦٨ .
١٣ـ مصطفى صادق السباعي، «اشتراكية الاسلام»، دمشق ١٩٥٨، ص١٠٦ .

١٤ـ جيمس دفي، «الاستعمار البرتغالي في أفريقيا»، ترجمة د. شوقي حسن المراكبي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣ .

ثانيا : المصادر الانكليزية :

1. R.B. Serjeant, "The Portuguese off the South Arabian Coast," Libraire Du Liban, Beirut 1974.

2. Gamal Zakaria Kassem, "OMANI, Portuguese Conflict in the 16th and 17th Centuries, Bulletin of A.R.S.(A.L.E.C.S.O.) The Institute of Arab Research Studies, V & X, 1979/1980, Cairo.

3. John Paxton, "The Stateman's Year Book, 1970-1972, Macmillan.

4. C.R. Boxer "Portuguese Society in the Tropics, 1510-1800, University of Wisconsin Press, 1965.

5. Luella J. Hall "The U.S.A. and Morocco, 1971, 1776-1956.

6. Encyclopaedia Americana No. 27, pp, 441-442.

7. Encyclopaedia Britannica No. 1-4, pp. 882-882, 1046-1049.

8. The Middle East and North Africa in World Policies, 2nd edition, Vol. I, 1535-1914, Compiled, translated by: J.C.Hurawi, Yale University Press, 1975.

الهوامش

(١) محمد عارف الكيالى، معالم الفكر الاقتصادى الاسلامي، عصر صدر الاسلام محاضرات القيت على طلبة قسم الاقتصاد في جامعة بغداد، كلية الادارة والاقتصاد، للأعوام ١٩٨٠ ـ ١٩٨٥ .

(٢) روبرت لوبينز ، التاثيرات الشرقية والنهضة الاقتصادية في الغرب، ترجمة توفيق اسكندر في كتاب معنون (بحوث في التاريخ الاقتصادى)، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٤٢ .

(٣) روبرت لوبينز ، مصدر سابق ذكره، ص ١٤٤ .

(4) R. B. Serjeant «The Portuguese Off The South Arabian Coast», Libraire du Liban, Beirut, Printed In London, 1974, PP, 3 - 4.

(5) R. B. Serjeant, «Op. Cit», P. 3

(6) Gamal Zakaria Kassem «Omani Portuguese Conflict In The 16th & 17th Centuries. Bulletin Of Arab Research Studies. Arab Leage Educational, Cultural and Scientific Organization. The Institute Of Arab Research Studies, V & X 1979/1980 Cairo, p. 143.

(٧) س . بكنهجام « بعض الملاحظات عن البرتغاليين في عمان » حصاد ندوة الدراسات العمانية، سلطنة عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة، المجلد السادس، ذو الحجة ١٤٠٠ هـ، ١٩٨٥، ص ١٨٨ .

(٨) تؤكد بعض المصادر ان البحارة العرب اكتشفوا امريكا قبل كولومبوس بثلاثة قرون، بناء على دراسة قدمها عدة علماء امريكان من اصل صيني هم (هوى ليندلى ولنجواى ياى واخرون)... انظر.. امين سعيد «الخليج العربى في تاريخه السياسى ونهضته الحديثة » دار الكاتب العربى، بيروت بلا تاريخ، ص ١٣ ـ ١٤ .

(٩) غى دوبوشير « تشريح جثة الاستعمار »، ترجمة ادوار الخراط، دار الاداب، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٣ ـ ١٤ .

(١٠) محمد عارف الكيالى « محاضرات في الفكر الاقتصادى لطلبة الاقتصاد » غير

منشورة، الدراسات العليا (الماجستير) للعام الدراسى ١٩٨٧/٩٨٦ كلية الادارة والاقتصاد، جامعة بغداد .

(١١) س. بكنهجام ، مصدر سابق ذكره، ص ١٨٦ .

(١٢) مصطفى صادق السباعى « اشتراكية الاسلام »، دمشق، ١٩٥٨ ص ١٠٦ .

(١٣) ترجمة الدكتور عبدالرحمن الكواكبى، ص ١٦١ .

(١٤) غي دى بوشير ، مصدر سابق ذكره، ص ٤٣ ـ ٤٥ .

(١٥) س. يكنجهام، مصدر سابق ذكره، ص ١٨٧ .

(١٦) كارل ماركس وفرديرك انجلز « نصوص بشان الاستعمار »، فى مصدر غى دى بوشير ، السابق الذكر، ص ٤١ .

(١٧) غي دى بوشير، مصدر سابق ذكره، ص ٣٩.

(١٨) صلاح العقاد، «دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج»، دراسة مقارنة، حصاد الدراسات العمانية، مصدر سابق ذكره، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(١٩) سعيد عاشور، «عمان حصن الأمان للعروبة والاسلام»، المجلد الاول لندوة الدراسات العمانية، مصدر سابق ذكره، ص ٢٧٠.

(٢٠) المصدر نفسه، ص ٢٧٠.

(٢١) المصدر نفسه، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.

(٢٢) المصدر نفسه.

(٢٣) احمد شلبي، «عمان في التاريخ من اقدم العصور حتى الآن»، المجلد الاول لحصاد ندوة الدراسات العمانية، مصدر سابق ذكره، ص ٢٧ ـ ٢٨.

(٢٤) صلاح العقاد، مصدر سابق، ص ١١٠

(٢٥) احمد شلبي، مصدر سابق، ص ٢٩.

(٢٦) المصدر نفسه.

(27) Gamal Zakaria Kassim, Op. Cit. pp. 145 - 146.

(28) N.R. Banerjee, «The Iron Age in India», Delhi, 1965, pp. 113 - 114.

(٢٩) غي دى بوشير، مصدر سابق ذكره، ص ١٤٦.

(٣٠) بيرى اندرسون، «البرتغال ونهاية آخر عصر الاستعمار».

(٣١) غي دى بوشير، مصدر سابق، ص ١٣٥.

(٣٢) غي دى بوشير، المصدر نفسه، ص ١٣٥ .

(٣٣) عبدالرسول سلمان، «معالم الفكر الاقتصادى»، بغداد ١٩٧٤، ص ٥٠، وما بعدها.

(٣٤) صلاح العقاد، مصدر سابق، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٣٥) المصدر نفسه، ص ٧٩ .

(٣٦) لبيب شقير، «تاريخ الفكر الاقتصادى»، مطبعة الانجلو المصرية ، القاهرة بلا تاريخ، ص ١٢٧ ـ ١٢٨، ومن الجدير بالذكر أن العهد ليس معناه انه قائم على اتفاق

أو عقد بين المستعمرات والدول الاستعمارية، وانما هو التزام تلتزم به المستعمرات في علاقاتها مع الدول المستعمرة والعالم الخارجي .

(٣٧) هناك تحليل واسع ورائع لكاتب عربي هو الدكتور سمير أمين حول هذا الموضوع بعنوان «التراكم على الصعيد العالمي ، نقد نظرية التخلف» دار ابن خلدون ، ترجمة حسن قبيس، والكتاب على ما يبدو كتب بلغة أجنبية (فرنسية) ولكن للأسف فإن الترجمة ليست على ما يرام .

(٣٨) جيمس دفي، «الاستعمار البرتغالي في افريقية» ترجمة د. شوقي حسين المراكبي، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٣، ص١٢ .

أصداء في أدب



صلات الادب بالبيئة العامة والخاصة وتأثره باحوالهما الطبيعية والاجتماعية والثقافية والسياسية مازالت تشغل النقاد ومؤرخي الادب والفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع وغيرهم. وبفضل هذا التأثر والتأثير تتكشف الروابط الوثيقة التى تشد الادب الى التاريخ وتصل التاريخ بالادب حتى لتجد صفحات وفصولا مما يدونه المؤرخون ترفل بأساليب ادبية جميلة وتزهو بصور وصيغ فنية فاتنة[1] . كما تجد فصولا اخرى وكتبا ورسائل كتبها الادباء وشعرا كثيرا مما ينظمه الشعراء اشبه بالوثائق التاريخية التى لا يستغنى عنها المؤرخ[2] . لهذا كان التاريخ ومايزال اقرب العلوم الانسانية الى الادب. وكثيرا ما اجتمعا فى رجل واحد. وفى تاريخ الفكر العالمى والعربى العشرات من الاعلام الذين جمعوا بين الادب والتاريخ كابن المقفع والجاحظ وابن قتيبة والصولي ومسكوية وغيرهم من الكتاب والمؤرخين القدماء[3] . ولم يختف هذا المظهر من مصابيح الفكر والثقافة والادب حتى اليوم على الرغم من شيوع التخصص الدقيق.

والحق ان الشعر والنثر العربيين يكشفان عن كثير من الاحداث التاريخية ويسلطان الاضواء من زوايا فنية وغير فنية على اسرارها وخفاياها. والظاهر ان اهتمام الشعراء والكتاب بأحداث عصرهم يزداد فى عهود القوة والازدهار ويخفت فى عصور الضعف والانحدار، هذا سبب التفتت الشديد والصعوبة المنهجية البالغة التى يعانى منها الذين يدرسون مواقف الادباء من الاحداث بعد الخلافة العباسية سنة ٦٥٦ هـ/١٢٥٤م لانها عصور انهيار الحكم العربى فى العراق والشام ومصر

الغـــزو البرتغالي
الخليج العربي

بقلم الدكتور :
علي احمد الزبيدي

والاندلس وخضوعها لسلطان الاعاجم من مغول وفرس وترك وفرنجة ، ولا تنس ان انفعال الادباء بهذا الحدث او ذاك خلال تلك الحقبة المظلمة كان يتوارى تحت ركام النكسات والازمات والمحن هذا فضلا عما اصاب الشعر والنثر من تدهور وجمود وجفاف وتخلف واستهلاك المواهب في الاعيب الصنعة البديعية واستنفاد القدرات الفنية في تفريخ البديع وتعقيده وتكبيل النتاج الشعري والنثري بقيوده الثقيلة[4] . ولكن صعوبة الكشف عن مواقف ادباء العصور المتأخرة من الاحداث لا يعني انهم عاشوا بمعزل عنها فلم يشعروا بها ولم تؤثر فيهم بشكل من الاشكال. كل ما في الامر ان اسلوب مواجهة الحدث او التعامل واياه يتغير فيلجأ الاديب الى التلميح والغمز واللمز واللغز والتورية او التعبير عن الرفض والاحتجاج بالانسحاب من معترك الحياة والانصراف عن أدب الدنيا الى ادب الدين كشعر الزهد والشعر الصوفي والمدائح النبوية ومراثي آل البيت والشعر التعليمي وما شاكل ذلك .

وكان مد الشعر الديني طاغيا في شمال بلاد العرب ووصلت امواجه القوية الى ادب الجزيرة العربية فجرف تيار التصوف والزهد وتأثيراتهما السلبية فئات الشعراء واضعف استجاباتهم المباشرة لاحداث عصورهم وهمومها وازماتها ومآسيها. فالغزو البرتغالي الذي يدور عليه هذا البحث كان أشد الاحداث خطرا في تاريخ شرقي جزيرة العرب وجنوبها في القرنين العاشر والحادي عشر الهجريين (السادس عشر والسابع عشر الميلاديين) ولكننا لا نكاد نجد له صدى يلفت النظر الا في الادب العماني، ولم نعثر له على اثر يذكر في الشعر الحضرمي، ولا في شعر مناطق الخليج العربي التي اغار عليها البرتغاليون واحتلوها مدة طويلة من الزمن كالقطيف والبحرين، ولعلنا واجدون شيئا اذا ما

توفرت المصادر وسمح الوقت بتوسيع هذه الدراسة[٥] .

ان منهج بحثنا يحتم علينا ان لا ننقل بالتفاصيل التاريخية دراسات وافية عن الغزو البرتغالي وسنكتفي بلمحة تاريخية خاطفة تحدد المواقع المكانية والزمانية لابراز احداث الغزو ليتسنى لنا استقصاء انعكاساتها في الشعر والنثر والادب التاريخي .

لقد وقع اول احتكاك بين البرتغاليين والمشرق العربي عند وصول فاسكو دى جاما الى موزمبيق سنة ١٤٩٧م واعتدائه على مينائها (سفالة) وصعوده شمالا الى ماليندى وممباسا وارهابه اهلها وحكامها ثم ابحاره الى الهند بمعونة الملاح العربى ابن ماجد او ملاح مسلم اخر كما يرى بعض الباحثين[٦] . وقد تحول هذا الاحتكاك الى صدام خطير في البحر والبر خلال رحلة دى جاما الثانية سنة ١٥٠٢م/٩٠٨ هـ لانه صمم على اغلاق البحر الاحمر بوجه الملاحة العربية بعد ان احتل كلوه وزنجبار على ساحل افريقية وكلكتا على ساحل الهند مرتكبا في البر والبحر في اثناء غزواته ورحلاته جرائم وحشية فظيعة ثم توالت احداث العدوان والرد على العدوان بين العرب والغزاة البرتغاليين . وقد تمكن الاسطول البرتغالى بقيادة دالميدا ثم الاميرال البوكيرك من احتلال جزيرة سوقطرة القريبة من عدن سنة ١٥٠٧م كما حاول البرتغاليون الاستيلاء على عدن نفسها فأرتدوا خائبين[٧] . ثم اتجهوا الى سواحل عمان وأغاروا في طريقهم على المكلا وسواحل حضرموت واستولوا على عدد من السفن العربية التجارية ثم قتلوا ملاحيها وركابها واحرقوا عددا منهم احياء بعد ان قطعوا آذانهم وانوفهم . وفي عام ١٥٠٨م هاجم البوكيرك مسقط فأحتلها بعد ان قاومت مقاومة باسلة فخرب رجاله بيوتها وهدموا جامعها الذى كان تحفة فنية اثرية رائعة وقتلوا مئات النساء والاطفال . وقبيل ذلك كان البرتغاليون قد احتلوا ظفار وشيدوا فيها حصنا منيعا واستولوا على الموانىء العمانية القريبة من مسقط مثل قلهات وصور وقريات والمطرح كما استولوا على جزيرة هرمز وانقضوا سنة ١٥٢١ على القطيف والبحرين فاستولوا عليهما وبنوا قلعة في المنامة واخرى في القطيف وبذلك هيمنوا على الخليج العربى هيمنة كاملة طوال القرن السادس عشر (العاشر الهجرى) ونصف السابع عشر ومع ان نفوذهم قد تقلص لاستمرار المقاومة ولتدخل العثمانيين الا ان انهيارهم لم يبدأ الا في عهد الامام ناصر بن مرشد (١٠٢٤ ـ ١٠٥٠ هـ) فهو الذى اخرجهم من الموانىء العمانية الجنوبية وضيق الخناق عليهم في مسقط وأخيرا تمكن اليعاربة في عهد خليفته سيف بن سلطان بن سيف من تحرير مسقط والبحرين في سنة ١٦٥٠م/ ١٠٦٠هـ وتطهير الخليج وبحر العرب وموانىء الساحل الافريقى كزنجبار وممباسا وكلوه ومقديشيو من آخر الغزاة والقراصنة البرتغاليين[٨] . لقد طالت مدة العدوان كما يلاحظ فاستغرقت قرنا ونصف القرن. ويجمع المؤرخون من القدماء والمحدثين على

ان سبب انتصار البرتغاليين وبقائهم في صحار وعمان والبحرين هو سوء الاحوال السياسية في عمان واقطار الجزيرة العربية التي انهكها الصراع المستمر على السلطة بين الرؤساء والشيوخ والامراء وانتشار الفتن الدينية والحروب القبلية في اواخر عهد النبهانيين [٩] وحتى حكم اليعاربة بتولي الامام ناصر بن مرشد (١٠٢٤ هـ/ ١٦١٥م/ ١٠٥٠ هـ/ ١٦٤٠م) كما اشرنا .

وقد سرد صاحب تحفة الاعيان وقائع النزاع بين النبهانيين والاباضية وتمكن الاباضية من عزل الامام النبهاني وتولية محمد بن اسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦ هـ/ ١٥٠٠م وحكم هذا ثم عزل لسوء سياسته سنة ٩٤٢/ ١٥٣٥م[١٠] وفي عهده ظهر البرتغاليون في شرق افريقيا وغزوا عمان واستولوا على ظفار والمطرح ومسقط. وكان الصراع على السلطة والامامة قد اشتد في آخر حكمه ، ثم ازداد شدة في عهد ابنه وخليفته بركات، قال السالمي واصفا ذلك التمزق «ولبث محمد الهنائي في بهلى وآل عمر في سمائل ومالك بن ابي العرب البصري في الرستاق والجبور في الظاهرة والنصارى (البرتغاليون) في (مسقط) وصحار وجلفار وصور وقريات وخربت عمان بعد العدل والامان وعاشت فيها الجبابرة وقل فيها العلم والخير »[١١] . ومما قاله ايضا : «وبقيت عمان كذلك حتى اظهر الله الامام الارشد ناصر بن مرشد رحمه الله فأستفتح جميع عمان ودانت له جميع البلدان وطهرها من البغي والعدوان والكفر والطغيان[١٢] . وعن مرحلة عودة النبهانيين الى السلطة خلال النصف الثاني من القرن العاشر للهجرة قبيل تولي ناصر بن مرشد يقول السالمي «وبنصب الائمة في وقت واحد، (ثلاثة أئمة) تشتتت الكلمة وتفرقت الجماعات وضعفت دولة المسلمين ووهت قوتهم، وطمع فيهم من كان لا يطمع فصار الملك متفرقا في ايدي الرؤساء من النبهانية وآل عمير وآل هلال وهم رهط الجبور وصارت الشدة على اهل عمان ولم تبق دولة المسلمين الا في مكان دون مكان»[١٣] .

وقبل ذلك العهد المضطرب كان العمانيون سادة المحيط الهندي وبحر العرب والخليج[١٤] وقد لاحظ ذلك المسعودي في القرن الرابع للهجرة[١٥] وأكد قوة هذه السيادة واستمرارها الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة بعد نحو خمسة قرون[١٦] ، ولم ينافسهم منافس حتى الغزو البرتغالي لساحل افريقيا الشرقي والساحل العربي الجنوبي الشرقي والخليج العربي في القرن العاشر للهجرة ولهذه السيادة العربية البحرية اهمية كبيرة في تاريخ الحضارة العربية والاسلامية لانها نشرت الاسلام واللغة العربية في شرق افريقية ورفدت اللغة الافريقية بفيض من الالفاظ والمصطلحات العربية وادت الى نشوء ادب عربي فصيح في مناطق زنجبار ومقديشيو وممباسا وغيرها ونقلت كثيرا من عناصر الحضارة العربية الاسلامية الى شرق القارة ووسطها[١٧] . ولم يوقف الغزو البرتغالي ولا الاستعمار الاوروبي من بعد هذا التأثير العربي العميق فاستمر الى يومنا هذا، وخير دليل على قوته وعمقه ان معجم اللغة السواحيلية ونحوها

وشعرها وادبها القصصي الشعبي والديني تؤكد صلات اللغات الافريقية الشرقية وآدابها باللغة العربية وآدابها[١٨] ولا أرتاب ايضا من ان الغزو البرتغالى كانت له اصداء وآثار فى ادب المقيمين العرب فى حواضر وثغور الساحل الشرقى لافريقيا [١٩]،وفي الاداب الافريقية الشعبية الاسلامية وغير الاسلامية، ولكن هذه الاداب لم تصل الينا لانها لم تدون لانتقالها من جيل الى آخر بالروايات الشفهية. وقد اكدت الدراسات الحديثة من الادب الصومالى ان معظم الشعر الديني والصوفى المنظوم بالعربية وبالسواحيلية قد ضاع . والمقصود هنا ما نظم قبل مدة قصيرة فكيف بالشعر الذى قيل قبل قرون ؟[٢٠] .

ان هذه الدلائل التاريخية تؤكد ان ادب الاعصر المتأخرة لم يكن بمعزل عن الاحداث السياسية والحربية على الرغم من ضغوط الحكم الاجنبى وكثرة عوامل التخلف والجمود والعقم . والملاحظ ان مؤرخى الادب العربى المحدثين والمعاصرين لم يهتموا كثيرا بدراسة آدابها فوسموه بشدة الضعف والجمود بصورة مطلقة فوسموا ادب الجزيرة العربية بما وسموا به عموم ادب الفترة المظلمة بل ذهب كثير منهم الى ان الادب فى اقطار الجزيرة العربية كان اشد تخلفا لما كان يسودها من حروب قبلية ونزاعات مذهبية وتأخر ثقافى واجتماعى واقتصادى ..[٢١] الخ . وبالغ نفر منهم كمحمد اسعد طلس الذى اعتمد على احكام امين الريحانى وبعض المستشرقين كبروكلمان ونيكلسون وهوار فى تعميم هذه الاحكام العامة كما فعل اواخر المصنفين كعمر فروخ وحنا الفاخورى ولم ينتبه الى وجه الخطأ فى مثل هذه التعميمات الا بعض مؤرخى الادب كشوقي ضيف الذى اثبت فى كتابه الاخير ان صورة الادب العربى فى الجزيرة اكثر اشراقا مما توحى به اقوال مؤرخى الادب السابقين وان لم يشر الى ذلك صراحة[٢٢] .

لقد فاتهم ان اقطار الجزيرة قد سلمت من الغزو والاحتلال والاستباحة والخراب التى انزلها المغول بالعراق والشام وفلسطين ، فلم تتعرض اللغة العربية وأدابها فى الجزيرة العربية الى غزو لغوى او ثقافى واجتماعى كما حدث فى الشمال صحيح ان ادب الجزيرة قد تأثر بالتيارات والموجات التى اشاعت التخلف والجفاف فى عموم الادب العربى ولكنه استطاع ان يحتفظ بسلامة اللغة بالقياس الى ما طرأ عليها فى العراق والشام فكان الشعر فى اقطار الجزيرة اكثر نشاطا وحيوية من شعر الشمال العربى بصرف النظر عن انجرافه بموجة التصنع البديعي التى كانت مسيطرة على آداب العصور المتأخرة فى كل مكان وعن ابتلاء اقطار الجزيرة العربية بسموم التفرقة وشرور التمزق والانقسام الى امارات ومشيخات صغيرة عانت شر التنازع من اجل الرئاسة والامارة والمشيخة والاحقاد التى تضرمها العصبيات القبلية وكان الشعر فى العراق والشام قد خمدت جذوته منذ سقوط الخلافة فى القرن السابع وزوال الحكم العربى واستيلاء المغول والفرس والترك وغيرهم من الاعاجم على السلطان والمال والجاه. ولم يسلم الشعر فى مصر ايضا من هذا الجمود فى عهد المماليك على الرغم من

احترامهم للعربية وادابها لانهم اعاجم ولاسباب اخرى يطول شرحها. وكان من الطبيعي والاحوال كما نرى ان يحتفظ الادب والشعر فى جزيرة العرب بكثير من خصائص الشعر والنثر وتقاليدهما التى اختفت او كادت تختفى من الشمال العربى. فشعر الحرب والحماسة والفخر بقى حيا مرغوبا فيه وان تخلف وراء الشعر القديم لان الحروب والنزاعات المستمرة فى اقطار الجزيرة بين الامراء والشيوخ والقبائل كانت تثيره وتغذيه وقديما قال الاصمعي ان طريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امرىء القيس وزهير والنابغة (الذبيانى) من صفات الديار والغزل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار فاذا ادخلته فى باب الخير[٢٣] وشعر المديح فى اقطار جزيرة العرب لم ينكمش كما انكمش فى شمالها للاسباب المذكورة ولان الممدوحين عرب اقحاح يطربون للمديح ويتذوقونه ويفيدون منه على الصعيدين الاجتماعى والسياسى ويجزلون العطاء للشعراء فى حين ان شعراء العراق والشام ومصر كانوا بعد زوال الحكم العربى وسيادة الاعاجم لا يجدون اميرا عربيا يفهم المديح ويثيبهم عليه ولا بطلا قوميا عربيا يشيدون ببطولته ولا أغالى إذا زعمت اننا لا نجد فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين فى العراق والشام ومصر شعراء افضل من كبار شعراء عمان والبحرين واليمن . لقد كان الصفويون الفرس يحتلون معظم العراق، والبلاد خراب يباب، والحياة الثقافية والعلمية راكدة، والناس فى كرب وهلع، ولم يلبث العثمانيون الاتراك ان هاجموا العراق سنة ٩٣٥ بعد ان استولوا على الشام ومصر

وقتلوا الغورى آخر المماليك[٢٤] وكان قانصوه الغورى قد ارسل قوة بحرية لتساعد عدن وامير مالابار الهندية فى صد البرتغاليين فدمرها هؤلاء[٢٥] . وثمة فوارق اخرى بين ادب شبه الجزيرة العربية وادب شمالها لا مجال لشرحها هنا ، مثل النهج التقليدى والطابع البدوى، وتقلص شعر المجون وقلته وانتشار شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ومدائح آل البيت واتسام هذا الشعر بالحرص على تجنب ما يبلبل العقيدة ويثير الشك والالحاد فى حين ان شعر التصوف فى العراق والشام وغيرهما لم يتقيد بمثل هذا الحرص والحذر. ومن الخصائص ايضا استمرار وصف الصحراء وحياتها فى شعر الاعراب ومقلديهم ووصف البحر والسفن والمعارك الحربية البحرية والمدن الساحلية ولاسيما الموانىء الافريقية الجميلة كزنجبار وممباسا وكلوه كما فى شعر الحضارمة والعمانيين المارين والمقيمين ... الخ ومهما كان فالذى يهمنا هنا ان الشعر (كان على كل لسان على حد تعبير الدكتور شوقى ضيف فى عرضه القيم الممتع للحياة الادبية فى الجزيرة العربية[٢٦] . وقد راج شعر الحرب والحماسة والفخر والمديح وبعض الاغراض التى تتسم بالاحداث الحربية والسياسية لان الحياة فى اقطار الخليج كانت توفر لها الحوافز والدوافع والظروف الملائمة فتتواثب فى قصائدها واشعارها صور الغزوات والمعارك والحروب الداخلية والخارجية. وكان العدوان البرتغالى اشد هذه الحروب وبالا واطولها عمرا فى تاريخ الجزيرة العربية فترددت اصداؤه فى شعر عمان وحضرموت والبحرين وفى نثرها الادبى والتاريخى،

وتفاوتت تأثيرات تلك الاصداء واختلفت قوة وضعفا باختلاف الظروف الحربية والسياسية والنفسية التى احاطت بأحداث ذلك الغزو الاستعمارى الذى دام قرنا ونصف القرن .

وهنا يجب ان نؤكد ان متابعة تلك الاصداء والصور فى دراسة كهذه لا تلتزم مطلق الالتزام بالمعايير النقدية الخاصة بالادب الرفيع ولا تهملها كل الاهمال لان الاهتمام هنا ينصب على الجانب التاريخى ومع هذا فان مؤرخ الادب لا يستطيع ان يتخلى عما يميز الدراسة الادبية التاريخية عن البحث التاريخى الصرف. ويحسن ان نعترف ايضا ان موضوعنا هذا وما يماثله من موضوعات لا تحظى عادة بأهتمام خاص لان حدثا تاريخيا كالغزو البرتغالى يتحرك حول محور واحد من محاور الادب ويدور حول موضوع رئيسى كبير تلتف حوله عدد من الموضوعات الثانوية ولا تجد لها أثرا الا فى اغراض شعرية معينة كشعر الحرب والحماسة والفخر والمديح وبعض انواع الوصف. لذا يندر ان نجد مؤرخا او باحثا يحصر اهتمامه فى موضوع كهذا ولا يتعداه لغيره الا اذا كانت هناك مناسبة كمناسبة إعداد هذا البحث التى خصصت لفترة الغزو البرتغالى فلولاها لما خطر ببالي ان اجازف لتصيد اصداء الغزو البرتغالى فى الشعر والنثر . لقد خيل لى من بادىء الامر اننى كالراكض وراء السراب. زد على هذا ان تاريخ اداب الجزيرة العربية وتاريخها السياسى والاجتماعى ما زالا محتاجين الى دراسات كثيرة وابحاث مفصلة عديدة واذا كانت الحياة الادبية فى اليمن قد نالت قسطا من العناية فى السنوات الاخيرة فان اقطارا اخرى كعمان والامارات وحضرموت لم تحظ الا بدراسات قليلة تعد على الاصابع. والحق ان حظ المؤرخ افضل بكثير من حظ الاديب لوفرة الدراسات التاريخية الحديثة التى قام بها المستشرقون والعرب والمصادر التاريخية الاولية المطبوعة والمخطوطة لذا كانت الشكوى من غياب المصادر الادبية وقلة الدراسات الحديثة تتكرر فى كل دراسة ادبية حول الادب وفنونه فى اقطار الجزيرة العربية فمعظم دواوين الشعر قد فقدت والقليل الذى سلم من الضياع مازال مخطوطا محتجبا فى اماكن يتعذر الوصول اليها وكتب التراجم المعنية بالشعراء والادباء ليس لها وجود. والمتأخر منها كخلاصة الاثر للمحبى وريحانة الالباء للخفاجي والسلافة لابن معصوم ونفحة الريحانة للخفاجى ايضا ونشوة السلافة لمحمد على بشارة وامثالها قلما تعنى أو تهتم بشعراء وادباء عمان وحضرموت واليمن فإن صادف وجود تراجم لبعض رجالها المشهورين فهي موجزة إيجازاً مخلا يحرج الباحث ويزعجه [٢٧] .

كانت عمان كما يعرف المؤرخون القطر العربى الذى نكب بالغزو البرتغالي مدة قرن ونصف فقد احتل الغزاة اكبر ثغورها وفتكوا بأهلها واشاعوا فيها الخراب، وقد تعرضت البحرين والقطيف للعدوان والاحتلال ايضا مدة طويلة ومع هذا فلانجد شيئا فيما كتبه شعراؤهما يرضى الباحث عن اثر الغزو البرتغالى فى الشعر والنثر . اما عمان فأهم دراسة عن شعرها للدكتور على عبدالخالق[٢٨] ليس فيها الا بعض الاشارات والنصوص لمستشهديها قليلة وقد سبق ان انتبه الى بعضها الدكتور شوقى ضيف وبعض المؤرخين[٢٩] . وكانت

حضرموت قد اصيبت هى ايضا بويلات الغزو البرتغالى وان لم يحتل البرتغاليون موانيها وسواحلها وانما اكتفوا بالاغارة عليها وباعمال القرصنة فى مياهها مرات عديدة خلال المرحلة الاولى من غزوهم على الاخص . ومع هذا لا نجد شيئا فيما عرفنا من شعرها ونثرها الادبى والتاريخى. فكتاب السقاف تاريخ الشعراء الحضرميين وهو كبير فى ثلاثة اجزاء او جز فيها المؤلف نحو مائة وعشرين ترجمة لشعراء حضارمة عاش منهم عشرات خلال القرنين الهجريين العاشر والحادى عشر للهجرة (فترة الغزو البرتغالى) لا نجد فيه نصا شعريا او نثريا واحدا ينعكس عليه ظل حدث صغير او كبير من احداث الغارات البرتغالية المتعاقبة على سواحل حضرموت وجزرها وسفنها[٣٠] وقد احتل البرتغاليون القطيف كما ذكرنا وبنوا فيها حصنا ولكننا لا نجد فى كتاب شعراء القطيف للشيخ على المرهون اية اشارة او نص يتردد فيه صدى ضعيف من اصداء العدوان البرتغالى الذى دام اكثر من قرن[٣١] ونصطدم بالعقبة نفسها اذا اتجهنا الى أدب البحرين التى احتلها البرتغاليون واقاموا فيها قلعتين طوال مدة وجودهم فى الخليج العربى. ولا نستطيع التثبت بعدم وجود اثر لهذا الغزو فى ادب البحرين ولعلنا واجدون اذا توفرت لدينا بعض المصادر . تلك اذن هى العقبة الكأداء اعنى مشكلة قلة المصادر للدراسات الخاصة باقطار الخليج والجزيرة العربية ولو لا فضل نفر قليل من المؤرخين واهتماماتهم الادبية وكثرة النصوص الشعرية والنثرية التى ذكروها ، اقول لو لا هؤلاء الافاضل كالازكوى والسالمى وابن رزيق والمعبرى من القدماء وشوموفسكى واستاذه كرانشوفسكى ووندل فيليبس وفران وغيرهم لما استطعنا ان نضيف شيئا الى الاشارات الخاطفة والوقفات القصيرة التى وجدناها فى بعض الدراسات الأدبية والتاريخية [٣٢].

واقدم اشارة ادبية الى البرتغاليين وردت فى احدى الاراجيز الثلاث المنسوبة للملاح العربى الذائع الصيت شهاب الدين بن ماجد التى اكتشفها المستشرق الروسى كرانشوفسكي بعد الحرب العالمية الاولى[٣٣] ثم قام بتحقيقها ودراستها بعد ذلك تلميذه تيودور شوموفسكى ونشرها بعنوان : ثلاثة ازهار فى معرفة البحار فى لينينغراد سنة ١٩٥٧[٣٤] وهى كما لاحظ كرانشوفسكى غير الاراجيز الشهيرة المسماة بالحاوية الموجودة فى كتاب (الفوائد فى اصول علم البحر والقواعد) الذى قام المستشرق الفرنسى جبرييل فران بدراسته والكتابة عنه ثم نشره فى باريس سنة ١٩٢٢[٣٥] .

يقول الاستاذ الروسي شوموفسكي فى دراسته (والترجمة العربية لمحمد منير مرسي ناشر الكتاب) : والجزء الثانى من الارجوزة الاولى حفل بالاشارات المتكررة (الى) الفرنجة (البرتغاليين) .. ويتكرر اسمهم (بقصد الاشارة اليهم) اربع عشرة مرة[٣٦] ويقول : وفى الاخبارات (هكذا جمعها) عن رحلات الفرنجة الذين وصلوا الى الحبشة واخذوا معلومات وصفية من كل قادم من الهند . ومن هذه الانباء عظمة واتزان فكر الانسان ولكن يتغير هذا الفكر لدى ابن ماجد، شاهد العيان لوقائع الاستعمار البرتغالي بنظامة الدخيل على المحيط الهندى الذى اساء الى الملاحة العربية فيجد انه من

الضرورى ان يعبر فنيا عن احساسه الثائر فيقول عن المستعمر البرتغالي :

وجـالكاليكـوت خذ ذى الفـائدة
لعـام تسعمـايـة وست زائـدة
وبـاع فيهـا واشتـرى وحكمـا
والسـامـرى (بـرطلـه) وظلمـا
وسـار فيـهـا مبغض الاسـلام
والناس فى خوف (وفى) اهتمـام
وانقطع المكس عن ارض السامرى
وشـد جـردفـون للمسـافـر
(وخبـرني) مـا حملـه الفـرنجى
من جانب السودان شط اللجىّ
وهـو الذى قـد قهـر المخـاربـة
وانـدلس فى حكمة منـاسبـة[٣٧]

ويمضى شوموفسكي قائلا :

«وبعد فترة قصيرة يعود المؤلف (يعني ابن ماجد) الى احداث عام ١٥٠٠ ـ ١٥٠١م : (ص ٩٤ أس ١٦ ـ ٢٠) :

وبعـد ذا من عـام تسعمـايـة
وست جاءوا الهنـد يـاأخـايـه
واشتـروا البيـوت ثـم سكنـوا
وصـاحبـوا وللسـوامـر ركنـوا
والنـاس تضرب فيهم الظنـونـا
ذا حـاكم او سـارق مجنـونـا
وتضرب السكـة وسط البنـدر
بنـدر كـاليكـوت بـين السفـر
يـاليت شعرى مـا يكـون منهم
والنـاس معجبـين من امـرهـم

ويرى المستشرق ان فى ابيات الاراجيز نبرات ندم فيقول بعد هذه الابيات : وبهذا الندم المرير لملاح فاسكو دى جاما والتاريخ الذى يشير اليه شهادة ذات اهمية تاريخية ادبية من الدرجة الاولى. ولا يوجد حتى الان اى مصدر اخر يتضمن هذه المعلومات من المصادر التى بنيت عليها دراسة فاسكو دى جاما وابن ماجد. وهناك فى نهاية كل من الاراجيز الثلاث يرد لحن خاص يكمل الصورة العامة للمزاج الفكرى عند المؤلف (الناظم) فهناك الشكوى من هبوط روحه المعنوية التى يفسرها على ما يبدو بضعف التأثير الاسلامى فى الخارج[٣٨] واشارات ابن ماجد الى البرتغاليين وملاحظات محققها المذكورة اثارت اهتمام المستشرق الروسى الاستاذ اولد وروجى الذى كتب لها مقدمة يقول فيها بعد ان ذكر اربعة ابيات منها اولها (وجالكاليكوت) :

«وكان قدر ابن ماجد تراجيديا، فقد كان شاهدا على ما قام به البرتغاليون من افناء للسلاطين العرب فى شرق افريقيا وتدعيم قبضتهم على لبنة الاستعباد الاستعمارى لشعوب جنوب آسيا. ومنذ ذلك الحين مرت ٤٥٠ عاما كانت لشعوب الشرق فترة ظلم واستعباد ... «الخ[٣٩] وادرك شوقى ضيف اهمية رجز ابن ماجد التاريخية الادبية. تاريخ الجزيرة العربية وادبها واهمية ملاحظات شوموفسكي واولد روجي فقال وهو يتحدث عن الملاحة العربية وعن ابن ماجد :

«ومن سوء طالع هذا العالم العربى الفذ فى علم الملاحة البحرية وهو على وشك ان يختم حياته وقد بلغ سبعين عاما ونيفا ان تعرف عليه فى (مالندى) بشرقى افريقيا فاسكو دى جاما البرتغالي وكان قد يئس من الوصول الى الهند عن طريق البحر اذ كان يجهل هو وربابنته البرتغاليون الطريق البحرى اليها، وكانت سفنهم كلما خرجت فى المحيط الهندى واتجهت نحو الهند تحطمت ولم ينج منها احد. ونعجب ان نرى ابن

ماجد يتحول له مرشدا يهديه الطريق فى سنة ٩٠٦ للهجرة الى كلكتا فى الهند. وبذلك يكون ـ لغفلتـه ـ اداة للاستعمـار البغيض. البرتغالي اولا، ثم الانجليزي والفرنسي والهولندى من شاطىء افريقيا الشرقى الى جزر الهند الشرقية وبحر الصين. وسرعان ما شعر بسوء فعله فصور ذلك مرارا في ألم ومرارة عن فاسكودى جاما واصحابه البرتغاليين فى الارجوزة الاولى من «ثلاث ازهار فى معرفة البحار».

وجـالكاليكـوت خذ ذى الفـائدة
لعـام تسعمـايـة وست زائـدة
وسـار فيـهـا مبغض الاسـلام
والنـاس فى خـوف وفى اهتمـام
واشتـروا البيـوت ثـم سكنـوا
وصـاحبـوا وللسـوامـر ركنـوا

وهو يريد ـ الكلام لشوقى ضيف ـ بالسوامر البرتغاليين نسبة الى السامرى الذى صنع العجل وعبده بنواسرائيل، يريد انهم كفار. ومع ذلك صاحبهم حاكم ثغر كاليكوت في الهند. وكأنما عرف قصر نظره وشناعة عمله بعد فوات الأوان. ومع أنه أكثر من الاراجيز والقصائد مما يدل على أن نبع الشاعرية عنده كان فياضا يختل الوزن عنده أحيانا (٤٠).

وتفسير شوقي ضيف لمعنى لفظة (السوامر) لا وجه له هنا فالسوامر هم رهط السامرى حاكم كاليكوت كما ذكر زين الدين المعبرى فى (تحفة المجاهدين) وابن رزيق والسالمى وغيرهم من المؤرخين. وقد عاصر المعبرى تفاصيل الفظائع التى ارتكبها البرتغاليون وصب بعض غضبه وسخطه على السامرى والسامريين باسلوب يتسم بالألم والمرارة التى لاحظناها فى رجز ابن ماجد.

ان القيمة الفنية والأدبية لمنظومات ابن ماجد ضئيلة لافتقار الشعر التعليمي كله الى عناصر الفن والجمال إلا أن هذه القيمة الضئيلة لا تنفى أنها أثر منظوم من آثار الأدب عكس مشاعر عالم كبير وأديب شاعر عبر تعبيرا صادقا عما تركه الغزو البرتغالى فى نفسه ونفوس العرب والمسلمين من أبناء عصره. ولا يفوتنا أن ابن ماجد ينظم للربابنة والملاحين وهم صنف لا يلم بأصول الثقافة الأدبية واللغوية المام طلاب علوم اللغة والنحو والفقه والكلام وسائر الذين اعتادوا أن ينظم لهم شيوخهم اراجيز الشعر التعليمى. ثم أن اراجيز ابن ماجد بمثابة دليل بحرى ملاحى علمى جغرافى للرحلات عبر البحار والمحيطات فهو اذن ضرب من النظم يتيح للناظم فرصا للتصوير والتلوين والتنويـع والتطرق الى بعض الأحداث ووصف أحوال البحار والجزائر على الرغم من الصعوبات العديدة التى تعترض النظم فى هذا النوع الفريد النادر من الشعر التعليمى لأن كثرة الأسماء الغريبة للجزائر والبحار والسواحل والمدن والأقوام اضافة الى ما تنطوى عليه علوم الملاحة من المصطلحات العلمية والأسماء الأعجمية والمعربة والمحرفة والعامية تضطر الناظم الى اثقال النحو المنظوم وارباك وزنه بالعلل والـزخارف والألفـاظ والعبارات الخارجة على قواعد اللغة والنحو والصرف ومع هذا كله فان هذه المساوىء والهنات قليلة بالقياس الى ما ذكرناه من خصائص هذا الضرب من النظم ومشكلاته.

وإذا تركنا ابن ماجد واراجيزه فلا نكاد نجد فى آثار القرن العاشر الأدبية ما يدل على تأثر الشعراء والكتاب والأدباء بأحداث

الغزو البرتغالى وهو فى مرحلته الأولى . أيكون هذا خطأ سببه قلة مصادرنا وضياع الأشعار ودواين الشعر والنثر ؟ أو أن الهزائم التى أنزلها البرتغاليون بالعرب من العمانيين والحضارمة وأبناء الخليج والهنود المسلمين وبالأسطول المصرى والعثمانى قد شلت المواهب وأخرست الألسن فسكتت وكأنها تنتظر نصرا كبيرا على الغزاة ينفس عن مشاعر الغيظ المكتوم ويطلق السنة الشعراء والأدباء من حبوسها ؟ وهل كان سبب هذا السكوت الصراعات العنيفة على السلطة والحروب الداخلية المستمرة فى عمان وحضرموت وأقطار الخليج العربى من شيوخ القبائل والأمراء وهى حروب استهلكت طاقات الشعراء ومواهبهم وشغلتهم كما شغلت الزعماء المتنازعين هجمات البرتغاليين المتوالية ونجاحهم فى احتلال صحار وجلفار وقريات وهرمز والبحرين والقطيف والصعود حتى جده ومحاولة غزوها وقطع الطريق على السفن العربية فى المحيط الهندى ومنعها من الوصول الى شرقى افريقا والهند وارتكابهم ابشع جرائم القرصنة فى البحر والحرق والنهب والتدمير واسترقاق الأسرى والسبى فى البر ثم قيامهم زيادة على هذا بالتدخل بين المتنازعين فى عمان وظفار ومساعدة بعضهم وتحريضه على الآخرين للتخلص منهم جميعا . وهل كان السبب ضعف العرب والمسلمين فى ذلك العصر نتيجة التفرق والتمزق وسقوط الدول العربية الكبرى وغير ذلك مما يطول ذكره ؟ مهما كانت أسباب سكوت الشعراء والأدباء ازاء الغزو البرتغالى فما على الباحث إلا تسجيل هذا السكوت والمضى فى البحث والتنقيب أملا فى العثور على ما يغير الصورة أو يصححها .

ففى سنة ١٤٩٧/٩٠٥م - وصل فاسكودى جاما الى شرقى افريقيا ثم عبر الى الهند وعاد فى سنة ١٥٠٠م - عاد بأسطول أكبر الى المنطقة وانتزع السيادة على المحيط الهندى من العمانيين ثم غزا النبهانى آخر أمراء بنى نبهان . وقد عزله العمانيون فى تلك السنة نفسها بعد ثورة الإباضية وأنصارهم فهرب الى هرمز وعاش حتى سنة ٩١٥هـ/١٥١٠ . أترى أن هذه الحروب الداخلية قد شغلته عن إدراك خطر الغزو البرتغالى ؟ أو أن أحداثه المبكرة جرت فى شرق افريقيا والهند بعيدا عن عمان ؟ ولكن الوقائع التالية من تاريخ عزل الأمير النبهانى سنة ٩٠٦هـ وفراره ووفاته سنة ٩١٥ دارت على سواحل عمان نفسها ، فقد احتل البرتغاليون صحار وقريات وقلهات قبل وفاته . ولكن الذين رووا بعض أخباره وأشعاره ونشروا ديوانه فى عصرنا هذا لم يشيروا الى أى أثر من آثار الغزو البرتغالى فى شعره . ولم أعثر على نسخة من الديوان فى بغداد كى أتأكد من خلوه من أية اشارة الى البرتغاليين وهو ما ارجحه لأن الأمير الشاعر كان منشغلا بالدفاع عن عرشه وحياته وما جلب له عزله وفراره من هموم وصدمات نفسية ابعدته عن مسرح الأحداث . وكان النبهانى أكبر شعراء عمان فى عصره وشعره كما يقول شوقى ضيف «يفيض بثقافة لغوية وأدبية جيدة وهى ثقافة تتضح بجلاء فى معارضاته الكثيرة للشعراء . ولكن من الحق أنه مع هذه المعارضات الكثيرة فى ديوانه واغاراته على معانى الأسلاف واخيلتهم وأفكارهم شاعر مجيد يحسن رصف الكلم والموضوع الأساسى فى ديوانه هو الفخر وهو

شيء طبيعي إذ كان سلطانا وصاحب دولة ... الخ» [٤١] وينصب اهتمام النبهاني أيضا على الغزل ووصف مجالس الشرب واللهو، ويقول على عبد الخالق عن شعر النبهاني انه «تعبير عن ملذاته ونمط حياته وهي ذاتية ملك شاعر، تماما كما كان الشأن في امرىء القيس الملك الضليل، فالنبهاني هو الملك العربي وقد دفعه الى ذلك حياة الترف واللهو والغنى ... الخ» ثم يبالغ على عبد الخالق حين يعقب: «وشعر النبهاني أصدق مثال للغزل الفاضح واللهو والمجون ..» [٤٢] فاذا وصفنا غزل النبهاني الممعن في التقليد والنسج على منوال الجاهليين والاسلاميين بالعربدة والمجون فماذا نقول عن غزل ابي نواس وأضرابه ومن لف لفهم؟ وفصل المقال عن النبهاني وشعره أن ظروف حياته وسلطته التي عصفت بها الأهوال السياسية الداخلية، وابتداء الغزو البرتغالي في شرقي افريقية سنة ٩٠٦هـ هي السنة التي خلع فيها ووصول البرتغاليين الى عمان بعد خلعه بوقت قصير ثم وفاته عام ٩١٥هـ قبيل سقوط مسقط بأيديهم كل ذلك حال دون تأثره وتأثر شعره بوقائع الغزو البرتغالي ونتائجه المدمرة. ولم تتحسن الأحوال السياسية في عمان خلال امامة محمد بن اسماعيل الخروصي (٩٠٦ - ٩٤٢هـ) بل ازدادت سوءا وتمزقا في آخر سني حكمه وخلال حكم خلفه بركات بن اسماعيل وبقيت في أسوأ حال حتى عام ١٠٢٤هـ/١٦١٥م عندما بايع العمانيون ناصر بن مرشد اليعربي الازدي وبولايته انتهى عهد بني نبهان الاخير وأسست دولة اليعاربة التي أعادت اليها الوحدة والقوة وبعثتها بعثا جديدا. وكان البرتغاليون قد احكموا سيطرتهم على ثغور عمان وتحصنوا في مسقط والبحرين والقطيف وهيمنوا على الخليج العربي هيمنة تامة وفرضوا سيادتهم على ساحل الهند الغربي الشمالي وعلى كلكتا وعلى الثغور المهمة من ساحل افريقيا الشرقي والقرن الافريقي وجعلوا المحيط الهندي تحت قبضتهم البحرية. وبأمامة ناصر بن مرشد ابتدأت مرحلة تحول حاسم في تاريخ عمان والخليج العربي والمحيط الهندي فقد وحد الصفوف بقوة وحزم وحنكة سياسية وقضى على الفتن والمغامرات والأطماع وجعل من عمان دولة قوية وسجل بداية النهاية لمأساة الغزو البرتغالي عندما دحر البرتغاليين عدة مرات واسترجع منهم معظم الثغور العمانية جنوب مسقط وحاصرهم وضيق الخناق عليهم في مسقط التي اصبحت آخر المعاقل الحصينة التي اهتموا بها.

والذي يعنينا هنا أن المصادر التي بين أيدينا لا تقدم لنا نصوصها الشعرية أثرا أو صدى من أصداء الغزو البرتغالي في أدب عمان والخليج بين أوائل القرن العاشر وأواسط القرن الحادي عشر للهجرة. لقد انجبت عمان وأقطار الخليج عشرات الشعراء والأدباء فالشعر كان وما زال فيها هو الفن المفضل على فنون الأدب بدليل أن أسماء شعرية عديدة تتردد في المصادر التاريخية مع نماذج أو شواهد من شعر الحماسة والفخر والمديح الذي قيل في أثناء النزاعات والحروب المتوالية بين الأمراء أو بين شيوخ القبائل الكبيرة، وليس من المعقول أن تتعاقب أحداث الغزو البرتغالي وتمر على اغتصابهم الثغور العمانية السنين

دون أن يسمع صدى من الأصداء في شعر شاعر أو ناثر أديب . والرأى الراجح أن ضياع دواوين الشعر والمصنفات هو الذى حرمنا من العثور على نصوص نجد فيها بغيتنا . ولعل اكتشاف ما فقد أو بعضه ونشره فى المستقبل كفيل بإزاحة الظلام المخيم على الحياة الأدبية خلال فترة الغزو التى استغرقت القرن العاشر والحادى عشر ومحت من تاريخ عمان العصر التاريخي والأدبى الممتد بيت آخر عهد النبهانيين وأواسط عهد اليعربيين . فالملاحظ أن الحياة الأدبية قد نشطت وأن الشعر قد انتعش بعد انتقال الحكم الى اليعاربة ونجاحهم فى بعث عمان القوية من جديد وتسنى للشعراء أن يتغنوا بأمجاد ناصر بن مرشد وأحلافه وانتصاراتهم على الغزاة البرتغاليين وفى هذا يقول الدكتور علي عبدالخالق: «كان قيام الدولة اليعربية (١٦٢٢ ـ ١٧٤١م) مدفوعا بأسس دينية ، وبدأ منذ نشأتها دورها البارز فى طرد البرتغاليين من منطقة الخليج العربى وشرق افريقية الى جانب صراع المواجهة المنتظر مع الفرس جهة الشرق . ووضحت القوة الحربية لهذه الدولة ، كما أصبح اسطولها يسيطر سيطرة شبه كاملة على طريق التجارة الى الهند . ومع هذه النهضة الحربية فاننا سنكتشف أن الحياة الأدبية فيها بقيت تسير على نمط الشعر فى عهد بنى نبهان (٥٤٩ ـ ٨٠٩هـ/ ١١٥٤ ـ ١٤٠٦) رغم أن كثيرا من الأئمة كانوا يتذوقون الشعر كما ورد عن الامام يعرب بن سلطان اليعربى قوله :

ولما رأيت الناس لم أر صاحبا
أخاثقة فى النائبات العظائم
وأبصرت فيهم من رخاء وشدة
فلم أر منهم غير كسب الدراهم

أما شعراء هذا العصر فمن جملتهم خلف بن سنان الغافرى، ومحمد بن مسعود الصارمى، وعلى بن ناصر الريامى والمحروقى والحبس. وهؤلاء قالوا الشعر فى مدح ائمة اليعاربة وذكر انتصاراتهم فى الخليج والهند وشرق افريقيه (٤٣) .

ونحن لا يهمنا كثيرا فى هذه الدراسة ما قيل عن القيم الفنية والجمالية لشعر هذا العهد من خلال موازنته بشعر العهد النبهانى والعهد العباسى، ولا يصح ايضا الحكم عليه وفق معايير النقد الحديث والذوق الادبى والنقدى المعاصر وهذا ما يلاحظ على اقوال صاحب (الشعر العمانى) وأحكامه . انما الذى يعنينا ويشغلنا حقا ان الحملات التى شنها اليعاربة على البرتغاليين المعتدين والانتصارات التى احرزوها ونجاحهم فى طرد الغزاة من ثغور الخليج والبحر العربى ومن موانىء الساحل الافريقى الشرقى قد انعكست صور منها في شعر الشعراء وفي النثر الديوانى الرسمى والنثر التأريخي. صحيح ان هذه الصور والاصداء ليست كثيرة او انها لا تتناسب مع الانتصارات العربية وان قيمتها الفنية لم تصل الى المستوى الذى وصل اليه الشعر العربى فى عهود الازدهار والتفوق الماضية الا انها ذات اهمية كبيرة إذا قيست بظروف العصور المتأخرة السياسية والحربية والادبية والفنية. ولو وصلتنا دواوين شعراء العصر اليعربى لتوفر لنا شواهد اكثر مما رواه ابن رزيق والسالمى والمصادر التأريخية والغريب

أننا لا نجد فى شعر العهد اليعربى قصائد او مقطوعات تشيد بإيمان الامام ناصر بن مرشد مؤسس دولة اليعاربة وتتغنى بانتصاراته على البرتغاليين الا ان الادب الدينى والقصص والشعبى يحفل باقاصيص واخبار اشبه بالاساطير والحكايات التى ينسجها المثال الشعبى حول كبار الابطال. ولعل الشعر الذى قاله الشعراء فى مدحه فقد اولم يصل الى الرواة الذين اعتمد عليهم ابن رزيق والسالمى وغيرهما او ان هذا الامام اليعربى الزاهد المقتدى بالرسول (ص) والصحابة الابرار لم يكن يثيب الشعراء او يجزل لهم العطاء شأنه شأن اغلب مؤسسى الدول الكبار لذلك وجدنا كل الاشعار التى تغنت بانتصارات العمانيين وصورت هزائم البرتغاليين موجهة لخلفاء ناصر بن مرشد ولا سيما خلفه وابن عمه سلطان بن سيف (١٠٥٠ ـ ١٠٩١ هـ) «الذى شمر وجاهد ونصب الحرب لمن بقى من النصارى (البرتغاليين) بمسكه (مسقط) وسار عليهم بنفسه حتى نصره الله عليهم وفتحها، ولم يزل يجاهدهم فى بر وبحر فأستفتح من بلدانهم وخرب كثيرا من مراكبهم وغنم كثيرا من أموالهم» (٤٤) كما تغنى الشعراء بامجاد ابنه وخليفته بلعرب بن سلطان ثم خلفه سيف بن سلطان الملقب (قيد الارض) الذى : « حارب النصارى فى كل الاقطار واخرجهم من ديارهم وابتزهم من قراهم. وأخذ منهم بندر ممباسه والجزيرة الخضراء (زنجبار) وكلوة وبت وغيرهن من البلدان من ناحية الزنج بأرض السواحل (٤٥) وكان والده سلطان كما يقول وندل فيليبس : « قد وجه اهتمامه خلال حكمه ايضا الى افريقيه فطرد البرتغاليين من كل الموانى شمال قناة موزمبيق، وجعل من عمان العامل الحاسم فى شئون شرق افريقيا » (٤٦) ويذكر المؤرخون انه قام بذلك مستجيبا لاستنجاد وفد من كبار رجال ممباسه ناشدوه انقاذهم من نير البرتغاليين وجرائمهم الوحشية، فقامت السفن العمانية بالغارة على زنجبار واستولت على المستوطنات البرتغالية فيها فاعلنت زنجبار ولاءها لسلطان عمان (٤٧) ولا ريب فى ان هذه الانتصارات المجيدة قد ألهبت حماسة الشعراء فترنموا فى مدائحهم لهؤلاء الائمة السلاطين. ولا ريب ايضا فى ان تحسن الاحوال المالية بفضل هذه الانتصارات قد اتاح لهم ان أجزلوا العطاء للشعراء فافاضوا فى مدحهم والاشادة بامجادهم الحربية. وكان الشاعر خلف بن سنان الغافرى اول من لفت انظار مؤرخى الادب الذين انتبهوا الى الغزو البرتغالى وبعض اصدائه فى الشعر العمانى. وكان ابن سنان احد قضاة الامام سلطان بن سيف اليعربى وكان عالما فقيها محبا للادب يحسن قرض الشعر على طريقة الفقهاء المهتمين بالتأريخ وقد نظم قصائد طويلة فذكر السالمى فى تحفة الاعيان ثلاثة واربعين بيتا من احداها وقد لفتت بعض ابياتها التى ذكرت البرتغاليين واشادت بانتصارات الامام سلطان عليهم أنظار بعض المؤرخين العرب المهتمين بتأريخ الخليج كالاستاذ سليم طه التكريتى فذكر ثلاثة ابيات منها فى فصل تأريخى خصصه للغزو البرتغالى (٤٨).

ولفت هذا الموضوع نفسه انظار مؤرخ الادب الكبير الدكتور شوقى ضيف فقال : وهو يتحدث عن شعراء الخوارج فى الجزيرة العربية : « وتعود عمان الى النبهانيين فترة من القرن العاشر، ثم يستولى عليها نهائيا ناصر بن مرشد (١٠٢٤ ـ ١٠٥٠هـ) وتظل منذ هذا التاريخ فى ايدى الخوارج. وكان البرتغاليون قد نزلوا فى شواطئها، فأخذ ينازلهم وظلت مدينتا صحار ومسقط فى ايديهم، واستطاع خلفه سلطان بن سيف اليعربى (١٠٥٠ ـ ١٠٩١هـ) ان يطردهم من البلاد نهائيا وتبعهم اسطوله ينكل بهم وباسطولهم فى شرقى افريقية وغربى الهند. وفى ذلك يقول شاعره خلف بن سنان الغافرى ممجداً :

ثم أورى لمسقط سقط عـزم
اسقط الظالمين منه ضرام
وغدت من عمان كف بنى الأصـ
فر صفرا قد هزها الانهزام
وبمباسة اذاقهم بأسا بئيـ
سا سيئت به الاصنام
ولدى زنجبار زمجر فيهم
وعد زجر لم ينج منه اعتصام
وببمبانى نالهم منه نات
لم يشبه عن المضى انهتام

وهو يشير الى انتصارات اسطول سلطان على الاسطول البرتغالى فى ممباسة وزنجبار وبمبى بالهند وهى انتصارات جديرة بكل تمجيد واشادة (٤٩) وليس هذا كل ما جاء فى هذه القصيدة الطويلة عن انتصارات سلطان بن سيف على البرتغاليين. فمنها ايضا :

وفدوا (مسقطا) وعدة بلد
ان عليها ومع القسوس سجام

وقوله يصف رعب البرتغاليين :

أبهم العقل عنهم فاتاهم
عنوة ما اصفرت به الابهام
همهمت فيهم رعود حتوف
من همام فى ملكه مهمام
وسباهم ألفى أسير كأن قد
مازج الدمع منهم العلام
واقتنى منهم كنوزا غدا يبـ
هر منها قارون بل بهرام

وعن استيلاء العمانيين على حصنين فى مسقط هما الجلالى والميرانى يقول ابن سنان :

ماد عن أرضها كفيتا ومور
بعد شهد له المرار طعام (٥٠)
وتجلى عنها جلال
فلله علينا الا جلال والاعظام

وواضح ان هذا الشعر بعيد جدا عن الذى وصل اليه شعر الحماسة فى العصرين الجاهلى والاسلامى وفى العصر العباسى وخاصة فى شعر ابى تمام والمتنبى وأبى فراس الحمدانى وليس هذا بغريب فقد غلب الضعف على الشعر العربى بوجه عام فى هذا العصر، اننا ازاء شعر نظم فى القرن العاشر للهجرة وهو من اشد عصورنا الادبية ظلاما وهو ظلام يقطع أنفاس الشعراء بل يخنقهم خنقا. ولعل عمان هى المكان الوحيد فى الوطن العربى الذى نجد فيه شعراء يتغنون بانتصارات عربية خالصة.

وقد امتدح شاعر آخر هو محمد بن

مسعود الصارمى سلطان بن سيف اليعربى بقصيدة طويلة وصف فيها هجومه على (بته) التى كان البرتغاليون يتحصنون فيها وهنأه بالنصر مفتخرا بشجاعته وحسن قيادته وفتكه بالبرتغاليين واسترجاعه الحصن منهم ودمغهم بالذل والخزى والافتضاح ويفتتح الصارمى قصيدته بالغزل على عادة الشعراء القدماء قائلا : (٥١) .

كشفن عن تلك الوجوه الصباح
اذ رمت العيس ليوم المزاح
وجئن يختلن يعاتبنني
يبسمن عن دركلون الأقاح

وفيها يقول عن الهجوم على بته وتحريرها من البرتغاليين :

أطوى الفلا واليم فى فيلق
يطفىء ضوء الشمس والجو صاح
حتى اتينا بته بالضحى
ثم نزلناها بأرض مراح
قلت لاصحابى لا تحزنوا
من عزه الله فلا يستباح
اصطنعوا الصبر ولا تجبنوا
عند الوغى فالجبن لؤم صراح
ثم اعلموا لا بد للمرء من
موت وبالهدى فيه الفلاح
فامتثلوا الامر ولا قصّروا
وجردوا اسيافهم والرماح
فاقتحموا السور كاسد الفلا
واشتدت الحرب وضرب الصفاح
كانما القتلى بارجائها
من فئة الافرنج صرعى طراح
كانهم اعجاز نخل بها
منقعر من عاصفات الرياح
فانهزم الافرنج من بتة
بالذل والخزى وبالافتضاح
بعدا لهم بعدا وسحقا لهم
من قوم سوء ووجوه قباح
بعزم سلطان بن سيف الذى
أباد اهل الكفر يوم الكفاح

ويكثر القصص الذى يصور بطولة سلطان بن سيف محرر مسقط المنتصر على البرتغاليين فى كل مكان وجدوا فيه فى عمان وسواحل الخليج والساحل الشرقى لافريقيا وبعض هذا القصص دار حول وقائع حقيقية كالرواية التى تسرد حكاية الهندى البانيانى سكبيلة الذى كان هو واخوه نروثم يعملان مع البرتغاليين وكيف حاول القائد البرتغالى إجباره على ان يزوجه ابنته الهندية الجميلة وكيف رفض البانيانى ذلك ثم تظاهر بالموافقة واتصل برجال الامام سلطان بعد ان استعان بالجميلة فاتلف طعام البرتغاليين ونصح العمانيين بالهجوم فجر يوم الاثنين لأن البرتغاليين يعجزون عن القتال لكثرة ما يشربون من خمور وما يأكلونه مساء الاحد (٥٢) .

ومن الادب الفصيح المواعظ والرسائل التى كان يكتبها الزهاد والعلماء من اهل الادب للامام ناصر والامام سلطان وقد ذكر احداها السالمى فى تحفة الاعيان وهى فصيحة اى موعظة وجهها الشيخ سعيد بن احمد لاحد الامامين ناصر او سلطان لان الناقل لم يعرف لايهما. وهى طويلة غطت نحو سبع صفحات من كتاب تحفة الاعيان. وتبدأ الموعظة بالبسملة وحمد الله والدعاء للامام وللامة بالرحمة والنصر وقهر الاعداء.

واسلوبها فصيح والفاظه مختارة وعباراته واضحة يقل فيها السجع وتكلف البديع واستعمال الغريب.. وهي على أية حال نموذج جيد يمثل رواج أدب المواعظ في هذا العصر المتأخر.

ويتوفى سلطان بن سيف ويتولى الامامة بعده ابنه بلعرب بن سلطان سنة ١٠٩١هـ فقام بالحق وسار بالعدل وعمر جبرين وبنى فيها حصنا وانتقل من تروى اليها... الخ ومن اطراف ما روى المؤرخون من اخباره وصول رجل من تونس يدعى الشيخ عمر بن سعيد الجربي الاباضي وقد سر الشيخ المغربي بأحوال عمان ولكنه رأى مجالس العلم بها قليلة فكتب للإمام موعظة تنصحه بأن يحث الرعية على طلب العلم وإقامة المجالس وعمارة المدارس. وهي موعظة طريفة واسلوبها بعيد عن التعقيد يختلف عن اساليب مواعظ العصور المتأخرة المثقلة بالسجع وبانواع البديع المتكلف (٥٣). وطرافة هذا الخبر تتجلى من دلالته على اهتمام العمانيين الإباضية بدعم علاقاتهم بأباضية المغرب والتعاون واياهم في المجالات الدينية والثقافية والافادة مما ينجم عن هذا التعاون من منافع سياسية (٥٤).

وقد نشط الشعراء في مدح الامام بالعرب. يقول السالمي .. وقد كثر الناس في الثناء على هذا الإمام، ورأيت في مدحة ديوانا حافلا محتويا على قصائد طنانة بلغت من فنون البلاغة مبلغا عظيما. وعلى هوامشها تنبيهات على انواع البديع في الابيات وقد غاب عنى هذا الديوان فلم اره منذ زمان وانما رأيته ايام الصغر واحفظ من اوائل بعض قصائده ابياتا.. الخ والقصيدة الثانية التى أحفظ منها ابياتا مطلعها:

الله اكبر جاء الفتح والظفر
واشرقت في الدياجى الانجم الزهر
واصبحت سبل الاسلام واضحة
اعلامها واستقام السمع والبصر (٥٥)

وواضح ان معنى البيتين يتضمن فيما يتضمن التنويه بانتصار العمانيين على الغزاة البرتغاليين فالفتح والظفر واشراق الانجم في الدياجى ووضوح سبل الاسلام واعلامها تدل على ان الهزيمة قد الحقت بالمعتدين على بلاد العرب والمسلمين. واكبر شعراء ايام الامام بلعرب بن سلطان (١٠٩١ - ١١٠٤هـ) هو الحبس راشد بن خميس بن جمعة وقد اشاد بشاعريته السالمي في تحفة الاعيان وكتب له ترجمة وافية ذكر فيها ان للحبس مدائح في الامام بلعرب وله فيه رثاء ومدائح في غيره من ائمة اليعاربة وله مدائح نبوية على عدد حروف المعجم صدر بها ديوانه الذى فيه من فنون الشعر شيء كثير (٥٦) ولم يصل الينا هذا الديوان. ومع هذا فان في القطعة التى ذكرها السالمي وهي من قصيدة نونية في مدح الامام بلعرب ابياتا تفخر بانتصارات العمانيين على البرتغاليين ولا سيما قوله:

وقائل من ملوك الارض خائفة
منه وتحمده في السر والعلن
ومن اذا سار في جيش تضيق به
وسع البلاد ووسع السهل والقنن
جيش يبيد العدا في البر يعقبه
جيش يبيد اهيل الشرك في السفن (٥٧)

ولا ريب ان المقصود بـ (اهيل الشرك في

السفن) هم البرتغاليون الذين بقيت فلول منهم. وبعض سفنهم التى كانت تمارس القرصنة فى الخليج بعد ان فقدت صلتها بقيادتها ولم تبق لها قاعدة بحرية ترسو فيها. ولم ترو المصادر كثيرا من شعره مع انه كان اكبر شعراء العصر واكثرهم مدحا. للامام بلعرب وخلفه سيف بن سلطان (قيد الارض) الذى قضى على الغزاة البرتغاليين قضاء تاما وحارب النصارى فى جميع الاقطار وعمل لهم مراكب عظيمة فى البحر، وعظم جيشه وقوى سلطانه حتى قيل انه اجتمع له فى الجيش الذى دخل به الهند ستة وتسعون الف عنان (يعنى الحصان وراكبه) وكان له تسعون الف حصان ذكرها الحبس فى قصيدة خاصة بها سماها الخيلية وهى من اجود شعره كما يرى السالمى. وقد وردت فى بعض ابياتها عبارات وصور مستوحاة فيما يبدو من الحروب والحملات البحرية التى شنها الامام قيد الارض على بقايا البرتغاليين كقول الحبس فيها يصف خيله :

كادت تكون مع الفتعاء طائرة
لو لم تكن بيدى فرسانها اللجم
فكيف تقوى العدا يوما على شهب
بها الشياطين فى يوم الوغى رجموا
لم ينـج منهـزم منهم وملتجىء
لـو انـه بـرؤوس النيق معتصم
تستغرق البر والامطار ساكبـة
وتقطع البحر والامواج تلتطم

(٥٨)

وبعد ان يروى السالمى القصيدة كلها يعقب قائلا : عن الامام قيد الارض :

« واخذ من النصارى ممباسا والجزيرة الخضراء وكلوة وبتة وغيرهن من البلدان التى بالزنج ومن البلاد التى بالهند. كذا قيل والصحيح ان ممباسا وكلوة اخذها والده الامام سلطان بن سيف » (٥٩). وقد مر بنا شعر محمد بن مسعود الصارمى الذى يصف هجوم سلطان على (بتة) فى شرقى افريقية واقتحام حصنها واحتلاله، وطرد البرتغاليين منه وأرجح الظن ان هذه الحملة البحرية البرية هى التى طردت البرتغاليين ايضا من ممباسا وغيرها من المواقع على الساحل الافريقي. وممن اشار الى الغزاة البرتغاليين والانتصار عليهم شاعر آخر غير معروف هو محمد بن صالح المنتفقى البصرى ساكن الصير، ويبدو انه شاعر عراقي نزح اليها، ورد ذلك فى قصيدة رثى بها سيف بن سلطان بعد وفاته سنة ١١٢٣هـ . ويقول السالمى انه لم يظفر بها كلها وانما وجد منها قطعة لا تخلو من تحريف. والذى يهم موضوعنا منها قول المنتفقى فيها : (٦٠)

فسل النصارى ما رأوا من برهم
والبحر من تلك الجيوش الغاشية
كم احرقوا كم اغرقوا من مـرة
كم ذوقوا ضربا يهـد الناصيـة
كم مـزقـوا بـددا فشبههم عـلى
ضأن غشت فيها سباع ضاربـة
مـا بالكم اولاد الاصفر صفرت
جمر الوطيس وجوهكم يا صابية
ثـم انقلبتم خـاسئـين ومسكـم
نفخ الوبا فبطونكم كـا لخابيـة
وانشد مراكبه التى صدمت مرا

كبهم واهدتها بنادق حامية
الملك ثم الفلك ثم الناصرى
مع كعب رأس كالجبال الراسية
كم خرقت كم غرقت كم حرمت
من برشة حربية او باغية
كم غادرت جثث الكلاب مجافة
او جيفة فى البحر تذهب طافية (٦١)

هذا ما جاء فى القصيدة من الابيات التى تصف اندحار البرتغاليين وسفنهم وتفخر بقوة الاسطول العماني وشجاعة رجاله. ومع ان هذا الشعر لا يرقى الى المستويات الفنية العالية شأنه شأن اكثر ما قاله الشعراء فى احداث الغزو، فان وصف الشاعر المنتفقى ما حل بالغزاة من الهزائم وما اصابهم من الويل والقتل واسر فى البر والبحر لا يخلو من الانفاس الشعرية. أما قيمته التأريخية التوثيقية فغاية فى الاهمية لانها اوصاف شاهد عيان تصور على ما فيها من مبالغات الاصداء المدوية التى بثها الانتصار على الغزاة البرتغاليين فى المحافل الادبية وفى المجتمعات العربية فى الخليج وفى البلاد العربية والاسلامية الاخرى.

واذا استثنينا الحبس وهو شاعر فحل يتأثر اسلوب ابى تمام والمتنبى ولا يسرف اسراف شعراء عصره فى استعمال البديع فأكثر ما قاله الشعراء فى الغزو البرتغالى ضعيف. وقد لاحظ الدكتور على عبدالخالق فى قصيدة خلف بن سنان « على هذا النحو يصور الشاعر فتوحات الامام (سلطان بن سيف اليعربى ١٠٥٠ - ١٠٩١) على البرتغاليين ويتحدث عن انتصاراته عليهم فى جزر زنجبار وممباسة ثم بمباى بأرض الهند. وعلى الرغم من أنها حروب ضارية وانتصارات عظيمة، الا ان تعبير الشاعر جاء - كما ترى - غاية فى الضعف والركاكة. ولو أن الشاعر جرى على سجيته واطلق لوجدانه عنان التعبير. ولم يتقيد بقيود الزخرف واغلال البديع لاصاب القول، ولاثر فى القلوب ولما وصل شعره الى هذا الدرك من الرداءة التى افقدته روح الاصالة واتقاد العاطفة والنغم المطرب. والمعنى المستقيم (٦٢) وأول هذا الكلام صحيح ولكن آخره الذى بدأ بقوله ولو ان الشاعر جرى على سجيته... الخ. قول فيه نظر لان خلف بن سنان كان فقيها يحسن النظم على طريقة الفقهاء ويعجز عن البث والتفنن فى التعبير والتصوير كما يفعل الشعراء فشعره والحالة هذه شعر علماء وقلما وجدنا فقيها او عالما يستطيع التحليق مع الشعراء المبدعين. والحق ان خلف بن سنان قد اطلق لوجدانه العنان فعواطفه صادقة بادية القوة، وابتهاجه بالانتصار على البرتغاليين غير مصطنع ولكن موهبة الفقيه قاصرة، وقدراته استنفدها اختصاصه بالفقه واشتغاله بالقضاء وتأثره المستمر بالبلاغة واساليبها والكلف بالبديع الذى اغرم به شعراء العصور المتأخرة لا يمنع الموهبة الشعرية المقيدة باغلاله من ان تنتقض مرة او مرات من قيودها فتجيد هنا وهناك فتطلق قطعة صغيرة رائعة او بيتا سائرا قادرا على ارضاء كل الاذواق فى كل العصور.

وما يقال عن شعر ابن سنان ينطبق على شعر ابن مسعود الصارمى وقد مرت بنا قصيدته الحائية التى اشادت بانتصارات

سلطان بن سيف فى عمان وفى شرقى افريقيا فهو كما يقول على عبدالخالق لم يستطع تصوير الحب تصويرا صادقا فغزلة تقليدى فرضه عليه منهج القصيدة القديم . « ولم يستطع تصوير رغبته فى قتل الاعداء والذود عن الوطن » وليس سبب ذلك ان نفسه كانت موزعة بين عاطفة الحب والواجب الوطنى كما يرى الباحث (٦٣). فليس فى شعره ما يدل على اصالة الحب وقوة العاطفة لانه يصطنع ذلك، اصطناعا فى اول قصيدته جريا على العادة الفنية التقليدية. لهذا جاء تصويره للحب وللانتصارات على الاعداء ضعيفا فاترا كما فى قوله :

أطوى الفلا واليم فى فيلق
يطفىء ضوء الشمس والجو صاح
حتى اتينا (تنة) بالضحى
ثم نزلناها بأرض براح

فالفيلق الذى يطفىء ضوء الشمس لا بد ان يطفئها « فى جو صاح » فكيف يمكن ان يطفىء ضوأها اذا حجبها الغمام. فالعبارة مقحمة اقحاما ثقيلا من اجل القافية. وكذلك الجار والمجرور (بالضحى) فى البيت الثانى فهى قلقة لانها الصقت الصاقا، أما عبارة (نزلناها بأرض براح) فهى ركيكة باردة ضاعفت ما فى البيت من فتور .

اما المنتفقى فنظمه اكثر برودة وفتورا. بل هو أشبه بالنثر العلمى لا النثر الادبى وقافيته فيها ما لا يطاق من الفهاهة التى يأباها شعر الفخر والحماسة الذى لا يحتمل مثل هذا الاسلوب الباهت والقافية المائعة والنثرية المتعثرة التى جعلت هذا (الشعر) اشبه بالنظم التعليمى المبسط. فارجع الى القصيدة وهى طويلة كى تلاحظ صحة ما اقوله عنها منذ اول بيت فى النطق :

فسل النصارى هل راوا فى برهم
والبحر من تلك الجيوش الغاشية
كم احرقوا كم اغرقوا من مرة
كم ذوقوا ضربا يهد الناصية

وشاعر العصر الكبير المقدم بلا منازع هو لحبس : « فشعره صورة لحياته من فخر واعتزاز بأصله ونسبه، كما كان صورة حياة الدولة اليعربية وانتصاراتها (٦٤) ولكن ديوانه لم يصل الينا فليس له ذكر بين الدواوين المخطوطة التى ذكرها الدكتور على عبدالخالق فى آخر كتابه. ولا ريب فى ان هذا الديوان يضم قصائد او اشعارا تتغنى بالانتصار على الغزاة وتقترب من الشعر الحماسى القديم والمحدث لأن الحبس يمتاز بموهبة شعرية متدفقة، وثروة لغوية كبيرة واسلوبه حسن السبك قوى التعبير يتابع اساليب كبار شعراء الاعصر العباسية كابن تمام والمتنبى. وقد كانت للغزو البرتغالى اصداء وانعكاسات وآثار فى الادب المنثور لا تقل أهمية عما وجدناه فى الادب المنظوم. وتلاحظ هذه الاصداء اول ما تلاحظ فى الرسائل الرسمية المتبادلة بين السلاطين العمانيين وقادة البرتغاليين. وقد ذكر السالمى رسالتين رسالة القائد البرتغالى وهى اشبه بالانذار الى الامام سيف بن سلطان، وجواب سيف. قال السالمى : وهذا كتاب من النصارى للامام سيف بن سلطان اليعربى :

الحمد لله فاطر السموات والارض أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون.

اعلم بأننا جنود الله مخلوقون من سخطة، مسلطون على من يحل عليه غضبه، ولا نرق لشاكى ولا نرحم عبرة باكى، فقد نزع الله الرحمة من قلوبنا فالويل كل الويل لمن لا يمتثل لأمرنا. قد خربنا البلاد وأهلكنا العباد، واظهرنا فى الارض الفساد فان اعجبكم شرطنا كان لكم ما لنا وعليكم ما علينا. وان انتم ابيتم وعلى غيكم تماديتم، فالحصون منا لا تمنع، والعساكر لدينا لا ترد ولا تدفع، لانكم اكلتم الحرام وضيعتم الجمع فابشروا بالذل والجزع، اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تعملون. فان اعجبكم كلامنا أننا كفرة فقد صار عندنا انكم فجرة، قلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال، كثيركم عندنا ذليل، وعزيزكم عندنا قليل قد ملكنا الارض شرقا وغربا، واخذنا منها كل سفينة غصبا. وقد أرسلنا اليكم هذا الكتاب فاسرعوا برد الجواب قبل ان ينكشف الغطاء ولم تبق لكم باقية وينادى عليكم بالفناء هل تحس منهم من احد او تسمع لهم ذكرا. وقد انصفناكم وارسلنا اليكم جواهر الكلام والسلام.

وهذا جواب الامام لهم :

« قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء بيدك الخير انك على (كل) (ساقطة من النص) شىء قدير » . قد حصل الوقوف على هذه الكتبة الشاهرة لقولكم قد نزع الله الرحمة من قلوبكم، فهذا من اقبح عيوبكم واشد واشنع. وبغيتم وذكرتم انكم كافرون الا لعنة الله على الكافرين، من تعلق بالاصول فلا يبالى بالفروع نحن المؤمنون لا يصدنا عنكم ولا يدخلنا شك ولا ريب، والقرآن علينا قد نزل فهو رحيم بنا لا يزل وخيولنا برية بحرية وهممنا سامية عليه، ان قتلناكم فنعم البضاعة وان قتلتمونا فبيننا وبين الجنة ساعة « لا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله امواتا بل احياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله » وقولكم قلوبكم كالجبال وعددكم كالرمال : الجزار لا يبالى لكثرة الغنم وان الله مع الصابرين... ان عشنا عشنا سعداء وان متنا متنا شهداء. الا ان حزب الله هم الغالبون، لقد جئتم شيئا ادا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا. فقل لصاحبك اذا رضخ وشيد مقالته : حصل الوقوف على هذا الكتاب كصرير باب وطنين ذباب سنكذب ما قالوا ونمد لهم العذاب مدا. وما عندنا بعد ذلك الا الخيل تمطر بالويل والنار مظهرة العار، والسيوف مسقية الحتوف والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى، واطاع الملك الاعلى واختار الاخرة على الاولى. والصلاة والسلام على خير الانام محمد عليه افضل الصلاة والسلام (٦٥) .

ورسالة القائد البرتغالى ضعيفة وان اتبعت نهج الرسائل الديوانية العربية لابتدائها بحمد الله وانتهت بلفظة السلام وحدها والفاتحة والخاتمة فتجيد التعبير باسلوب المسلمين ولعل كاتبها راهب يعرف العربية ومن الغريب ان تتضمن عبارة تصف البرتغاليين بالكفر وترد على لسانهم هم .

اما جواب سيف بن سلطان فنموذج جيد

للرسائل الديوانية الرسمية فقد افتتحها بأحسن ما تفتتح به الرسائل وهى الاية الكريمة : قل اللهم مالك الملك.. ورد على رسالة خصمه أحسن رد لا يخلو من منطق وحجاج بأقل لفظ واتم معنى ونجد الكلام ماقل ودل. وقد استشهد فى انهائها بأية اخرى ورد على التهديد بالتهديد والوعيد بالوعيد والخاتمة اجل وأروع ما فيها فلفظة السلام التى ختمت بها الرسالة ليست موجه للقائد البرتغالى لأنها آخر جملة الصلاة والسلام على النبى ومع هذا فورودهافى آخر الرسالة لفتة بارعة فى غاية الفطنة والذكاء .

ولا اشك فى ان رسائل كثيرة من هذا النوع قد يتبادلها الطرفان ولكن المصادر لم تذكر سوى هاتين الرسالتين. والاسلوب ناضج بعيد عن التعقيد واستعمال السجع والمحسنات البديعية، مما يدل على اخذ كاتبها بالامر الواقع الذى تفرضه امور السياسة والحرب على الاسلوب. وكان ابن خلدون قبل هذا العصر قد نصح بالتزام الاسلوب المرسل فى الرسائل السياسية. وقد ترجم وندل فليبس الرسالتين المذكورتين الى اللغة الانجليزية ونقلهما الى العربية مترجم الكتاب عن النص الانكليزى (٦٦) ولم يكلف نفسه مراجعة النص العربى الذى نقله المؤرخ الانجليزى عن تحفة الاعيان ولكن المترجم لم يكتف بهذا الخطأ الفاحش فاضاف اليه ترك الهوامش والفهارس التى اثبتها وندل فليبس ولهذا تعذر علينا معرفة اصل نص رسالة اخرى وجهها ملك ممباسا الى ملك ماليندى يحذره من البرتغاليين الغزاة عندما نزلوا عاصمته ممباسا بقيادة ألميدا سنة ١٥٠٥ م. ومن المحتمل ان تكون الرسالة المذكورة باللغة العربية لان حكام شرق افريقيا كانوا يستعملونها فى مراسلاتهم الرسمية والتجارية. ولم تتوفر لدينا النسخة الانجليزية لنعرف المصدر الذى نقل عنه المؤرخ الانجليزى. واذا لم تكن قد كتبت بالعربية فلا ريب انها حررت باللغة السواحيلية. وسواء كانت بالعربية او بالسواحيلية فهى تمثل صدى رسميا للغزو البرتغالى. واليك نصها كما جاء فى اللغة العربية لكتاب وندل فيليبس :

« بارك الله فيكم يا سيدى علي، اكتب اليكم هذا لابلاغكم ان سيدا عظيما مر بهذه البلدة واحرقها وتركها خرابا.. وقد جاء الى البلدة بقوة ووحشية بالغة، حتى انه لم يترك رجلا او امرأة، كهلا او شابا.. بل واصغر طفل.. حتى اولئك الذين فروا من ضراوته.. وهو لم يكتف بقتل الرجال وحرقهم بل واسقط حتى الطيور فى السماء. ان رائحة الجثث فى البلدة بلغت حدا شنيعا حتى أننى لا أجرؤ على الذهاب الى هناك، كما لم استطع التأكد او تقدير مدى ما نهبوه من ثروات من البلدة.. وأنا أبعث اليكم هذه الانباء السيئة فى سبيل سلامتكم » (٦٧) ولم تقتصر انعكاسات الغزو البرتغالى على الرسائل الرسمية المتبادلة بين الحكام العمانيين والافارقة فقد ظهرت كما قلنا فى الانواع النثرية الاخرى كالقصص والحكايات والاخبار التى دارت حول الاحداث المختلفة. وقد اشرنا الى بعضها كقصة الهندى البانيانى نرويم مع فريرا قائد الحامية البرتغالية فى مسقط، وقصص

القتال العنيف الذى دار فى اثناء اول هجوم برتغالى بقيادة البوكيرك ثم القصص الذى روى احداث القتال الذى دار حولها وفى داخلها فى اثناء هجوم العمانيين على المدينة المشهورة ووصف تفاصيل خطط الهجوم على البرتغاليين المتحصنين فيها والانتصارات عليهم واسترجاع المدينة منهم وطردهم الى الابد من عمان (٦٨) ويطول البحث ويتشعب اذا تتبعنا نصوص هذه القصص ودرسنا خصائصها الادبية واللغوية. ويطول ايضا اذا دخلنا فى التفاصيل الخاصة بالآداب الشعبية المنظومة والمنثورة التى صيغت باللهجات المحلية وتداولتها الاجيال المتعاقبة. وجمع بعض النماذج والنصوص المختلفة يحتاج الى استقصاء دقيق طويل لان المدون الباقى فى ذاكرة الشعب منها اقل من القليل شأن الاداب الشعبية عند كل الامم وفى جميع العصور.

اما النثر الأدبى التاريخى فتمثله المصادر القليلة التى اعتمدنا عليها فهى خير نموذج يصور قيمة هذا النثر ويشخص خصائصه الأدبية فكتاب تحفه الاعيان للسالمى والفتح المبين لابن رزيق يتفوقان على افضل انواع النثر الأدبى التاريخى المتحرر من السجع والازدواج وانواع التصنع البديعى فهما لا يلجأن الى فنون التصنيع الا قليلا ويستخدمانها فى اعتدال وبلا افراط مترسمين خطى اوائل العصر العباسى، كالطبرى والمسعودى. ثم ان الكتابين كليهما مصدران للتاريخ وللأدب فى ان واحد. ولا سيما فى التحفة يجد مؤرخ الادب الكثير من الشعر الذى قيل كما يجد القصص والحكايات ونصوص العهود والرسائل السياسية وغير السياسية والمواعظ ورسائل العلماء والقضاة وغيرهم. وكان اعتمادنا على هذين الكتابين فى استخراج النصوص الشعرية والنثرية التى انعكست عليها أو فيها أصداء الغزو البرتغالى، فى حين ان مؤرخين آخرين كابن قيصر لا يقدم أى نص يشير الى هذا الموضوع من قريب او بعيد. اما صاحب كشف الغمة فلا نجد لديه كثيرامن نصوص الشعر والنثر الفنى. ويمتاز كتاب الفتح المبين بشدة عناية مؤلفه بالحياة العلمية والأدبية وكثرة العلماء الذين ترجم لهم ذاكرا مؤلفاتهم المختلفة ومهما يكن من أمر فإن ما يخص الغزو البرتغالى من النصوص الواردة فى المصادر المطبوعة والمخطوطة يمثل حقلا مهما من حقول الدراسة الادبية للنثر التاريخى حول الغزو البرتغالى او تأثره به .

الهوامش

١ ـ اشتهر كثير من المؤرخين العرب بجودة نثرهم وبعنايتهم بالشعر والشعراء والادب والادباء كالجهشياري وابن قتيبه والمسعودي والقاضي التنوخي وابن شداد وابن الساعي وعبدالله ومؤلفاتهم معروفة لا وجوب لذكرها هنا .

٢ ـ الاشارات التاريخية كثيرة في الشعر العربي في جميع عصوره. وقد نظم ابن المعتز أرجورة تاريخية طويلة في مدح الخليفة المعتضد ضمنها وصف الحوادث الدامية في القرن الثالث للهجرة الناجمة عن تسلط الجند الاتراك .
انظر : ديوان ابن المعتز .

٣ ـ انظر مؤلفاتهم الادبية والتاريخية الفهرست لابن النديم وكشف الظنون لحاجي خليفة وتاريخ الادب العربي لبروكلمان وفي مؤلفاته الكثيرة عن كل واحد منهم .

٤ ـ انظر بحثنا : الأدب في العصر المغولي والأدب في العصر العثماني. كتاب حضارة العراق ١١/بغداد ١٩٨٥ وانظر ايضا بحثنا في الموضوع نفسه مجلة كلية الاداب بجامعة بغداد ١٩٧٨ .

٥ ـ لم اعثر على اشارة واحدة الى البرتغاليين في كتاب السقاف تاريخ الشعر الحضرمي وهو بثلاثة اجزاء القاهرة . ولا في كتاب شعراء القطيف للشيخ المرهون النجفي ولم اعثر على نسخة واحدة لكتاب شعراء هجر لعبد الفتاح الحلو في بغداد رقم البحث في المكتبات .

٦ ـ اجمع الباحثون من المستشرقين كراتشوفسكي وشوموفسكي وجابرييل فران وغيرهم والباحثون العرب والمسلمون على ان ابن ماجد كان دليل فاسكودي جاما وخالفهم الاستاذ وادلته ضعيفة .
انظر : ندوة عمان .

٧ ـ حسن صالح شهاب : اضواء على تاريخ اليمن البحري (١٩٥ ـ ٢١٦) فصل : التدخل البرتغالي ونهاية زعامة العرب الملاحية في المحيط الهندي ط٢ بيروت ١٩٨١ .

٨ ـ سياتي ذكر ذلك والتفاصيل في (الفتح المبين) لابن رزيق ط . القاهرة ١٩٧٧ م وفي (تحفة الاعيان) للسالمي، القاهرة ١٣٥٠هـ ومن تاريخ عمان لوندل فيليبس، ترجمة محمد بن عبدالله القاهرة ١٩٨١) .

٩ - اكد المؤرخون العرب القدماء والمعاصرون دور النزاع الداخلي في نجاح الغزو البرتغالي وعزاه بعضهم الى تفوق اسلحة البرتغاليين النارية كالمدافع والبنادق وقدم اسلحة العرب وسفنهم .

١٠ - تحفة الاعيان ١/٣٢٨ - ٣٤٦ والفتح المبين ٢٥٧ - ٢٦١

١١ - تحفة الاعيان ١/٣٤٩

١٢ - م . ن ٣٤٩

١٣ - تحفة الاعيان ١/٣٣٥

١٤ - أكد المعنيون بتاريخ عمان هذه الحقيقة انظر : وندل فيليبس تاريخ عمان ٣١ - ٣٧ ومراجعة في النسخة الانجليزية . صلاح الدين حافظ : صراع القوى العظمى حول القرن الافريقي ٣١ - ٤٥ وهوامشه : سلسلة عالم المعرفة ٤٩ الكويت ١٩٨٢ .

ومحمد عبدالغني سعودي : قضايا افريقية/عالم المعرفة ٣٤ الكويت ١٩٨٠ ولا سيما قسم : افريقيا والعرب عامي ٥٨ - ٦٣ و في ٦٤ - ٦٧ وص ١٢٥ وفيه نخبة حسنة من المراجع العربية والاجنبية والدكتور سعودي من خيرة المتخصصين بالشئون الافريقية وانظر ايضا كتاب : العرب والملاحة في المحيط الهندي .

١٥ - المسعودي : مروج الذهب ٢/٦ - ٧ ط. الثانية القاهرة ١٩٤٨ وقد اشار اليه د. سعودي بلا هامش محدد .

١٦ - رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار/١٦٠ - ١٧٤ ط. المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٣٨ م وقد انتقد السالمي في تحفة الاعيان ابن بطوطة وفند بعض اقواله واخباره عن أهل عمان وقاضيها وبعض احوال اهلها. انظر تحفة الاعيان ١/٣٠٩ - ٣١٩ .

في فصل (ذكر قدوم ابن بطوطة على عمان) وعينا هنا ما جاء بالرحلة عن مقديشو وسلطانها واهلها وعن كلوا وممباسا وغيرها من جزر ومدن شرقي افريقيا وعلاقاتها الحميمة بالعثمانيين والحضارمة .

١٧ - سعودي : قضايا افريقية ٨٤ - ٩٠ و١٤٣ - ١٤٨ وهوامشه .

١٨ - المرجع السابق : نفسه وصلاح الدين حافظ. المرجع السابق ص ٣٥ - ٤٠ باب : جسور اللغة والدين بين العرب والافارقة .

١٩ - ابن رزيق : الفتح المبين ١٥٠ حيث يذكر تراجم العلماء العمانيين وبعضهم كان يقيم في زنجبار وانظر : وندل فيليبس تاريخ عمان الفصل الثاني ٢١ - ٣٦ .

٢٠ - على الشيخ يلحو : الادب الصومالي المعاصر : رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الطابعة قدمت لمعهد البحوث والدراسات العربية ببغداد ١٩٨٥ وللمؤلف نفسه : الادب الصومالي بحث للدبلوم مقدم للمعهد نفسه ١٩٨٤ . وانظر مقدمة كتاب (ابن نواس) للعقاد .

حيث يتحدث عن شخصية ابي نواس في الادب السواحيلي . وتطرقت الى هذا الموضوع كتب وابحاث كثيرة لمؤلفين عديدين نذكر منهم حسن محمود ، وحسن

ابراهيم حسن ، وعبد المجيد عابدين ، وعبده بدوي وغيرهم .

٢١ - تشترك في هذا التصور التاريخي جميع تواريخ الادب العربي المتداولة انظر مثلا كتاب عمر فروخ تاريخ الادب العربي ٤٢٦/٣ حيث خص ادب الجزيرة العربية بثلاثة اسطر فقط . وانعكس ذلك على دراسة للشعر العماني للدكتور علي عبد الخالق (انظر الهوامش التالية) ولاحظ ما ذكره محمد اسعد طلس في كتابه . عصر الانحدار ١٢١ - ١٢٢ وكتابه : ادب الدول المتتابعة في مواضع عديدة .

٢٢ - شوقي ضيف : وهو اول وافضل من كتب الادب في اقطار الجزيرة العربية بين مؤرخي الادب العربي المعاصرين . انظر كتابة الاخير : عصر الدول والامارات : الفصل الثاني والفصل الثالث . دار المعارف القاهرة ١٩٨٠ .

٢٣ - المرزباني : الموشح ٨٥ ، ٩٠ وابن رشيق : العمده والشريف المرتضى : امالى المرتضى ٢٦٩/١ ذكره احسان عباس تاريخ النقد الادبي عند العرب ص ٥٠ .

٢٤ - تفاصيل ذلك في كتب التاريخ الاسلامي لبروكلمان وفيليب حتى وحسن ابراهيم حسن وشفيق غربال ومحمد سليم وغيرهم .

٢٥ - حسن صالح شهاب : المرجع السابق ١٩٧ .

٢٦ - شوقي ضيف : المرجع السابق (عصر الدول) ٨٨ - ١١٠ وعبارة (الشعر على كل لسان) جعلها عنوان القسم الاول من الفصل الثالث .

٢٧ - شكا من قلة المصادر جميع الذين كتبوا عن الأدب في الجزيرة العربية تقريبا ومنهم د . على عبد الخالق في مقدمة كتابه الشعر العماني والسقاف وعبد العزيز المقالح في دراساته عن الادب في اليمن ... الخ .

٢٨ - الشعر العثماني ٢٦ - ٣٣ و ٣٤ - ٣٩ باب : ملامح الادب من عصر بني نبهان وباب : الشعر في عصر اليعاربة وهي مباحث صغيرة موجزة ط . دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٤ وسنشير اليه بعنوان : الشعر العثماني في الهوامش القادمة .

٢٩ - شوقي ضيف : المرجع السابق ٦٢ ، ١٧٢ .

٣٠ - السقاف : تاريخ الشعراء الحضرميين .

٣١ - علي الشيخ منصور المرهون : شعراء القطيف ط . النجف .

٣٢ - اشرنا الى ذلك في الهوامش السابقة+:

٣٣ - كراتشوفسكي : مع الخطوات العربية ١٧٣ - ١٨٤ بعنوان ربان فاسكودي جاما . ط . دار التقدم . موسكو ١٩٤٨ . وانظر : تيودور شوموفسكي : ثلاث ازهار في معرفة البحار ٧٥ - ٧٦ القاهرة ١٩٦٩ ترجمة محمد منير مرسي .

٣٤ - شومو فسكي : المرجع السابق (هامش ٣٣) .

٣٥ - ابن ماجد : الفوائد في اصول علم البحر والقواعد : نشر جبرييل فران المستشرق الفرنسي باريس ١٩٢٢ .

٣٦ - شومو فسكى : المرجع السابق ١١٨ .

٣٧ ـ المرجع السابق ١١٩ .
٣٨ ـ المرجع السابق ١٢٠ .
٣٩ ـ المرجع السابق المقدمة ص ١١ اولد روجي احد المستشرقين الروس الذي قدم للكتاب وامتدحه .
٤٠ ـ شوقي ضيف : عصر الدول والامارات ٦٢ .
٤١ ـ المرجع السابق ١٤٠ ـ ١٤٢ .
٤٢ ـ علي عبد الخالق علي : الشعر العماني ٣١ ـ ٣٢ .
٤٣ ـ الشعر العماني .
٤٤ ـ الأزكوى : كشف الغمة ١٠٨ نشر وتحقيق الاستاذ عبد المجيد حسيب القيسي بعنوان : تاريخ عمان المقتبس من كتاب كشف الغمة الجامع لاخبار الائمة . وقد تكرم الدكتور محمود على الداود بإهدائى النسخة التي اهداها اليه محقق الكتاب . وهو اول سلسلة مصادر ـ التاريخ العماني (١) ابو ظبي ١٩٧٦ .
٤٥ ـ الازكوى المرجع السابق ص ١٠٩ .
٤٦ ـ وندل فيليبس : تاريخ عمان ٦٤ ترجمة محمد امين عبد الله القاهرة ١٩٨١ .
٤٧ ـ نفسة .
٤٨ ـ سليم طه التكريتي : المقاومة العربية في الخليج العربي ٥٨ وانظر الفصل الثالث القيم عن الغزو البرتغالي ٢٩ ـ ومنشورات وزارة الاعلام بغداد ١٩٨٢ وامتاز المؤلف بالتفاتته البارعة الى سفر خلف بن سنان واستشهاده به خلال تتبعه الغزو البرتغالي .
٤٩ ـ شوقي ضيف المرجع السابق (عصر الدول) ١٧٢ .
٥٠ ـ تحفة الاعيان ٢ / ٦٠ ـ ٦٢ وقد ذكر اكثر ابيات القصيدة وانظر الشعر العماني ٣٥ ـ ٣٦ حيث اقتطع عددا من ابياتها .
٥١ ـ تحفة الاعيان ٢ / ٧١ ـ ٧٣ وهي قصيدة طويلة استشهد ببعض ابياتها د . علي عبد الخالق : الشعر العماني ٣٦ ـ ٣٧ .
٥٢ ـ القصة من تحفة الاعيان ٢ / ٦٤ ـ ٦٥ وفي الفتح المبين ٢٨٦ ـ ٢٩٠ .
٥٣ ـ تحفة الاعيان ٢ / ٦٥ ـ ٧٠ .
٥٤ ـ تحفة الاعيان ٢ / ٧٩ .
٥٥ ـ تحفة الاعيان ٢ / ٨٣ .
٥٦ ـ تحفة الاعيان ٢ / ٨٦ .
٥٧ ـ تحفة الاعيان ٢ / ٨٧ .
٥٨ ـ تحفة الاعيان ٢ / ٩٦ ـ ٩٨ .
٥٩ ـ نفسه ٩٨ .
٦٠ ـ تحفة الاعيان ٢ / ٩٩ .

٦١ ـ تحفة الاعيان ٢/٩٩ ـ ١٠٢ وذكر القصيدة كلها .
٦٢ ـ الشعر العماني ٣٦ .
٦٣ ـ نفسه .
٦٤ ـ المرجع السابق ٣٧ .
٦٥ ـ تحفة الاعيان ٢/١٠٦ ـ ١٠٧ ومنه نقلنا نص الرسالتين .
٦٦ ـ وندل فيليبس : تاريخ عمان ٦٧ ـ ٦٩ حيث ترجم المعرب نص الرسالة من الانجليزية الى العربية ولم يرجع للنص العربي .
٦٧ ـ المرجع السابق ٤٨ .
٦٨ ـ تحفة الاعيان : وقد سرد تفاصيل هجمات ناصر بين مرشد على الحصن وانظر ٢ / ٦٢ ـ ٦٥ والفتح المبين ٢٧١ ـ ٢٧٩ .

الخليج العربي
الأهمّية الاستراتيجيّة
وملامح السّياسة البرتغاليّة

تعتبر منطقة الخليج العربي من أهم المصادر الأولى للحضارة العربية . حيث هيأت للعرب منذ القدم أسباب المهارة في الملاحة واتساع الميادين في التجارة وكانت محط أنظار الغزاة الطامعين والمستعمرين في العصور القديمة طمعا في السيطرة على العالم العربي والاسلامي والافريقي .

وكان للخليج العربي دور مهم في كافة مراحل تطور الحضارة الانسانية والتاريخ الدولي عبر العصور ، ففي الماضي السحيق كانت منطقة الخليج ممرا حضاريا رئيسيا في تاريخ الشرق القديم وهو اليوم قلب السياسة الدولية ومن هنا تأتي أهمية هذه الدراسة . ولقد مضت آلاف السنين والخليج العربي ينقل حضارات الشعوب وثقافتها وليس في تاريخ البشرية خليج أثر على المجتمعات الانسانية بقدر هذا الممر المائي الذي امتاز بكونه مركزا لأقدم الحضارات العالمية وأكثرها أصالة .

وتتميز المنطقة الخليجية بأنها متشابهه ومتجانسة فهي بيئة صحراوية ساحلية كما أنها تشترك في وحدة الرقعة أي ذلك الاتصال الجغرافي المستمر للمنطقة . ويحتفظ سكانها كسائر أبناء الأمة العربية ـ وباستثناء مجموعات المهاجرين غير العرب ـ بقدر كبير من التجانس في الملامح والسمات وبدرجة مميزة في وحدة السلالة وأصالة العروبة والوحدة الروحية الاسلامية ، وكان لذلك أثره ـ وفي اطار الوحدة الجغرافية ووحدة التجربة التاريخية ـ على تجانس الأسس الاجتماعية لسكان المنطقة وفيما يتعلق بالعادات والتقاليد وكيفية الاستجابة للمؤثرات الخارجية .

لذلك فإن هذه المنطقة كانت هدفا للطامعين والمستعمرين فقد تعرضت



اعداد الأستاذة نوار عبد الوهاب قاسم القيسى

لحملة الأغريق فى عهد الاسكندر المقدونى ثم الرومان وبعدها أخذت الأفكار الاستعمارية الغربية تتجه صوب هذا الخليج وخاصة فى عهد الاستكشافات الجغرافية التى كانت بزعامة البرتغال فى مطلع القرن الخامس عشر هذا القرن الذى يواكب مطلع العصور الحديثة بصفة عامة ، كما انه شهد اول حركة استعمارية أوربية تصل الى منطقة الخليج ، ونعنى بها حركة الاستعمار البرتغالى حين شهد حملات عسكرية بحرية ضمت المراكز التجارية العربية فى الخليج العربى ، كما أنها سيطرت على مراكز استراتيجية على ساحليه الشرقى والغربى كذلك سيطرت على أكثر جزر هذا الخليج واتخذت فيها مراكز عسكرية هجومية تشنها على المدن الآمنة على ساحليه ، ولم تزل آثار هذا الاستعمار ماثلة فى قلاعه ومدافعه فى بعض الجزر أو المدن الساحلية كما فى راس الخيمة والشارقة .

وفى هذه الدراسة عن استراتيجية الخليج العربى والاستعمار البرتغالى سنتناول الموضوع كالآتى :

أولا : الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربى .
ثانيا : السياسة البرتغالية فى الخليج العربى .
١ ـ الوضع السياسى العام فى منطقة الخليج العربى إبان الغزو البرتغالى .
٢ ـ أساليب السياسة البرتغالية فى منطقة الخليج العربى .
٣ ـ أبعاد السياسة البرتغالية فى منطقة الخليج العربى .
٤ ـ عوامل انهيار السيطرة البرتغالية فى منطقة الخليج العربى .

أولا ـ الأهمية الاستراتيجية لمنطقة الخليج العربى ..

قبل البدء بالبحث عن الأطماع البرتغالية فى الخليج العربى لابد من الإشارة الى الأهمية الاستراتيجية التى تتمتع بها منطقة الخليج العربى (١) ، وأثر ذلك فى الميزان السياسي الدولى وتأتى هذه الأهمية فى استراتيجية الموقع الجغرافى فالعامل الجغرافى يأتى فى مقدمة هذه الاهمية ، حيث ان المنطقة تتوسط العالم القديم (٢) وبحكم ذلك فهي كالجسر الذي يربط دول الشرق القديم وحضاراته فقد تأثر الخليج العربي تأثراً مباشرا بحضارة وادي الرافدين. حيث يتصل من الناحية الشمالية بنهر دجلة والفرات عبر شط العرب وكانت العلاقات العراقية القديمة واسعة ومتعددة وشملت نواحي النشاط الانساني المختلفة كالثقافة والفنون والتجارة وتلك الاوضاع ادت الى تفاعل الحضارات في المنطقة وعليه يحتل الخليج العربي موقعا فريدا او تؤلف سواحله الغربية المنافذ الطبيعية للاقاليم الداخلية فكانت اهميته تتركز في كونه جسرا او معبرا بين الغرب والشرق وطريق مواصلات فريدا بين أوروبا والشرقين الادنى والاقصى ومن هذا كله كان موقعه هو سبب التنافس على مر العصور بين الدول الطامعة فيه وفي ثرواته وخيراته منذ فترة مبكرة من التاريخ(٣) .

واشتد ذلك التنافس الاستعمارى وعلى الاخص الاوروبى منذ القرن الخامس عشر اي بعد الاستكشافات الجغرافية وبازدياد هذه الأهمية إزداد الصراع الاستعمارى والسيطرة الأجنبية والتسابق من أجل التوسع والاستحواذ على موارده الطبيعية وجزره الغنية بالثروات الطبيعية (٤) .

وقد برزت أهمية الخليج العربى كطريق تجارى مهم منذ فترة بعيدة اذ كون مع المعبر البرى الذى يقع بين نطاق زاجروس ـ طوروس الطريق الأوسط من طرق التجارة الشرقية وقد استمر هذا الطريق يلعب دوره الهام فى نقل هذه التجارة وغيرها من الاتصالات البشرية الأخرى بين عالم المحيط الهندى وعالم البحر المتوسط منذ أقدم العصور الى أن تم فتح طريق قناة السويس (٥) . وكانت السفن العربية منذ القدم تسلك فى ابحارها وهى تنقل البضائع والثروات من الشرق الأقصى والهند طريق بحر الصين فى المحيط الهندى ثم البحر العربى فالخليج العربى حتى رأسه الشمالى جنوب العراق ومن هناك تنتقل تلك الحمولات برا عبر العراق الى حلب لموانىء البحر المتوسط ليتم نقلها الى البندقية وبقية أنحاء أوروبا (٦) .

وقد عبر عدد من الباحثين ورجال السياسة فى كتاباتهم وأبحاثهم عن تلك الأهمية الاستراتيجية الكبيرة التى يتمتع بها الخليج العربى ومكانتها فى التطبيق الجيوبوليتيكى للسياسة الدولية ويمكن التمحيص فيما كتبه «فيرجريف» الذى أطلق تسمية (منطقة الارتطام والتصادم على المنطقة البينية التى هى جغرافيا بينية بموقعها فى العالم وتمثل تلك المنطقة بطبيعتها وبيئتها منطقة انتقال تجمع بين

الصفة البحرية والبرية بدرجات متفاوتة وهى استراتيجيا جبهة تصادم ومن ثم أرض المعركة فيما إذا حدثت بين أى قوى [٧] .

وقد حدد فيرجريف تلك المنطقة الاستراتيجية وجعلها تشمل الوطن العربى بما فيها منطقة الخليج العربى اضافة الى مناطق أخرى غير عربية كجنوب شرقى أسيا وجزء من إيران وهذا مايثبت بشكل تطبيقى أهمية الخليج العربى على مر الزمن منذ العصور القديمة واستمرارها حتى الوقت الحاضر حيث تعتبر منطقة الخليج العربى من المحاور الأساسية للصراع الدولى فى المنطقة العربية فهى بمثابة المجال الطبيعى الحيوى للعالم العربى إذ لا يمكن الاطمئنان على أمنه وضمان تقدمه إذا تحكم أجنبى فى تلك المنطقة .

وما من شك أن المنافسة الاستعمارية التى شهدتها المنطقة منذ القرن الخامس عشر كانت نتيجة طبيعية للتسابق بين الدول الاستعمارية لاستغلال هذا الموقع وإدراكا منها للقيمة الخطيرة والفعلية للموقع الجغرافى ولقد أدرك البرتغاليون أهمية الخليج العربى من الناحية الاستراتيجية ودور المنطقة فى السيطرة على الهند وجنوب شرق أسيا فقد ذكر القائد البرتغالي البوكيرك من هذه الأهمية :ـ

(هناك ثلاثة مراكز للهند تعتبر المفاتيح الرئيسية لتجارة الشرق والسيادة على التجارة العالمية وهى ملقا عند مدخل مضايق سنغافورة وعدن عند مدخل البحر الأحمر والمركز الثالث هو هرمز عند مدخل مضايق الخليج العربى وتعتبر هرمز حسب ما اعلم أهم هذه المراكز جميعها ، ولو كتب لملك البرتغال السيطرة على عدن وتحصينها بقلعة قوية لأصبح سيد الموقف فى آسيا بدون منازع ولو سيطر على هذه المراكز الثلاثة فى الشرق الأوسط لأصبح سيد العالم كله كما أصبح الأسكندر قبل ذلك عندما توغل فى قلب السهول فى الكنج وأصبح بإمكانه إغلاق الأبواب المؤدية الى الشرق بوجه كل طامع فى البحار الهندية) [٨] .

ولما سبق فإن منطقة الخليج كانت تعتبر دربا فى الأزمنة القديمة ثم تحولت الى معبر للحضارات وأصبحت فيما بعد محورا للمنافسة الاستعمارية التى شهدتها المنطقة منذ القرن الخامس عشر إدراكا منها لأهميته الممتازة .

وكان لظهور البرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر أثر بعيد فى التاريخ السياسى للخليج العربى وأقطاره فهو من جهة يمثل بداية عهد الأطماع الأوروبية الاستعمارية ذلك العهد الذى لم ينته الى وقتنا الحاضر ورغم انسحاب بريطانيا من المنطقة .

ثانيا : السياسة البرتغالية فى منطقة الخليج العربى ..

١ـ الوضع السياسى العام فى منطقة الخليج العربى إبان الغزو البرتغالى ..

كان لظهور البرتغاليين فى أوائل القرن السادس عشر أثر بعيد فى تاريخ الخليج العربى وأقطاره وهو يمثل من ناحية أخرى بداية عهد الأطماع الأجنبية والاستعمار وفى

هذا المجال سنبين تلك الأوضاع التى كانت تتمتع بها المنطقة فى فترة الغزو البرتغالى .

منطقة الخليج العربى كانت تزخر بالمناطق التجارية لا سيما عند مدخل الخليج العربى وتعتبر سيراف من أقدم هذه المراكز التى تمتعت بهذه الشهرة لفترة أكثر من قرنين ، ونعنى بذلك منذ بداية القرن العاشر الميلادى حتى القرن الثانى عشر عندما انتقل النشاط التجارى الى مركز آخرمجاور هو هرمز ، والتى قضى عليها الغزو المغولى إلا أن تجارها لم يستسلموا لغزوات المغول وانتقلوا الى جزيرة أخرى فى مواجهتها أطلقوا عليها نفس الاسم . وتمكنوا أن يؤسسوا فيها دولة من أعظم الدول ثراء حيث أصبحت تمثل حلقة هامة فى نقل التجارة العالمية بين الشرق والغرب وفى الجانب الآخر فإن البندقية كانت لها نفس الأهمية فبعد سقوط بيزنطة استولت الجمهورية الايطالية على اليونان وأصبح تجارها يترددون وباستمرار على موانىء الشام وازداد طلب منتجات الشرق الأقصى واستفادت من ذلك هرمز ، وأصبح لها سمعتها الممتازة فاستطاعت أن تبسط سلطانها السياسى على أجزاء مترامية من شواطىء الخليج العربى وجزره شملت ساحل عمان حتى القطيف شمالا ودخلت جزر البحرين وجزيرة قشم فى تبعيتها كما ضمت قسما من الساحل الشرقى وهيمنت على مصائد اللؤلؤ وفرضت الرسوم الجمركية على الموانىء التابعة لها .

كان ذلك وضع هرمز إبان الغزو البرتغالى للخليج وكانت هذه الدولة تتكفل بحماية الخليج من الغزو الخارجى ، وكانت الدولة الصفوية قائمة فى فارس إلا أنها لم تبد أى مساعدة لهرمز فى هذه المهمة ، وفى ذلك دليل على عدم تبعية هرمز للدولة الصفوية خلافا لادعاءات بعض الكتاب الايرانيين من أن نفوذ فارس كان يمتد على طول سواحل شبه الجزيرة العربية وحتى عدن وحقيقة الأمر أن هرمز لم تكن فارسية بل كانت تضم مختلف الأجناس الاسلامية التى تسكن حول شواطىء الخليج العربى واضافة لوجود الدولة الصفوية فى الشمال الشرقى كانت هناك الدولة العثمانية فى الشمال الغربى ولم تساهم أى من الدولتين فى مقاومة البرتغاليين قبل منتصف القرن السادس عشر وانشغلتا فى صراعاتهما المذهبية بل بلغ الأمر بالدولة الصفوية الى حد التحالف مع البرتغال للتخلص من منافسة الدولة العثمانية لها فى سواحل الخليج (٩) . وكان لذلك أكبر الأثر فى اضعاف المقاومة العربية فى المنطقة . اضافة الى أن تلك الانقسامات بين الدولتين العثمانية والصفوية كانت تؤدى الى ايجاد انقسام جديد بجانب الانقسامات السياسية والقبلية فى المنطقة والتى اضعفت أيضا من المقاومة الوطنية ضد البرتغال .

وفى أكثر من مناسبة كانت الدولة الصفوية تبدى استعدادا للتحالف مع دول أوروبية ضد العثمانيين ودخلت الدولتان العثمانية والصفوية فى صراعات وحروب وفى عام ١٥٣٤ كان للعثمانيين اسطول فى بغدادوالموصل وتأخروا نحو خمسة عشر عاما فى تأسيس اسطولهم فى البصرة التى

تعتبر نقطة انطلاقهم نحو الخليج وحين بدأوا بذلك كان البرتغاليون قد أكدوا سيطرتهم عليه وفي تلك الفترة كانت منطقة الخليج خالية من أى تنظيم سياسى يشبه الدولة (باستثناء عمان والتى كانت أكثر ازدحاما بالسكان وأقرب الى المجتمعات الحضرية وامتد ذلك الى عدن ايضا) واستغل البرتغاليون الأوضاع السيئة وتخلف المرافق الاقتصادية واهمال المشاريع فى مجالات الرى والسدود وطرق المواصلات وتأخر الزراعة والصناعة والفنون واستعدوا لغزوها عسكريا واقتصاديا وبدأ عهد الامتيازات الأجنبية فى المنطقة التى تعرضت شعوبها لأفظع عوامل الاستغلال الاقتصادى واخضاع شعبها العربى لمختلف ضروب العسف والجور واصبحت هذه البقعة التى كانت تعرف بقلب الشرق أكثر المناطق تخلفا بفضل السياسات الاستعمارية والامبريالية المستغلة .

٢ . أساليب السياسة البرتغالية في منطقة الخليج العربى ..

كان الخليج وما زال محط أطماع الدول الكبرى لما له من أهمية تعاظمت فى الفترة المعاصرة ويمكن ارجاع الاطماع الأجنبية الغربية فى منطقة الخليج الى عام ١٤٩٨ عندما تمكن الملاح البرتغالى (فاسكو دى جاما) من اكتشاف الطريق الى الهند عبر رأس الرجاء الصالح وكان ذلك بمساعدة الملاح العربى أحمد بن ماجد الذى يعود أصله الى مدينة (جلفار) رأس الخيمة ، وكان ذلك الاكتشاف ايذانا بمجىء الاستعمار الغربى (الطامع فى مناطق الشرق الى الخليج (١٠) .

ومما لا شك فيه أن الاستعمار الغربى قد اتخذ من بعض القوى المحلية وجملة الظروف المحيطة بها سلما لبلوغ مآربه وما كان بمقدور الاستعمار البرتغالى والذى قطع المسافة البحرية الطويلة من شبه جزيرة ايبريا الى أقصى الشرق أن يبسط نفوذه بإمكانياته الذاتية التى كانت غاية فى التواضع فإذا استثنينا كون البرتغال من رواد الأمم البحرية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر فانها كانت بلدا صغير الرقعة قليل الموارد والسكان (عدد سكانها يقل عن مليون نسمة) لذلك فقد كان على القوى البرتغالية أن تتبع سياسة معينة لتنفيذ أغراضها والاستعانة بأدوات محلية بجانب ما لديها من قوة (١١) .

وقد استفاد البرتغاليون من المعلومات البحرية التى برز العرب بها فى الملاحة وصناعة السفن والتجارة البحرية وصيد الأسماك واللؤلؤ وقد نجم عن السيطرة البرتغالية على بحار الشرق تطبيق اسلوب الاحتكار الذى تميز به البرتغاليون وما عمدوا اليه من حرمان القوى الملاحية المحلية من المشاركة بنصيب فى تجارة الشرق بما اتبعوه من أساليب شاذة وقاسية فى المعاملة لذلك فان وصول البرتغاليين الى الهند يعد نهاية للعصر الذهبى للملاحة العربية والاسلامية في بحار الشرق (١٢).

كذلك فان افتقاد القوى المحلية للوحدة فيما بينها بسبب انقساماتها وخلافاتها ساعد على احكام السيطرة البرتغالية على

منطقة الخليج العربى والتى استمرت خلال الفترة ١٥٠٧م - ١٦٥٠م وتعتبر ثانى موجة استعمارية غربية على الوطن العربى بعد الحروب الصليبية للسيطرة على الأراضى المقدسة فى فلسطين وحين بدأ الغزو لم يكن هناك من كيان سياسى فى المنطقة سوى الدولة الصفوية الناشئة ولابد من الاشارة الى أن الغزاة البرتغاليين قد أتوا الى الشرق وهم مشبعون بالروح الصليبية وأثار حروبها المريرة من جهة والصراع مع العرب المسلمين فى الجزيرة الايبيرية وشمال افريقيا من جهة أخرى ، لذا فقد انصب اهتمامهم أيضا فى معاداة المسلمين ومحاربتهم لاخضاعهم وانتزاع مافى أيديهم والإمعان فى إذلال الدولة الاسلامية .

وشهدت فترة الحكم البرتغالى صراعا عنيفا بين عرب المنطقة وبين قادة الأساطيل البرتغالية الذين استخدموا أفظع أساليب الارهاب والقسوة لاخضاع هذه المنطقة للاستعمار الجديد الذى كان على درجة من القسوة والبشاعة ليس لها نظير فحرقوا العديد من السفن فى خورى : هجره وجرمه ومسقط وقلهات وسلبوا مدن قريات ومسقط وقلهات ولجأوا لقتل الرجال والنساء والأطفال دون تمييز وبوحشية متناهية فيما حاولوا من جهة أخرى اجبار السكان العرب على التنصر ومصادرة الأسلحة وفرض الأتاوات الباهظة كل ذلك فى سبيل اشاعة الرعب والارهاب بين سكان المنطقة ليحل الجيش فى المنطقة وكان قدر يسير من هذه الأعمال كافيا للانباء بنوايا الغزاة واهدافهم (١٣) . والتى سيتم التطرق لها .

٣ . ابعاد السياسة البرتغالية فى منطقة الخليج العربى ..

لقد كانت التجارة بين الشرق والغرب تتبع طريقين رئيسيين طريق البحر الأحمر ومصر وطريق الخليج العربى والعراق وسوريا وكان كل من هذين الطريقين تحت السيطرة العربية ، وفى مناسبات عديدة اغلقت هذه الطرق نتيجة لمنازعات وصراعات سياسية وقد سبب ذلك أضرارا جسيمة لواردات أوروبا من البضائع الشرقية ما عدا تلك التى كانت تنقل عن طريق وسط آسيا (١٤) . ورغم أن فينيسيا وجنوه كانتا من الدول الأوروبية المهمة التى تاجرت مع الشرق على نطاق واسع منذ القرن الخامس عشر إلا أنها خسرت مركزها الاقتصادى الممتاز بعد استيلاء الأتراك على القسطنطينية عام ١٤٥٣م اضافة الى أن السياسة الاقتصادية للمماليك فى مصر افقدت هذه المدن ما تبقى لها من أفضلية وأصبح واضحا أن اكتشاف طرق جديدة للهند وجنوب شرق آسيا سيدر فوائد عظيمة للدول ذات الأهداف الاستعمارية وفى مقدمتها البرتغال الدولة الأوروبية الأولى ذات الأهداف الاقتصادية الاستعمارية والتجارية ليس فى منطقة الخليج العربى فقط بل وفى الهند وجنوب شرق آسيا .

وفى منتصف القرن الخامس عشر دعا الملك البرتغالى (دوم هنريك) الذى عرف بالملاح الدول الأوروبية التجارية للتوجه عن طريق رأس الرجاء الصالح نحو الشرق تجنبا لملاقاة الأتراك الذين كانت لهم

السيطرة التامة على البحر المتوسط بعد فتحهم للقسطنطينية وعلى كافة الطرق المؤدية الى وادى الرافدين والخليج العربى وأسيا الوسطى وتم ذلك فى عام ١٤٩٨م حين تمكن البرتغاليون من الوصول الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح .

اذن كان الهدف الرئيسى فى التوسع البرتغالى هو الوصول الى الهند والشرق الأقصى مباشرة دون الحاجة الى توسط المسلمين والبنادقة فى نقل التجارة (١٥) والهدف من استعمار الهند هو لما كانت تتمتع به من حضارة وثراء واعتبر الخليج البوابة المؤدية الى الهند لذا كانت اهميته فى أعين المستعمر نابعة من كونه قريبا من الهند وتمكن البرتغاليون من تثبيت أقدامهم على سواحل الهند عام ١٥٠٥م حينما أسسوا بها حكومة يرأسها نائب الملك . ورغم أنهم كانوا ما يزالون فى دور بناء امبراطوريتهم بالهند فقد اتجه اهتمامهم لمناطق الخليج العربى وشبه الجزيرة العربية .

وبالرغم من القوة البحرية الهائلة التى نقلها البرتغاليون الى المحيط الهندى فانهم لم يستطيعوا أن يوقفوا حركة الملاحة العربية فى المحيط الشاسع هذا بالاضافة الى أن الحكومة البرتغالية سمحت للبحارة كأفراد بأن يمارسوا أعمال القرصنة ضد الملاحة العربية لهذا السبب واصل البرتغاليون تقدمهم لاحتلال مالتا وجزر الهند الشرقية فى الشرق الأقصى لكى يمنعوا التجار العرب من الوصول الى مناطق انتاج التوابل ذاتها . فإذن كان هدفهم إزالة الاحتكار التجارى من أيدى عرب البحر المتوسط والخليج العربى الذين سيطروا على زمام الحركة التجارية بين أوروبا وآسيا .

اضافة لذلك كان البرتغاليون مدفوعين فى حركة الاكتشاف والتوسع هذه بروح صليبية وسيطرت هذه الروح على عدد من ضباط البحرية البرتغالية وأبرزهم إفونسو البوكيرك الذى بدأ حياته فى الجيوب البرتغالية على سواحل المغرب ثم دخل الى ميدان الصراع الصليبى المتجدد فى الشرق واشترك فى حملة بحرية الى المحيط الهندى عام ١٥٠٦م ومنها استمر فى قيادة الغزو البرتغالى فى المنطقة .

اذن الاستعمار البرتغالى كان يهدف اضافة الى تحقيق اطماعه التجارية والعسكرية الى خدمة الكنيسة عن طريق بعثات تبشيرية عديدة استقرت فى الكنائس التى بنيت جنبا الى جنب مع القلاع البرتغالية فى هرمز ومسقط والبحرين كما فكر البرتغاليون فى الاستيلاء والسيطرة على منطقة باب المندب لتحقيق أهداف صليبية محضة وكذلك لتثبيط همة المقاومة الاسلامية فى الهند ، حيث أن البحر الأحمر كان أكثر اغراء للبرتغاليين من الخليج العربى لأنه يؤدى الى الأماكن المقدسة الاسلامية (١٦) .فكان هم البرتغاليين أن يقطعوا سبل الاتصال بين دولة المماليك وبين مسلمى الهند سيما وأن المماليك استعدوا لمقاومة البرتغاليين فى المحيط الهندى ، لما لحقهم من أضرار اقتصادية نتيجة اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . وعند فشل البرتغاليين فى تحقيق تلك السيطرة على هذا المنفذ ارتدوا الى الشرق ومنطقة الخليج

العربى وكانت هرمز والموانىء التابعة لها أول ما صادف البرتغاليين عند غزوهم للخليج عام ١٥٠٨م ، وقد شرع قائد الجيش البرتغالى إفونسو البوكيرك فى ضرب الحصار على جزيرة هرمز لكنه اضطر الى فكه عام ١٥١٤م حين حاصروا هرمز التى لم تلبث أن استسلمت ووافق حاكمها على دفع جزية سنوية وقبول حماية البرتغاليين واقامة قلعة برتغالية على الجزيرة .

وفى عام ١٥١٥م بسط البرتغاليون نفوذهم على أغلب مدن الخليج العربى ومن ضمنها البحرين ولكن سيطرتهم على الخليج العربى لم تدم طويلا فقد أخذ نفوذهم يضعف تدريجيا إذ خسروا مواقعهم على الساحل وفى عام ١٦١٢ و ١٦١٥ انهزم اسطولهم الضخم أمام الانكليز فى معارك سورات (١٧) .

٤ ـ عوامل انهيار السيطرة البرتغالية فى منطقة الخليج العربى ..

فى عام ١٦٢٥م أصبح البرتغاليون أغرابا فى منطقة الخليج العربى لكنهم بقوا رغم انحدارهم عن المكانة العالمية التى كانت لهم فى الخليج العربى خطرا عسكريا يهدد الانكليز ومستقبلهم فى الخليج . وما لبثت مقاومتهم أن انهارت اذ تم فى عام ١٦٥٠م وبعد معارك شديدة اجلاؤهم عن منطقة الخليج العربى من قبل العثمانيين بل وتعقبهم حتى سواحل الهند وافريقيا الشرقية (١٨) .

وفى هذا الصدد نود أن نوضح عوامل تدهور القوة البرتغالية للخليج العربى فى نهاية القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ومن ذلك أن تغير وضع البرتغال فى أوروبا كان له دور مهم فى انهيار حكمهم فى الخليج العربى وساحل شرق افريقيا والقارة الهندية فالبرتغال فقدت استقلالها وخضعت للتاج الاسبانى عام ١٥٨٠م وأصبحت لا تعدو كونها مقاطعة اسبانية ولم تسترجع استقلالها إلا فى عام ١٦٤٠م ولكن نفوذها فى الخليج استمر حتى عام ١٦٢٤ دون اتصال مع لشبونه وكانت السياسة البرتغالية فى الخليج فى هذه الفترة تخطط من قبل القادة العسكريين بالاتفاق مع القواعد البرتغالية فى الهند وعدن مما سهل على خصوم البرتغال انهاء حكمهم والسيطرة على قواعدهم وفى منتصف القرن السابع عشر لم يكن للبرتغاليين اى قاعدة عدا مستعمرتهم فى جوا ، ونتيجة لذلك أخذت البرتغال بعد هذه الفترة تركز على التجارة مع الصين وجنوب شرق أسيا وعلى التوسع فى أمريكا الجنوبية .

ومن أسباب انهيار السيطرة البرتغالية الأخرى فى بحار الشرق عدم قدرتها وهى الدولة المحدودة المساحة والسكان السيطرة على امبراطورية ساحلية ضخمة امتدت من لشبونه الى كاليكوت ، كما واجه الأسطول البرتغالى مقاومة عربية بطولية فى كافة مواقعه وخصوصا فى مسقط وفى عام ١٥٠٧ حقق حاكم هرمز الشيخ سيف الدين انتصارا ساحقا على الأسطول البرتغالى وأجبر القائد البرتغالى على قبول معاهدة اعترف فيها البرتغاليون بحكمه رغم أن الحاكم البرتغالى فى الهند قد انتقم لهذا

التحدى حين ارسل عام ١٥٢٣ أسطولا كبيرا احتل هرمز وأحرقها إلاأنه مع ذلك كله فإنه لابد من الاشارة أيضا الى الدور الذى قام به اليعاربة فى عمان وجهودهم فى التصدى للبرتغاليين وتوحيد معظم قبائل الخليج تحت زعامتهم الدينية والسياسية فقد حقق الامام ناصر بن مرشد مؤسس أسرة اليعاربة فى عمان نجاحا كبيرا فى صراعه ضد البرتغاليين تمكن به من طردهم من بعض موانىء وجزر الخليج بل وانتزاع تعهد منهم عام ١٦٤٨ بدفع الجزية السنوية الى عمان واطلاق حرية الملاحة لجميع الأمم فى مياه الخليج والمحيط الهندى .

ويمكن القول أن المقاومة العربية فى منطقة الخليج العربى ما فتئت تجابه البرتغاليين ووقفت لهم بالمرصاد رغم ضعف امكانياتها فى تلك الفترة ، وفى مقابل المقاومة العربية فإن الاحتلال البرتغالى اتسم بالوحشية المتناهية ضد السكان العرب ومحاولة اجبارهم على الارتداد عن الاسلام الى النصرانية كما سادت الفوضى والفردية فى صفوف القوات البرتغالية التى كان قادتها يحاربون من أجل النهب والسلب والحصول على المكاسب الشخصية مستخدمين وسائل الرشوة والخيانة وأدى ذلك كله الى الفوضى والانهيار الاجتماعى وفقدان الفضيلة وكان ذلك من الأسباب التى ساعدت فى انهيار النفوذ البرتغالى فى الخليج اضافة الى تصاعد الهجمات العسكرية التركية والنشاط الذى اظهرته اساطيلها وتهديدهم لطرق المواصلات البرتغالية فى الخليج العربى ومن ثم احتلال الأتراك للبحرين واستعادتهم للبصرة [١٩] . وظهور النفوذ البريطانى وازدياد النشاط الهولندى بمعنى آخر ظهور قوتين بحريتين فى المحيط الهندى فى أوائل القرن السابع عشر هما الأسطول الهولندى والأسطول الانكليزى وتميز هذان المنافسان الاستعماريان بأنهما كانا أكثر إدراكا للمصالح التجارية وقد استطاعا أن يحظيا بمكانة أفضل عند الدول الآسيوية كما حدث بالنسبة لفارس . كما اتصف البرتغاليون بروح التعصب والقسوة فى معاملة الشعوب الآسيوية الافريقية ولم يكترثوا بتنظيم التجارة مع تلك الشعوب ، اضافة الى أن سياستهم كانت ترمى الى التوسع الاستعمارى بالقهر العسكرى واستغلال هذه القوة للحصول على موارد اقتصادية فى حين أن القوى الاستعمارية الأخرى كالهولنديين والانكليز حين ظهروا فى أوائل القرن السابع عشر اتبعوا سياسة جديدة يقصدون التجارة فيها أولا ثم تأتى بعد ذلك القوة الحربية لحماية تلك التجارة علاوة على ذلك فان البرتغاليين لجأوا الى إجبار الشعوب المقهورة على استخراج المواد الخام بالاضافة الى اعتمادهم على العبيد أو المرتزقة من الهنود الذين كانوا يشكلون أعدادا كبيرة فى حامياتهم [٢٠] .

وأخيرا فان من العوامل التى أدت أيضا لتدهور القوة البرتغالية فى الخليج العربى أن ملك البرتغال كان يحتكر تجارة السلع المربحة ولم يترك مجالا للبرجوازية التى كانت أكثر نشاطا فى النظام الهولندى أو الانكليزى حيث أن تأسيس البرجوازية للشركات الاحتكارية يربط مصالح عديد من

الأفراد بحركات الاستعمار كذلك فان الاحتلال البرتغالى يفتقر الى وجود نظام دقيق في البحرية فتكررت حوادث التمرد والخلافات بين كبار الضباط وأخيرا فإن مصير البرتغاليين فى الخليج العربى كان هو نفس مصير الحملات الصليبية فقد نجحت الامارات العربية فى توحيد جهودها للقضاء على القواعد العسكرية التى بناها الأسطول البرتغالى وهكذا انهارت الآمال العريضة التى كان يرمى اليها الاستعمار البرتغالى عسكريا وسياسيا ودينيا .

***

بعد هذا العرض نخلص الى انه لموقع الخليج العربى أثر كبير وأهمية فقد كان ولا يزال شريانا حيويا للتجارة بل يمكن اعتبار النشاط التجارى الذى يمارسه سكان هذه المنطقة العامل المباشر للنمو والازدهار لمراكز العمران التى قامت فيها . بحر داخلى عظيم الأهمية ولا يوجد بحر داخلى فى العالم له نفس الأهمية العظيمة التى يتمتع بها الخليج العربى سواء بالنسبة للجغرافيين أو المؤرخين أو رجال السياسة فالخليج العربى له فى تاريخ البشرية سجل حافل ، يرجع الى فجر التاريخ فبفضل موقعه على أحد الطرق الرئيسية بين الشرق والغرب اكتسب تلك الأهمية التى لا يعادله فيها بحر داخلى اخر .

وكان الكشف عن طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر بداية عهد جديد فى تاريخ النشاط التجارى فى حوض الخليج فمنذ ذلك الحين أخذت أنظار الدول الأوروبية تتجه اليه كمنافس للطريق البحرى الذى تم اكتشافه حديثا فأخذت تسعى للسيطرة عليه .

والسبيل الى السيطرة على الخليج كان يعنى أن تكون الدولة المسيطرة بحرية بالدرجة الأولى وبرزت الدولة البرتغالية فى القرنين السادس عشر والسابع عشر وجاء استيلاء البرتغاليين على منطقة الخليج العربى عن عمد واصرار وكانوا كجند وغزاة لكى يفرضوا سيطرتهم على دوله المختلفه ، وكان ذلك جزءا من برنامج ضخم تولى تنفيذه القائد إفونسو البوكيرك بهدف السيطرة على تجارة الهند وكان سبيل ذلك الاستيلاء على المنافذ البحرية التقليدية كالبحر الأحمر والخليج العربى وبوغاز ملقا وارغام التجار على اتخاذ طريق رأس الرجاء الصالح فى سبيلهم الى البرتغال وأوروبا .

وقبل أن يستولى عليه البرتغاليون كان الخليج العربى أحد الطرق البحرية الرئيسية للتجارة الآسيوية ففيه كانت تمر بضائع الهند والصين وجزر الهند الشرقية وهى فى طريقها الى أسواق إيران وأوروبا وفى طريقها الى أسواق الهند والشرق الأقصى وعلى سواحله قامت دول تجارية فى صورة مدن وازدهرت الحياة فيها ومنها البصرة والبحرين وسيراف وقيس وهرمز ولكنها سرعان ما كانت تذوى ثم تندثر بمرور الوقت بسبب الأحداث التى كانت تعصف بها واحدة تلو الأخرى كثورة القرامطة وسقوط الخلافة العباسية والغزوات المغولية وقيام الامبراطورية الصفوية وكان صدى اضمحلال تلك المدن يتردد فى الفترة التى تم فيها للبرتغاليين اكتشاف طريق رأس الرجاء

الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ومنذ ذلك الوقت تحولت طرق التجارة الرئيسية بين أوروبا وآسيا عن الخليج العربي والبحر الأحمر الى المحيطات الجنوبية ورأس الرجاء الصالح ولم تعد الى مجراها القديم ثانية الا بعد فتح قناة السويس في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

وتحول مسارات التجارة عن طريق الخليج العربي في القرن السادس عشر يعد ضربة قاصمة لدول المدن القائمة على سواحله ولموانىء البحر المتوسط على حد سواء مع حرمان الخليج العربي من المهمة الرئيسية التي يقوم بها كطريق للتجارة بين الشرق والغرب وبقي طوال قرن مجرد تابع من توابع المملكة البرتغالية وكانت السفن البرتغالية تسيطر سيطرة كاملة على مياهه وأصبحت هرمز كقاعدة برتغالية تتحكم في مدخله ، وتقف في وجه حركة التجارة الدولية منه واليه .

وعليه فان السيطرة البرتغالية التي امتدت على مدى القرن السادس عشر يميزها أن الخليج العربي كممر بحري يربط الشرق بالغرب قد أغلق تماما وأن أهميته كطريق للتجارة العالمية تدهورت تدهورا بالغا وانه اصبح مجرد طريق مسدود وسوق محلية للتجارة البرتغالية سواء كانت تجارة البرتغال نفسها أو تجارة امبراطوريتها في جنوب أسيا .

كما تمكن البرتغاليون من الاستيلاء على مسقط وصحار وهرمز والبحرين ووطدوا أقدامهم في مراكز أخرى على سواحل الخليج وبصفة خاصة في القطيف ورأس الخيمة لكن سيطرتهم على الخليج لم تدم طويلا ، فقد أخذ نفوذهم يضعف تدريجا وخسروا مواقعهم على الساحل وفي الوقت الذي ظهر فيه البريطانيون في الخليج كان عصر البرتغاليين قد أخذ في الافول ذلك انهم كانوا قد زحزحوا من البحرين في عام ١٦٠٢ ومن رأس الخيمة في عام ١٦١٩ وفي سبيل زحزحتهم عن هرمز اتصل الشاه عباس بممثل شركة الهند البريطانية في جاسك في عام ١٦٢١ مقترحا توجيه حملة مشتركة ضد البرتغاليين وبموافقة مدير الشركة في سورات هوجم البرتغاليون في هرمز في عام ١٦٢٢ وكانت مهمة البريطانيين تحطيم الأسطول البرتغالي في مياه الخليج بينما كانت مهمة الشاه مهاجمة القلعة في هرمز ولم يمض شهران ونصف على بدء المعركة حتى سلم البرتغاليون وبذلك زحزحوا نهائيا عن الخليج .

ويمكن القول أن نتائج النفوذ البرتغالي في الخليج العربي كانت تكمن فيما يلي :

١ ـ محاولة البرتغاليين السيطرة على تجارة السلع الشرقية وحجب وصولها الى مصر والشام .

٢ ـ تحالف البرتغاليين مع الأحباش ضد القوى الاسلامية .

٣ ـ بداية التنافس بين القوى الأوروبية للسيطرة على تجارة الخليج العربي .

وختاما ورغم كل ذلك فان الحاضر يرتبط بالماضي ولابد لنا نحن العرب اليوم أن نستفيد من تاريخنا ونضالنا العريق ضد الأطماع الاستعمارية وأن نجعل من تلك

الدروس صورة مشرقة لمستقبلنا ، فعلى دول الخليج العربى أن تستفيد من عبر ما حدث فى السياسة الدولية وتجد بوضوح ان الاعتماد على الدول الكبرى هو فى النهاية سياسة غير مجدية والبحث عن أمنها واستقرارها يأتى عن طريق التعاون العربى والتضامن وبناء القوة الذاتية وتنسيق الجهود العربيـة التى تهدف للتعـاون الحقيقى المخلص فقد رحل الملاح البرتغالى وذهب الشرطى البريطانى وبات الأمر فى العمل العربى المشترك وقد برهنت الأحداث على خرافة الأفكار القائلة بوجود دولة أجنبية حامية أو ضامنة لأمن الخليج العربى وانما هناك استعمار ومستعمرون وسعى لاحلال نفوذهم وتحقيق اطماعهم بأبخس الأثمان تيمنا بالمبدأ القائل ليس هناك من أصدقاء دائمين وانما مصالح دائمة .

فالخليج العربى هو المنطقة البالغة الأهمية فى تاريخ وحاضر الأمة العربية ومستقبلها ويؤلف محورا هاما فى السياسة الدولية الحاضرة ، وبذلك يمكن القول بدون تردد . ان نجاح التضامن العربى بين أقطاره يؤلف قوة عربية هائلة تعكس آثارها الايجابية على الموقف العربى والدولى ، ويمكن لهذه القوة إذا أحسن استخدامها وانتظم أمرها أن تصبح وحدها أكبر الكتل الرئيسية فى العالم .

الهوامش

(١) يقع الخليج العربى جغرافيا بين شبه الجزيرة العربية غربا وايران شرقا ومضيق هرمز وخليج عمان جنوبا والعراق شمالا ، وللمزيد من المعلومات حول مساحته وابعاده انظر : د. صبرى فارس الهيتى . الخليج العربى دراسة فى الجغرافية السياسية ، دار الحرية للطباعة بغداد ١٩٧٩ ، ص ١٨ .

(٢) انظر الخريطة الخاصة بالخليج العربى .

(٣) سليم طه التكريتى ، المقاومة العربية فى الخليج العربى ، دار الرشيد للنشر ، منشورات وزارة الثقافة والاعلام ، بغداد ١٩٨٢ ، ص ١١ .

(٤) سالم سعدون ، جزر الخليج العربى ، دراسة فى الجغرافية الاقليمية ، دار الحرية للطباعة ، بغداد ١٩٨١ ، ص ٢٨ .

(٥) د. ابراهيم شريف ، الشرق الأوسط ، منشورات وزارة الثقافة والارشاد بغداد ، ١٩٦٥ ، ص ٢٣ .

(٦) S.A. Morrison, Middle East Survey, S.C.M. Press Ltd, London, 1954, p. 14.

(٧) جيمس فيرجريف ، الجغرافية والسيادة العالمية ، ترجمة : على رفاعة الأنصارى ود. محمد عبد المنعم الشرقاوى ، مكتبة النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، ص ٢٩٧ .

(٨) د. محمود على الداود . الخليج العربى والعمل العربى المشترك ، مطبعة الارشاد ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة ١٩٨٠ ، ص ٣٢ .

(٩) د. جمال زكريا قاسم . الصراع العمانى ـ البرتغالى فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، مجلة البحوث والدراسات العربية ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، العدد العاشر . القاهرة ١٩٨٠ ، ص ٣٣٩ .

(١٠) د. صدقه يحيى فاضل . الأهمية العالمية المعاصرة للخليج ودول مجلس التعاون ، مجلة التعاون ،الأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربى السنة الثانية ، العدد الخامس ١٩٨٧ ، ص ٣٦ .

(١١) على غنام . أحداث فاصلة فى احلال النفوذ الأجنبى بالخليج العربى ، مجلة الخليج العربى ، مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة ، المجلد السابع عشر العدد ٢ السنة الثالثة عشرة ١٩٨٥ ، ص ١٠ .

(١٢) د. جمال زكريا قاسم . مصدر سبق ذكره ، ص ٣٣٩ .

(١٣) S.B. Miles. The Countries and Tribes of the Persian Gulf, Frank Oass Co. Ltd, 1966, p. 145.

(١٤) د. محمود على الداود ، مصدر سبق ذكره ، ص ٢٨ .

(١٥) د. جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير . دار الهلال . القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٦٥ .

(١٦) Sir Arnold T. Wilson: The Persian Gulf, Third Impression, 1959, p. 120.

(١٧) د. محمود على الداود . العلاقات البرتغالية مع الخليج العربى ١٥٠٧ ـ ١٦٥٠ . مجلة كلية الآداب . جامعة بغداد ، العدد ٢ ـ شباط ١٩٦١ ، ص ٣٣٩ .

(١٨) د. صبرى فارس الهيتي . مصدر سبق ذكره ، ص ٣٣ .

(١٩) صالح اوزبران . الاتراك العثمانيون والبرتغاليون في الخليج العربى ، مطبعة الارشاد ، منشورات مركز دراسات الخليج العربى بجامعة البصرة ، ١٩٧٨ .

(٢٠) د. صلاح العقاد ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢١ .

النظام الدولي الاقليمي في منطقة الخليج خلال فترة الاستعمار البرتغالي

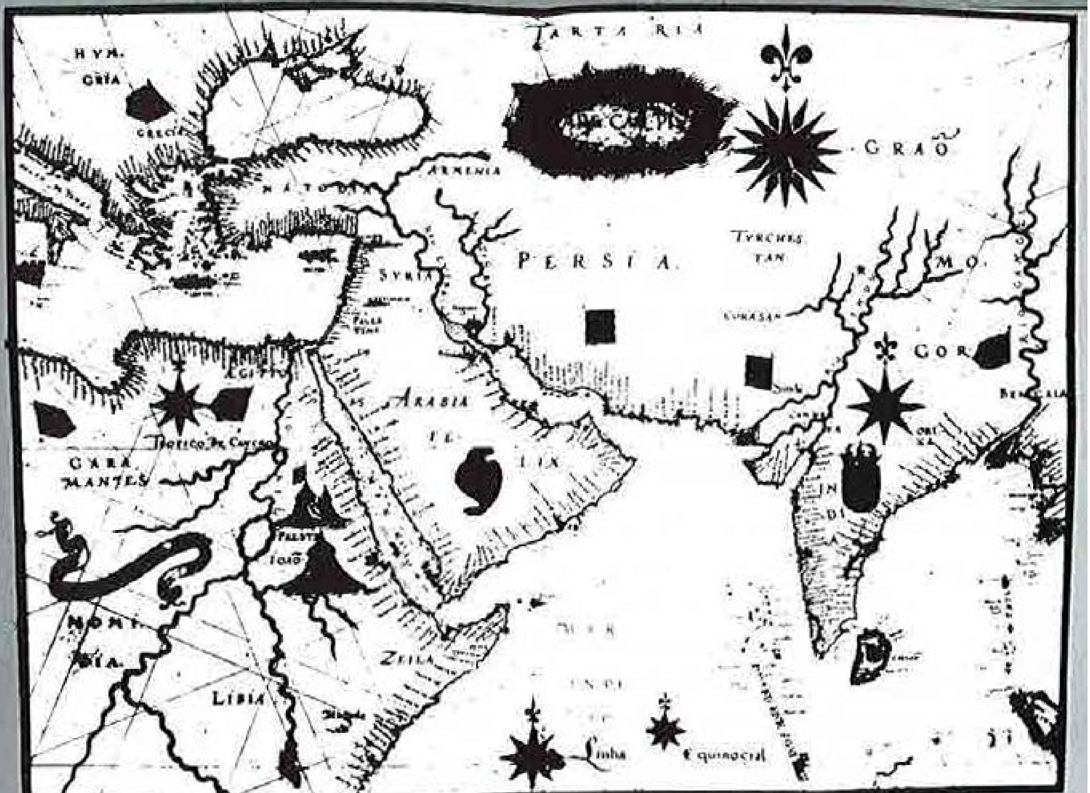
درج العلماء في تحليل موقع الخليج من الصراعات الدولية المعاصرة على تقبل مفهومين اساسيين: الاول ويدور حول ان اهمية منطقة الخليج لم تبرز في صورة واضحة لتعلن بصراحة عن موقعه كأحد عناصر القلب في التوازن الاستراتيجي الدولي الا خلال الاعوام العشرين الماضية وعلى وجه الخصوص في اعقاب حرب الايام الستة. والثاني ان هذه الاهمية تنبع اساسا من الثروة البترولية التى تتميز بها المنطقة [1] هذين المفهومين رغم صحة كل منهما الا انه يجب ان نعيد النظر في حقيقة ما يتضمنه اي منهما من احكام عامة لا تقبلها النظرة التحليلية لتاريخ هذه المنطقة.

اهمية منطقة الخليج حقيقة تاريخية تنبع من نظرة استراتيجية كلية وشاملة لمبدأ السيادة الدولية. واذا استطعنا في هذه النظرة الكلية الشاملة ان نفصل بين الثابت والمتغير لكان بامكانية هذا التحليل ان يكتشف حقيقة التوظيف الاستراتيجي للمنطقة ليس فقط على مستوى الماضي بل وكذلك في المستقبل وباستقلال مطلق عن عنصر البترول وجودا او عدما.

بقلم: الاستاذ الدكتور حامد ربيع

ونستطيع بصفة عامة ان نؤكد انه منذ اقدم العصور وجدت نظريتان متباينتان في مفهوم السيادة العالمية: النظرة الاولى والتي نبعت منها مفاهيم الاسكندر الاكبر والنظرة الثانية والتى سيطرت على مدركات قياصرة روما. الاسكندر الاكبر اعظم قادة العصور القديمة كان ينطلق من ثلاثة مباديء اساسية:

(الاول) ان محور التحكم في السيادة العالمية هو المنطقة الممتدة من ارض



نحو بناء نموذج تاريخي للتكامل بين المنطقة والإطار الدولي للسيطرة وفرض التبعية

الرافدين الى ارض وادي النيل . في هذه المنطقة يجب ان يتمركز من يريد ان يخلق امبراطورية عالمية.

(الثاني) ان البحر المتوسط لا يعنيه الا بقدر جزئه الشرقي الذي يكون حائطا تستند اليه عاصمة وقلب التوازن العالمي.

(الثالث) ان حماية هذا القلب تفترض التوجه ايضا نحو الشرق والى حدود الهند انها مجاله الحيوي الذي يمثل الحائط إزاء العناصر غير المتمدنة القادمة من مجاهل آسيا المتوحشة شرقا وشمالا . على العكس من ذلك فان قياصرة روما انطلقوا من ادراك آخر ومختلف بل ويكاد يكون متناقضا مع هذا الادراك في بعض عناصره. مبادىء ثلاثة

التاريخ المعملي الذي هو في حاجة اليه ومن ثم فهو يبحث في هذا التاريخ عن المواقف المماثلة او المتشابهة مع الوضع الحاضر ويجردها في نماذج بالمعنى الثاني ثم من خلال المقارنة مع الموضع المعاصر يستطيع ان يؤكد من صحة نتائجه سواء في حالة التطابق او في حالة الخلاف. التطابق هو تأييد بصحة النتائج والخلاف هو دعوة للبحث عن اسباب التناقض وهو تفسير لهذا التناقض من منطلق فهم طبيعة الأزمنة التاريخية (٦).

الذي نحاوله في هذه الدراسة هو بناء نموذج بالمعنى الثالث. موضوعنا هو تحليل النظام الدولي وموقع الخليج فترة الاستعمار البرتغالي ولنستطيع ان نفهم الاطار الفكري الذي تنبع منه دراستنا علينا ان نتذكر مجموعة من الحقائق. أولى هذه الحقائق ان الخليج منذ بداية العصور الحديثة وعلى وجه التحديد منذ القرن الخامس عشر لم يملك اي ارادة اقليمية بل ظل يخضع لتلاعب القوى الدخيلة على المنطقة التى راحت تسعى بفرض نوع لها من السيادة العالمية ومن الطبيعي إزاء منطقة تملك أهميتها الاستراتيجية أن تسعى تلك القوى ذات الطموح العالمي الى فرض التبعية على منطقة الخليج. والحقيقة الثانية هي ان نظم الهيمنة والسيطرة على المنطقة رغم تعددها تتمركز وتتمحور اساسا حول نماذج ثلاثة: النموذج البرتغالي اولها يتبعه النموذج الانجلو سكسوني ثم نموذج الصراع المعاصر بين واشنطن وموسكو. (٧) وهي نماذج ثلاثة كل منهما يملك شكله المتميز. ورغم ان هذه الدراسة سوف تقتصر على النموذج البرتغالي الا ان ابراز اوجه الخلاف مع النماذج الاخرى يسمح بابراز الثابت والمتغير في علاقة منطقة الخليج بالنظام الدولي. الحقيقة الثالثة وتدور حول احد هذه المتغيرات الثابتة بل واهمها وهو البعد الاستراتيجي والجيوبوليتيكى لمنطقة الخليج. هذا المتغير هو وحده الذي يجمع بين النماذج الثلاثة في نموذج واحد اكثر اتساعا ويدور حول وظيفة منطقة الخليج في الصراع حول السيادة العالمية. ايضا هذا النموذج العام والكلي ليس موضوع هذه الدراسة ورغم اننا سوف نتعرض له بطريقة غير مباشرة وجزئية.

ما المقصود بموقع منطقة الخليج من النظام الدولي وبصفة خاصة خلال فترة الاستعمار البرتغالي؟

منطقة الخليج تمثل اهمية استراتيجية خاصة سوف نتعرض لها تفصيلا على ضوء التعامل التاريخي مع المنطقة. ولكن الذي يعنينا مؤقتا في بناء هذا النموذج والمرتبط بفترة الاستعمار البرتغالي تحديد معنى علاقة منطقة الخليج بالنظام الدولي. الاهمية الاستراتيجية لا بد وان تخلق الاهتمام. والضعف الذاتي لا بد وان يشجع الاحتواء. وابتداء من هاتين الكلمتين نستطيع ان نلخص تاريخ منطقة الخليج في العصور الحديثة وابتداء من القرن الخامس عشر قد يكون هناك خلاف في التفاصيل وقد تتعدد العناصر الجانبية المتباينة. وقد تختلف الاطراف المتعاملة، ولكن الجوهر يظل واحدا. اهمية خلقت من المنطقة عنصر جذب. ضعف لا بد وان يشجع على الاحتلال او التحكم. ولو تتبعنا مصدر هذا الاهتمام

نجده قد تنوع وتعدد. لم توجد أمة حاولت ان تكون لها سيادة عالمية معينة ولم تهتم بالمنطقة. البرتغاليون ارتبط بهم الهولنديون والفرنسيون والبريطانيون واعقبهم الالمان ونحن نعيش اليوم مرحلة يبرز فيها في صورة ساطعة كل من الروس والامريكيون. بل ان الصينيين واليابانيين بدورهم لم يتركوا هذه المنطقة دون اهتمام. هذا التدخل في المنطقة بغض النظر عن مستواه ونماذجه لا بد وان يخلق رابطة مباشرة بين التعامل في المنطقة والنظام الدولي السائد (٨).

لو تتبعنا تاريخ منطقة الخليج من حيث تعاملها مع القوى الدولية وابتداء من القرن الخامس عشر نستطيع ان نميز في هذا التعامل بين نماذج ثلاثة واضحة من حيث عناصرها ومتغيراتها. النموذج الاول وهو البرتغالي الذي سوف نتناوله بالتفصيل في الصفحات التالية. النموذج الثاني وهو البريطاني ويستغرق قرابة قرن ونصف حيث وصل الى كماله من حيث التحكم في المنطقة مع اواخر القرن الثامن عشر وظل طيلة القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين هو وحده صاحب السيادة والسيطرة. الحرب العالمية الثانية وضعت حدا لهذا النموذج من السيطرة حيث قوة واحدة دولية تتحكم بشكل او بآخر في المنطقة ومن ثم يكون من خلالها ربط المنطقة بالنظام الدولي لتعاصر نموذجا اساسه ازدواج الاقطاب المتعاملة: الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي ورغم ان السياسة الامريكية انتهجت سلوكا اساسه محاولة الانفراد بالمنطقة والعودة من ثم الى النظام التقليدى الا انها حتى هذه اللحظة لم تنجح في ذلك.

حرب الخليج هي في الواقع تعبير عن حقيقة هذه العلاقة بين المنطقة والنظام الدولي الذي يسود التعامل مع المنطقة. لم يفهم اطراف الصراع تلك الحقيقة في بداية الصدام ولكنهم اكتشفوا عقب ذلك وعقب ان اضحى التراجع مستحيلا انهم ليسوا الا لعبة في يد الارادات الدولية (٩).

ولكن هذا يخرج بنا عن نطاق الدراسة.

الاستعمار البرتغالي وخصائص النظام الدولي الاقليمي خلال القرن السادس عشر

السيطرة الحقيقية للبرتغاليين على منطقة الخليج اكتملت عام ١٥٥٩. وكان ذلك عقب الحملة التركية بقصد استرجاع البحرين من ايدي البرتغاليين والحاق هزيمة ساحقة بهم اذ تحرك أسطول تركي متجها نحو البحرين ليواجه أسطولا برتغاليا تسانده قوات عربية اعدها حاكم البحرين وهو الرأس مراد الذي كان يحكم باسم شيخ هرمز واستطاع هؤلاء المتحالفون ان يوقعوا الهزيمة بالقوات التركية وان يفرضوا عليها الانسحاب بل ودفع مبلغ معين على سبيل التعويض (١٠). في ذلك الوقت اكتملت للبرتغال السيادة على منطقة الخليج دون منازع حقيقي.

أ) على أن هذه السيطرة لم تتم دفعة واحدة. ونستطيع أن نحدد وقائع متتابعة انتهت بتحقيق تلك السيادة واستغرقت قرابة نصف قرن كامل من الزمن :

(أولا): اول خطوة في سبيل تحقيق هذه السيادة وقد ارتبطت بتصريح دولي يؤكد هذه الحقيقة كانت رحلة فاسكودي جاما الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح والتي انتهت بعودته الى لشبونة في سبتمبر ١٤٩٩ والتي احدثت دويا عظيما في مختلف الاوساط الاوربية وقد توج ذلك بتصديق البابا على اللقب الذي خلعه على نفسه ملك البرتغال بأنه «سيد الفتح والملاحة والتجارة في الهند والحبشة وجزيرة العرب وفارس» [١١].

(ثانيا): وكان من الطبيعي ان تبحث السلطات البرتغالية عن مواقع اقدام لها في مختلف اجزاء الخليج لحماية مواصلاتها وتأمين نفوذها. في عام ١٥٠٧ كانت اول حملة هامة ذات دلالة عندما اتجهت قوات برتغالية الى سواحل عمان وبصفة خاصة الى هرمز حيث رفض الحاكم الاستسلام فخضع لهجوم مدمر انتهى بان قبل الشيخ سيف الدين حاكم المنطقة ان يوقع معاهدة يصبح بمقتضاها تابعا للتاج البرتغالي بل وان يرفع العلم وعليه شارة الصليب. [١٢] وكان ذلك في سبتمبر ١٥٠٧.

(ثالثا): اكتملت هذه العملية بعملية اخرى عام ١٥١٥. ذلك ان جزيرة هرمز لم تستقر فيها السلطة البرتغالية وخضعت لكثير من الاضطرابات بسبب الصدام المستمر بين اهالي المنطقة وكل من البرتغاليين من جانب واهل فارس من جانب آخر. في عام ١٥١٥ استطاع الاسطول البرتغالي مرة اخرى ان يعيد احتلال الجزيرة واهمية احتلال هذه الجزيرة للمرة الثانية هي اعتراف حاكم ايران الشاه اسماعيل بهذا الاحتلال وابرام اتفاق مع القيادة البرتغالية أساسه:

١ـ ان تقدم البرتغال مساعدة بحرية لايران لتمكن هذه من غزو البحرين.

٢ـ ان يقوم تحالف بين البرتغال وايران ضد تركيا بحيث يساعد بمقتضاه البرتغاليون اهل فارس في قمع التمرد ضد قواتهم في اكثر من موقع واحد بالخليج.

هذا الاتفاق هو اعلان بقبول سيادة البرتغال على المنطقة.

(رابعا) على ان هذا الاتفاق كان خطأ دبلوماسيا دفعت البرتغال ثمنه غاليا عقب ذلك. فالاتفاق ضد العثمانيين هو تمكين لقوى اجنبية تحمل راية الصليب ضد قوى مهما وصفت فهى تمثل الاسلام. والحكم البرتغالي تميز بالقسوة والعنف مما دفع الى الرغبة فى الثورة. وقد استغل ذلك شيخ هرمز وقد استطاع تنظيم وتكتيل جميع القوى ضد البرتغال. وفعلا فاجأ هؤلاء الذين خضعوا لهزيمة حقيقية. وكان لابد من حدوث رد فعل عنيف من جانب السادة الجدد. وهكذا ارسل اسطول برتغالى من الهند دمر المنطقة واستعاد هرمز حيث ابرم معاهدة جديدة عرفت باسم معاهدة ميناب فى ٢٣ يوليو من عام ١٥٢٣ بموجبها لم تعد هرمز تخضع فقط للحماية البرتغالية وانما اضحت تحت الحكم البرتغالي المباشر [١٣].

ولم تكن هذه الاتفاقية سوى مقدمة لغزو حقيقي للمنطقة:

١ ـ فى عام ١٥٢٦ حدثت ثورات جزئية فى بعض اجزاء مسقط لم، يتردد المستعمر البرتغالي فى سحقها بقوة وعنف.

٢ ـ كذلك فقد اصر على تحصيل جميع

متأخرات الجزية المستحقة على حاكم هرمز .

٣ ـ واستكمل ذلك بنفي الرئيس شرف الدين المستشار الاول لحاكم هرمز الى البرتغال .

٤ ـ وبدأت اولى محاولات برتغالية بغض النظر عن فشلها لاحتلال البصرة الامر الذى يعنى مد النفوذ البرتغالي إلى جميع اجزاء الخليج من جنوبه الى شماله .

٥ ـ واكتمل ذلك بهزيمة الاتراك فى مسقط على ايدى البرتغاليين عام ١٥٥٣ الصراع المباشر الصريح بين البرتغاليين والاتراك بدأ فى عام ١٥٥٠ عندما ثار اهالى القطيف واعلنوا بانهم يضعون انفسهم تحت حماية الاتراك. وعندئذ خرجت حملة برتغالية استطاعت طرد الاتراك من القطيف بل وهددت البصرة. واكتمل ذلك بصدام عنيف بحرى فى اغسطس عام ١٥٥٣ قرب مسقط بين الاسطول التركى والاسطول البرتغالي انتهى بهزيمة ساحقة للاتراك لم يعدل الاتراك رغم ذلك عن محاولاتهم فى الحاق الهزيمة بالبرتغاليين وفعلا وفقوا فى ذلك عام ١٥٥٩ حيث تمكنوا من استدراج البرتغاليين الى كمين والحقوا بهم خسائر فادحة . رغم ذلك فقد اعاد البرتغاليون الكرة عقب وصول امدادات من هرمز بفضل مساعدة الحكام العرب فى المنطقة واستطاعوا ان يرغموا الاتراك على الانسحاب من البحرين عقب ان الحقوا بهم هزيمة نكراء .

ولكن ما هى خصائص هذه السيطرة التى سمحت للبرتغال بان تتحكم فى الواقع الخليجى خلال قرابة قرن كامل من الزمن ؟

نستطيع ان نحدد عناصر هذا النموذج حول ستة متغيرات اساسية :

(اولا) القوة الغازية واحدة ومنفردة وهى القوة البرتغالية .

(ثانيا) القوة الغازية تسعى لتدعيم مراكز نفوذها التجارى .

(ثالثا) القوى المتصارعة فى المنطقة وحول المنطقة ست قوى : الى جانب البرتغاليين هناك البريطانيون والهولنديون من جانب ثم الفرس والاتراك والعرب من جانب اخر حيث المجموعة الاولى تسعى للتغلغل فى المنطقة والمجموعة الثانية تمثل القوى الاقليمية التى تنتمي الى المنطقة وكان من الطبيعى ان تقف ضد ذلك التغلغل .

(رابعا) القوة الاقليمية الوحيدة ذات الوزن هى قوة فارس.

(خامسا) الارادة المحلية العربية مهلهلة وغير متجانسة .

(سادسا) الاطار الدولي لم يكن يعرف خلال هذه الفترة مفهوم البحث عن السيادة العالمية .

لفهم حقيقة الاطار الدولى للتعامل مع منطقة الخليج وكيف ترتبت على ذلك الاطار نتائج معينة من حيث خصائص الصراعات المحلية والاقليمية المرتبطة بهذه المنطقة يتعين علينا ان نتابع هذه الخصائص بشىء من التفصيل .

أول هذه العناصر هو ان القوة الغازية للمنطقة كانت واحدة ومنفردة بطبيعة الحال خلال الفترة الاولى نازعت السيادة قوى اخرى متعددة. وسوف نرى ذلك تفصيلا فيما بعد كما تعرضنا له بايجاز فيما سبق. ولكن منذ استقرت القوة البرتغالية وفرضت

احترامها على القوى الاخرى المحلية وغير المحلية لم يكن هناك منازع او اية قوة اخرى تستطيع ان تتحدى البرتغال وتلك السيادة . التحدى ان وجد هو فقط محاولة لاثبات الوجود او انتزاع بعض التنازلات .

قد يبدو لاول وهلة ان هذا القول مبالغ فيه خصوصا عندما نتابع الاحداث خلال الفترة اللاحقة لعام ١٥٥٣ التى نعتبرها لحظة وصول السيطرة البرتغالية الى قمتها من حيث الفاعلية. ولكن الواقع ان هذا غير صحيح. المتغير الذى خفف من حدة هذه السيطرة هو ان السياسة البرتغالية لم تكن ترمى من غزوها لمنطقة الخليج ان تجعل من ذلك عنصرا من عناصر سيادة عالمية. البرتغال لم تكن تفكر فى ذلك ولم تكن تطمع فى ذلك. هدفها الوحيد هو السيادة التجارية والتحكم فى التعامل الدولي المرتبط بالتبادل الاقتصادى اهمية المنطقة الاستراتيجية من حيث موقعها وقدرتها على التحكم فى عمليات الاتصال تظل قائمة. ولكن السعى نحو التحكم فى النفوذ العالمي ليس واردا ومن ثم فان طبيعة الاستعمار البرتغالي لابد وان تختلف وسوف يبرز ذلك واضحا عندما نقارن بين الاستعمار البرتغالي خلال القرن السادس عشر والاستعمار البريطانى خلال القرن التاسع عشر لنفس المنطقة .

والواقع ان الاطار الدولي خلال هذه الفترة لم يكن يعرف ولا يدرك مفهوم البحث عن السيادة العالمية(١٤) فالدولة العثمانية لم تكن قادرة على مواجهة مثل هذه الفلسفة بل ويخيل الينا انها لم تعرفها في اى مرحلة من تاريخها . وبريطانيا كانت لاتزال بعد لم تكتمل فى اطارها الحركي وقدراتها الذاتية كقوة عالمية. ما عدا ذلك من قوى لم يكن سوى قوى ثانوية . مفهوم الوكالة العالمية الذى يضفى على سياستها بعدا كليا من جانب واستراتيجيا من جانب اخر ومتكاملا من حيث عناصره من جانب ثالث وحيث الهيبة ترتفع لتصير متغيرا اساسيا من جانب رابع لم يكن بعد قد عاد الى الضمير السياسى. عقب اختفاء الامبراطورية الرومانية والدولة العظمى الاسلامية وكان على الانسانية ان تنتظر حتى القرن التاسع عشر لتبرز هذه المفاهيم من خلال الدولة القومية. هذه الحقيقة تخفف من وطأة المفهوم الاستعمارى ولكنها رغم ذلك تجعله يكشف عن انيابه القبيحة فى اقسى صورها وحشية. وهذا ما تميز بـه الاستعمار البرتغالي .

ناحية اخرى جديرة بان تثير الانتباه وهى المتعلقة بالقوى المختلفة المتصارعة فى المنطقة وحول المنطقة فرغم ان الاستعمار البرتغالي كان هو صاحب السيطرة الا انها لم تكن من حيث الواقع مطلقة . الهيبة والخوف من القوة البرتغالية لم توجد فى اى مرحلة من مراحل هذا الاستعمار حيث لم تتردد قوى اخرى عديدة من رفع راية التحدى. ويجب ان نتذكر بصفة خاصة خمس قوى اخرى استطاعت كل منها فى حدود معينة ان تخلق صعوبات جادة ضد السيطرة البرتغالية.

اولى هذه القوى والتى لا تنتمى الى المنطقة الانجليز. لقد ادرك البريطانيون منذ فترة سابقة على الاستعمار البرتغالي اهمية المنطقة وخططوا لاخضاعها لنفوذهم ولكن باسلوب جوهره التدرج والحنكة وبعد

النظر. وقد وصلت تلك الحنكة الى قمتها فى عام ١٦٣٤ عندما بدا واضحا ان نهاية البرتغاليين قادمة . وقد تضخم النزاع بين هؤلاء والايرانيين ورغم ان اهل فارس طلبوا من الانجليز مساعدتهم فى طرد البرتغاليين من اخر مواقعهم فى مسقط بل وانتزعوا من الانجليز وعدا بذلك اذا بهدنة تعقد فى منتصف عام ١٦٣٤ بين الطرفين لتعقبها تعليمات الى العاملين فى الشركة الانجليزية بالحياد التام ويتوج ذلك كله اتفاقية ودية بين الطرفين فى ٢٠ يناير ١٦٣٦ . القوة الثانية وهى بدورها اجنبية لا تنتمى الى المنطقة الهولنديون وهؤلاء بدورهم مثلوا قوة معينة ولكنها حتى نهاية الربع الاول من القرن السابع عشر لم تكن ذات فاعلية حقيقية وان استطاعت ان تلعب فى الماء القذر وبصفة خاصة فى العلاقة بين ايران وبريطانيا. القوى المحلية والتى تنتمى الى المنطقة ثلاث :

الايرانيون والاتراك والعرب. اهم هذه القوى هم اهل فارس. ورغم ان القيادة الايرانية كما سوف نرى فيما بعد تميزت بالتقلب وعدم وضوح الرؤية ورغم ان قواتها العسكرية لم تكن على ذلك القدر من الفاعلية بحيث يمكن القول بانها مثلت اضعف العناصر العسكرية خلال تلك الفترة الا ان أسبابا معينة جد منها عنصر اساسي في عملية التوازن بين القوى[١٥] . ولعل اهم تلك الاسباب هو ضعف الجانب العربى وعدم اهتمام السلطات العثمانية بتلك المنطقة الامر الذى سمح لايران بالانتصار على القوات التركية فى اكثر من مناسبة . فى عام ١٦٢٣ استطاعت الجيوش الايرانية اقتحام العراق واحتلال بغداد الذى ظل قرابة خمسة عشر عاما وحتى ١٦٣٨ . وقبل ذلك استطاعت ايران ان تسجل انتصارا حاسما على الدولة العثمانية قرب تبريز فى عام ١٦١٨. هذه الانتصارات على الدولة العظمى منحت ايران هيبة لم تكن من حيث الواقع تملكها. القوة العربية كانت مهلهلة متناحرة لم تفكر فى اى مرحلة من مراحل هذا التطور فى ان تتحدد او تكون جبهة واحدة بل كانت لعبة فى يد القوى الاخرى المختلفة والتى رصدناها في خمس قوى اساسية ولعل هذا هو الذى مكن البرتغاليين من ان يسيطروا على المنطقة قرابة قرن كامل من الزمان .

ب) كيف انتهت السيطرة البرتغالية على النظام الاقليمي في منطقة الخليج ؟

سبق ورأينا كيف ان تحقيق السيطرة البرتغالية بحيث تستطيع التحكم فى النظام الاقليمى فى منطقة الخليج استغرق فترة من الزمن كذلك اختفاء هذه السيطرة كان فى حاجة الى فترة معينة تتابعت فيها الوقائع لتنتهى بالاختفاء الكلي للاستعمار البرتغالي على هذه المنطقة .

فلنتابع الوقائع لانها بدورها تفصح عن حقيقة وخصائص التعامل :

(اولا) اولى هذه الوقائع التى تحكمت فى تدهور الوجود البرتغالي هو فقد لشبونة لاستقلالها مع اندماجها فى الدولة الاسبانية. ضم البرتغال لاسبانيا فى عام ١٥٨٠ كان يعنى سيطرة المدركات والمصالح الاسبانية والواقع ان الحكومة الاسبانية باعتراف جميع المؤرخين لم تكن تدرك لا حقيقة الاستعمار البرتغالي ولا اهمية هذا

الاستعمار ومن ثم لم تخطط لا لتثبيت دعائمه ولا لنشر اطاره من حيث التعامل المحلي والاقليمي. وعندما استعادت البرتغال استقلالها عام ١٢٤٠ كان الموقف قد صفي تقريبا لغير صالح البرتغاليين. وتبدو هذه الحقيقة واضحة لو تذكرنا امرين :

١ ـ اول ما يجب ان نتذكره هو الهزيمة الساحقة التى انتزعتها بريطانيا عندما حطمت الارمادا الاسبانية فى عام ١٥٨٨ . وقد ترتب على ذلك ليس فقط تقلص القدرة الاسبانية بل والشعور بالنقص فى مواجهة القوة البحرية الانجليزية .

٢ ـ على ان اخطر ما يجب ان يعاب على السياسة الاسبانية الجديدة هو النظرة الى هذا الاستعمار على انه نوع من التبشير بالمسيحية متناسية حقيقة اهداف السياسية البرتغالية . برز ذلك واضحا فى الممثلين الرسميين الذين ارسلتهم اسبانيا لعمليات التفاوض المختلفة وبصفة خاصة مع ايران. حتى ان الشاه عباس الذى فى لحظة معينة كان متلهفا لوضع اسس نظام للتعامل مع القوة المستعمرة ضجر من الممثلين الكهنوت وكتب للسلطات الاسبانية[١٦] يذكرها بانه يفضل ان يرسل اليه رجل ذو قيمة يتفاوض معه بدل هؤلاء الكهنة لانه «اقدر على التفاهم مع مثل هذا الرجل بما يرضي جلالة ملك اسبانيا ويرضى الله اكثر من هؤلاء الكهنة «بل ويضيف ان رجل الدين متى خرج من صومعته اصبح كالسمكة التى اخرجت من الماء» .

(ثانيا) كذلك يجب ان نضيف ان جميع القوى الدولية حاولت استغلال هذا الواقع الجديد والذى محوره الحقيقى عدم الفهم واختفاء الوعى لدى القيادة الاسبانية بحقيقة ووظيفة الوجود البرتغالي .

١ ـ اول من حاول استغلال هذا الواقع هو الحكم العثمانى اذ خرجت حملة تركية الى مسقط يقودها على بك واستطاعت ان تفاجىء الحامية البرتغالية التى لم يكن امامها سوى الانسحاب المؤقت الى الداخل .

٢ ـ واعقب ذلك فى العام التالي حملة من الجانب الايرانى استطاعت محاصرة جزيرة هرمز ورغم ان هذه القوات طردت من الجانب البرتغالي الا ان هذا بدوره كان ايذانا ببدء حركة التحدى .

٣ ـ ثم اعقب ذلك محاولة من الجانب الانجليزي وبطبيعة الحال كما عهدنا فى السلوك الانجليزي لم تأخذ هذه المحاولة صورة الغزو المسلح وانما اخذت صورة رحلة قام بها مجموعة من المغامرين الانجليز ولكن السلطات البرتغالية تنبهت الى ذلك وشكت فى ان يكون هؤلاء جواسيس لصالح الاستعمار البريطاني فقبضت عليهم واودعتهم السجن[١٧] .

(ثالثا) على ان الضربة الحقيقية التى اعلنت بداية انحسار النفوذ البرتغالي وابتداء مرحلة تقلصه كانت فى نهاية الربع الاول من القرن السابع عشر. بدأت عام ١٦٢٠ عندما قام الايرانيون بمساعدة العرب المحليين بمحاصرة احد مواقع الاحتلال البرتغالي بالقرب من رأس الخيمة وتمكنوا من طرد البرتغاليين وفى نهاية العام اصطدم الاسطول البريطانى بالاسطول البرتغالي فى معركة عنيفة انتهت بانتصار الاسطول الانجليزي . فى عام ١٦٢١ تم الاتفاق بين

الانجليز والايرانيين على تنظيم قدراتهم بقصد طرد البرتغاليين من هرمز. وفي ٩ فبراير عام ١٦٢٢ بدأ الهجوم المشترك حيث قاد العمليات البرية الايرانيون وتولى الانجليز تدمير القوى البحرية وفي ٢٣ ابريل استسلم البرتغاليون للانجليز. لينتهي وضع السيادة البرتغالية في منطقة الخليج بحيث يمكن القول ان هذه السيادة انتهت من حيث الواقع عام ١٦٢٢ وبهذا تكون قد استمرت دون منازع حقيقي قرابة سبعين عاما .

وقد أعقبت هذه الهزيمة مجموعة من التطورات كان لابد وان تنتهي بتصفية النفوذ البرتغالي من المنطقة . نستطيع دون دخول في التفاصيل التاريخية ان نميز بصفة خاصة بين هذه التطورات التي ترابطت للوصول الى هذه النتيجة . (اولا) التقارب بين ايران والانجليز على حساب كل من الاتراك والبرتغاليين.

(ثانيا) انسحاب البرتغاليين الى مسقط واستقرارهم فيها والعدول نهائيا عن محاولة استعادة هرمز بل وعقد صلح مع الايرانيين اعترف فيه البرتغاليون بانتقال هرمز الى حكم وسيطرة شاه ايران .

(ثالثا) محاولة الايرانيين ملء الفراغ الذي احدثه انسحاب البرتغال بدأ بمطالبة الانجليز بمساعدة فارس أي التعاون العسكري سواء للتخلص من البرتغاليين في مسقط او لضرب الاتراك في البصرة ورغم استجداء ايران لصداقة بريطانيا فان الانجليز تهربوا من هذه المساعدة .

(رابعا) وجاءت الضربة القاضية عندما استطاع العرب في عمان ان يتحدوا ويقوموا بمهاجمة مسقط عدة مرات انتهت بسقوطها في يناير ١٦٥٠ وارغام البرتغاليين على الجلاء نهائيا عن المنطقة[١٨] .

من الطبيعي ان يطرح الباحث عقب هذه المتابعة تساؤلا اساسيا : ما هي الاسباب التي أدت الى فشل الاستعمار البرتغالي ؟

الاجابة على هذا الاستفهام تطرح الخصائص الحقيقية لمختلف القوى التي تعاملت مع المنطقة خلال فترة القرن الذي كان موضع تحليل وبصفة خاصة منذ منتصف القرن السادس عشر حتى نهاية الربع الأول من القرن السابع عشر . لقد رأينا ان القوة المسيطرة والسائدة كانت المقدرة البرتغالية . رغم ذلك فإن المتتبع للسياسة البرتغالية يلحظ بوضوح كيف انها تميزت بمتغيرات حكمت عليها منذ البداية بالفشل . رأينا في مقدمة ذلك تبعية البرتغال لاسبانيا . ولكن هذا لم يكن كافيا ، علينا ان نضيف الى ذلك ضيق أفق القيادة البرتغالية والتي لم تفهم ان التجارة دون سيادة وسيطرة حقيقية تستند الى الهيبة من جانب والوظيفة الحضارية ولو من منطلق الاصطناع والادعاء من جانب آخر لا يمكن ان تنتهي الا بالفشل اضف الى ذلك الخلافات الداخلية العنيفة بين القيادات حتى على مستوى التعامل المحلي ، ثم وحشية المستعمر البرتغالي وسوء استخدامه للسلطة الأمر الذي خلق الكراهية المحلية واخيرا يجب ان نضيف عدم المقدرة العسكرية وبصفة خاصة لو قورن البرتغال بالانجليز .

هذا التساؤل يفرض تساؤلا آخر : ولماذا رغم هذا الضعف الواضح لم تستطع المنطقة ان تواجه الاستعمار البرتغالي ؟ لقد

سبق وحددنا القوى المحلية بثلاث : ايران وتركيا والعرب . علينا ان نستبعد منذ البداية الجانب العربي الذي لم يحاول في أي مرحلة من مراحل الاستعمار البرتغالي ان يتكتل في ارادة وقيادة واحدة الا فقط في نهاية هذا الاستعمار في مسقط عندما استطاعت عمان ان تطرد وحدها فلول البرتغاليين . كذلك تركيا لم تهتم حقيقة بهذه المنطقة . ايران رغم بروزها كقوة اقليمية الا انها بدورها كانت تعاني من ثلاث نقائص : عدم قدرة القيادة على ان تبلور نظرية واضحة للتعامل مع الأعداء من جانب ثم عدم وجود قدرة عسكرية حقيقية من جانب آخر اضف الى ذلك اختلال حقيقي في القيادة من جانب ثالث . ولعل أخطر ما يمكن ان يعاب على هذه القيادة انها لم تفهم كيف ان واجبها كان ان تتكتل مع الجانب التركي من جانب والجانب العربي من جانب آخر لطرد القوى الأجنبية الدخيلة في محاولتها التغلغل الى المنطقة . سواء في هذا البرتغاليون أو الهولنديون أو الانجليز . على العكس من ذلك لقد وصل الأمر بشاه ايران ان راح يستجدي الصداقة الانجليزية بل وفي بعض الأحيان نفس البرتغاليين .

ففي عام ١٦١٦ استقبل الشاه السفير دون جارسيا دي سلفيا في محاولة للتحالف ضد الاتراك . بل في عام ١٦٢٥ تم عقد صلح حقيقي بين الجانبين . اما عن التعامل مع بريطانيا فيكفي ان نتذكر كيف ارسل الشاه عباس سفيره نجدي علي بك الى انجلترا يحمل رسالة يقول فيها : «ان ارسل نجدي بك لا ليطلب شيئا سوى مودة صاحب الجلالة وليأمر جلالته تجاره ورعاياه جميعا بأن يقدموا كيفما يشاءون الى بلاد فارس يبيعون أو يشترون أو يمارسون ما يحلو لهم من نشاط ولن يجرؤ أحد على ان يفرض عليهم شروطا من أي نوع[١٩] .

هذه المتغيرات التي فرضت على المنطقة نظاما للتعامل سوف يظل سائدا خلال جميع الفترات اللاحقة وحتى اليوم .

خصائص التعامل في المنطقة :

قصة الاستعمار البرتغالي لمنطقة الخليج عامرة بالدروس والعبر فهي تفصح وبوضوح وصراحة عن مدى ضعف المنطقة وعدم قدرتها على فهم حقيقة الدور الذي تلعبه المنطقة والتي هي قادرة من خلاله على ان تصير عنصرا فاعلا في السياسة الدولية . محور ذلك متغير عن اساسين : التكتل بين القوى الاقليمية في مواجهة أي غزو اجنبي من جانب والقدرة على توظيف الأهمية الاستراتيجية للمنطقة في التعامل مع القوى الفاعلة في الاطار الدولي . خلال هذه الفترة ورغم ضعف القوى الدولية الفاعلة لم تستطع القوى الاقليمية ان تتصدى للغزو الخارجي بأي وسيلة كانت . القوى الدولية الفاعلة التي كانت لاتزال في المهد اذا استثنينا القوة البرتغالية لم تكن بعد قد وصلت الى مرحلة النضج الحقيقي حتى من حيث الادراك . ايضا القوة البرتغالية بسبب ضعفها البنائي وعدم وضوح مدركاتها لم تكن قوة دولية تتطلع الى الوظيفة العالمية بمعنى السيادة والتوجيه والتحكم . كانت كل اهدافها مصالح تجارية واقتصادية محدودة ونسبية . رغم ذلك فالقوى الاقليمية بدت

مترنحة غير قادرة على رفع راية التحدي .. فلا هي تجمعت في قوة وارادة واحدة ولا هي ارتفعت عن مستوى الفرقة المحلية بل وسمحت للقوى الغازية في ان تصير عنصرا اساسيا في التعامل الدولي مع المنطقة عقب القرن السادس عشر .

يصف أحد المؤرخين البرتغاليين أهمية منطقة الخليج بقوله : «هنالك ثلاثة مراكز تعتبر المفاتيح الرئيسية لتجارة الشرق والسيادة على التجارة العالمية : مالقا المتحكمة في مضيق سنغافورة ثم عدن عند مدخل ومخرج البحر الأحمر والمركز الثالث هو هرمز المتحكم في مضيق الخليج العربي[٢٠]. بل وتعتبر مدينة هرمز اهم هذه المراكز جميعها . ثم يضيف «ولو سيطر ملك البرتغال على هذه المراكز الثلاث في الشرق لأصبح سيد العالم . على أن الأهمية الاستراتيجية تتجاوز هذه الناحية حيث تستمد عناصر اخرى من حيث كون هذه المنطقة تمثل عنصرا اساسيا من عناصر المحيط الهندي[٢١] وتخلق حلقة الوصل بين المحيط الهندي ومنطقة البحر المتوسط .

هذه النواحي جميعها تدور حول البعد البحري لمنطقة الخليج . ولكنها تبرز في صورة أكثر خطورة من حيث البعد البري أي من حيث التعامل الدولي على مستوى الاتصال البري ، فمنطقة الخليج اولا موقع رئيسي للتحكم في المواصلات البرية . الاتصال القادم من الشرق والمتجه الى الغرب وكذلك القادم من الغرب والمتجه الى الشرق يجد في هذه المنطقة موقعا متوسطا يسمح بالتوقف والاستعداد لاكمال رحلته . هو نقطة انطلاقة ولكنه كذلك موقع للترقب وللاستمرار في رحلة طويلة في حاجة الى ذلك. لقد درج المؤرخون على الحديث عن طريق الخليج كبديل لطريق البحر الأحمر ومكمل له . وبصفة خاصة قبل فتح قناة السويس . الرحلات العديدة عبر بادية الشام أو عبر صحراء سيناء غمرت تاريخ العصور الوسطى والعصور الحديثة ولكن هؤلاء المؤرخين ينسون مرحلة ثالثة تبدأ من اليمن أو قرن افريقيا وتتجه عبر منطقة الخليج الى اواسط آسيا بل وتصل الى الصين وعاصمتها بكين .

هذه الأهمية التجارية والاقتصادية والتي مردها موقع منطقة الخليج سوف يقدر لها ان تتحول خلال فترة الاستعمار البرتغالي الى اهمية استراتيجية . والظاهرة التي تدعو الى الدهشة هي كيف فهم ذلك قادة العالم الغربي ولم يفهمها قادة المنطقة . لم يفهمها قادة ايران ولا القيادات الهشة العربية . ولكن مما يفرض على المؤرخ التساؤل ان القيادة العثمانية خلال القرن السادس عشر كانت في أوج قوتها ولم تكن تواجهها أي قيادة اوربية قادرة على ان تنازلها وهي امبراطورية كبرى تنتمي الى المنطقة ورغم ذلك :

(اولا) : سمحت لايران ان ترتفع الى مرتبة القوة الاقليمية القادرة على تحديها بل واحتلال العراق بما في ذلك بغداد وان كانت البصرة قد استطاعت ان تصمد ازاء ذلك الغزو .

(ثانيا) : اهتمت بالبحر الأحمر واطلقت قواتها في جميع اجزائه حتى انه وصف بأنه اصبح بحيرة تركية .

(ثالثا) : بل ووجد بها من فهم هذه الأهمية .

فحاكم مصر سليمان باشا في فترة الايناع البرتغالي ادرك ببعد نظر اهمية الخليج العربي بالنسبة للاستراتيجية العثمانية في الشرق بل وقام بحملة عسكرية عام ١٥٣٨ اتجهت الى شواطىء الهند . ولكن هذه الحملة فشلت ولم تكمل جهودها فنقلت قواته الى البحر الاحمر . وهذا يعني ان الأهمية لم تكن واضحة بالقدر الكافي[٢٢] .

وتكفي النزاعات والصدامات المحلية بين الأطراف الثلاثة المنتمية الى الاقليم حكام ايران من جانب ، والقيادة العثمانية من جانب ثان ، والزعماء العرب من جانب ثالث للتأكيد بأن القدرات الاقليمية لم تفهم ولم تدرك حقيقة الوظيفة الدولية والعالمية للمنطقة والقادرة على ان ترتفع لقدر الادراك الواعي لتصير متغيرا اساسيا في الصراع الاقليمي من حيث علاقته بالنظام الدولي للتعامل .

ناحية اخرى تدعو لكثير من التساؤلات وهي خصائص الصراعات التي تدور في المنطقة وحول المنطقة ، هذه الخصائص التي تبرز واضحة من متابعة احداث القرن الذي تعرضنا له في الصفحات السابقة لاتزال لم تتغير حتى عالمنا المعاصر ورغم اختلاف المتغيرات ، الأمر الذي يدعو الى طرح هذا التساؤل : هل هذه الخصائص تنبع من طبيعة الواقع الاقليمي الذي لايزال يفرض نفسه كمتغير ثابت ومتحكم في اطار التعامل المحلي والدولي ؟

نستطيع ان نميز في هذه الخصائص بين خمسة عناصر اساسية :

(اولا) : فهي صراعات متعددة الأوجه بحيث يكاد يستحيل الفصل بخصوصها بين ناحية واخرى أو بعد وآخر ، هي صراعات شخصية من جانب وقومية أو ذات بعد جماعي من جانب ، حيث الناحية الاقتصادية تتداخل مع البعد السياسي بل والحضاري حتى ان محاولة فصل أي من ابعادها والتعامل بحياد واستقلالية هو امر صعب المنال . ان تطبيق فلسفة الخطوة خطوة على الصراعات في منطقة الخليج يكاد يستحيل تصوره ، فالصراع حول منطقة شط العرب على سبيل المثال يملك بعده الاقتصادي الواضح ولكن تتداخل في ذلك البعد طبيعة الصراع الحضاري بين الجانب القاري والجانب العربي حيث يكاد يغلف هذا الصراع الحضاري نزعة دينية واضحة ولا صلة لها بموضوع الصراع . ولو عدنا الى الفترة التي تعرضنا لها في هذه الدراسة لوجدنا هذه الحقيقة واضحة خلال المرحلة الاخيرة من مراحل الاستعمار البرتغالي عندما تقلص الوجود البرتغالي حول مسقط . رغم ان هذا الصراع في جميع مراحله لم يغلفه طابع الدين أو عنصر الصدام بين المسلمين من جانب والمسيحيين من جانب آخر الا ان الحركة العمانية انطلقت من مفهوم الجهاد وكان العامل الديني هو اساس حركة الوحدة العمانية في مواجهة الوجود البرتغالي .

(ثانيا) : الصراع في منطقة الخليج تتداخل مظاهره وتعبيراته الواحد مع الآخر بل وتعود الى فرض عملية الترابط مع الصراعات الأخرى في الاقاليم والمناطق المحيطة بمنطقة الخليج . لقد كانت جميع الصراعات حول منطقة الخليج تترابط بشكل واضح ومذهل ليس فقط مع المناطق المحيطة مباشرة

بالخليج بل وتمتد في بعض نتائجها ومظاهرها الى اجزاء بعيدة من الخليج في المحيط الهندي وافريقيا . عندما استطاع حكام عمان التخلص من البرتغاليين في مسقط لم يترددوا في ان يتبعوهم في الهند وشرق افريقيا . الصراع بين البرتغاليين والانجليز في الخليج كان امتدادا بدوره لصراع اكثر اتساعا في الهند وانعكست آثاره على الوجود الاستعماري لكلا الطرفين ايضا في الهند(٢٢) .

(ثالثا) : التداخل المستمر والثابت بين الصراعات المختلفة في منطقة الخليج مع الأزمات الداخلية والمتعلقة بأوضاع امارات المنطقة من حيث علاقة القوى الحاكمة ذاتها وفيما بينها . ولعل خير نموذج لذلك هو وضع عمان خلال الربع الثاني من القرن السادس عشر وكيف أثر ذلك في تدعيم النفوذ البرتغالي . في عام ١٥٢١ اتفق حكام البحرين والقطيف وبعض زعماء القبائل العربية على مداهمة الحاميات البرتغالية . ولكن في اللحظة الاخيرة شذ حاكم مسقط . والسبب الحقيقي في ذلك هو ان العثمانيين كانوا قد بدأوا يفكرون جديا في احياء الامامة . ولكنهم لم يستطيعوا الاتفاق على زعيم ديني واحد :

(رابعا) : على ان اخطر ما يميز الصراعات الخليجية هو الدور الخطير الذي تلعبه تلك الصراعات مع المشاكل الدولية والصراعات العالمية . بدت منذ تلك الفترة حقيقة موقع الخليج من التوازنات الدولية رغم عدم ادراك القوى الاقليمية وبصفة خاصة الدولة العثمانية . ويتجلى ذلك في أكثر من حقيقة :

١ ـ فالصراع بين فارس والدولة العثمانية تبلور في تحالفات تبعد عن المنطقة وتتحدد فقط بهذا الخلاف ، فإزاء الصراع القوي الذي قد بين الباب العالي وكل من ملك اسبانيا وامبراطور النمسا لم يتردد شاه ايران في ان يعرض على هذا الاخير استعداده للتعاون معه ضد حكام القسطنطينية وقد ترتب على ذلك تجدد الحرب مع فارس من الجانب العثماني وكان وقتها يحكمهم السلطان سليمان القانوني قرب منطقة الخليج .

٢ ـ في عام ١٦١٨ ورغم ان الاسبان الذين كانوا قد تولوا مسئولية السياسة البرتغالية كانوا قد بدأوا يفكرون جديا فى الصدام مع الفرس الا ان ملك اسبانيا في محاولة واضحة لتطويع القيادة الايرانية عرض مبدأ التحالف بين البلدين على اساس مرابطة اسطول برتغالي عند باب المندب لمنع مرور التجارة بين مصر والولايات العثمانية من جهة والبحار الشرقية من جهة اخرى . وفعلا عندما ابحر الاسطول الاسباني عام ١٦١٩ الى المحيط الهندي كان هدفه المعلن اقفال باب المندب في وجه السفن العثمانية ورغم ان اهدافه الحقيقية كانت ايضا اعادة السيطرة التجارية على منطقة الخليج .

٣ ـ كذلك فقد سبق ورأينا كيف ان حكام عمان لم يتوقفوا عند مناهضتهم للبرتغاليين عند منطقة الخليج بل تابعوهم الى الهند وكذلك في شرق افريقيا .

(خامسا) : على ان اخطر ما نلاحظه هو عدم قدرة قيادات المنطقة على فهم امكانياتها باتباع سياسة اقليمية واضحة :

١ ـ فحكام فارس لم يتعاملوا في أي موقف

خلال هذه الفترة مع القوى المحلية بحسن نية وارادة تعاون حقيقية ، ليس فقط مع الدولة العثمانية بل وكذلك مع القيادات العربية . ومما لا شك فيه ان خصائص الساحل الشرقي أي العربي وبصفة خاصة خلال تلك الفترة شجعت على ذلك . فهي منطقة قليلة السكان ولم يوجد بها حتى ولو في شكل مبسط دولة منظمة . ولكن هذا كان ادعى لأن تتجه القوى المحلية القادرة على ذلك الى تكتيل القوى . على العكس من ذلك فإن فارس لم تجعل تحالفها الا مع الاعداء الحقيقيين للمنطقة سواء الانجليز أو البرتغاليين .

٢ ـ ولعل خير نموذج يعبر عن هذه الفرقة هو عندما حدث صدام حربي بين القوتين البرتغالية والعثمانية في عام ١٥٥٩ حول البحرين . والغريب في هذا الصراع ليس فقط ان الفرس لم يمدوا أي نوع من المعونة الى القوات العثمانية لطرد المستعمر الاجنبي بل ان حاكم البحرين ورغم انه مسلم ظل مواليا للقيادة البرتغالية وقد كان ذلك أحد الاسباب الحقيقية في فشل العثمانيين وانسحابهم الى قواعدهم في البصرة .

٣ ـ كذلك يجب ان نعترف بأن القيادة العثمانية لم تدرك اهمية وضع أسس سياسية للتعاون الاقليمي في مواجهة هذا التسلل الاوربي والذي كان يسيطر عليه ايضا مفهوم التبشير . ويتجلى ذلك في أكثر من موقف واحد . فحاكم هرمز المحلي العربي المسمى شرف الدين كان من بين من استنجدوا عام ١٥٤٦ بالدولة الاسلامية الكبرى بل وكتب الى والي بغداد التركي يغريه بمهاجمة البرتغاليين في هرمز . وعندما اقتنعت بذلك الاستانة ارسلت قوة لم تتعد جهودها القيام بمظاهرة بحرية امام مسقط(٢٤) .

٤ ـ ولعله مما يدعو للتساؤل كيف ان الخليفة العثماني لم يدرك مدى خطورة الأهداف التبشيرية خلف حركات المد الاوربي في المنطقة وبصفة خاصة منذ تحرك الاسطول الاسباني في عام ١٦١٩ نحو منطقة الخليج . لقد كانت القيادة مناصفة بين زعماء يمثلون الطوائف التبشيرية بهدف غزو فارس وجميع اجزاء المنطقة بما في ذلك العراق ومدينة البصرة على وجه التحديد وقادة عسكريين . بل والغريب ان رجال الدين هم الذين كانوا يتحمسون الى الحرب والقتال . ان الخليفة العثماني هو الذي تصدى للغزو الاسباني باسم التبشير لبلاد الاسلام في شمال افريقيا فلماذا لم يتصد بدوره لذلك في منطقة الخليج حيث وصلت حركات التبشير الى نفس مدينة الموصل ؟ ولماذا لم يجعل تعامله مع شاه ايران اساسه حركة التوحيد أو التعاون بل وحتى الاستئصال كمقدمة لرسالة الجهاد ؟

استفهامات عديدة تطرح نفسها وبصفة خاصة ونحن نعيش اليوم خبرة مماثلة . والواقع ان التماثل في الخبرة لا يقتصر على موضوع التعامل الدولي في المنطقة وحول المنطقة ، بل ان التماثل يقودنا الى نفس استراتيجية التعامل العسكري .

الهوامش

١ ـ انظر التفاصيل في حامد ربيع ، الابعاد الاستراتيجية لصراع القوى الكبرى حول الخليج العربي ١٩٨٣ ، ص ٤٧ وما بعدها ، كذلك لنفس المؤلف نظرية الأمن القومي العربي ١٩٨٤ ، ص ٣٠٢ وما بعدها .

٢ ـ المفاهيم الاستراتيجية التي نطرحها في هذه الدراسة ورغم انها محدودة وقليلة الا اننا تناولناها بالتفصيل في محاضراتنا بمعهد البحوث والدراسات العربية خلال العامين الماضيين وسوف تبرز في مؤلف كامل خلال العام القادم بعنوان الابعاد الاستراتيجية للصراع العربي الاسرائيلي

٣ ـ انظر بهذا الخصوص الى جوار المرجع السابق ذكره المؤلفات التالية :

LEYMAIRE, Ocean Indien, le Nouveau Coeur du Monde, 1981.

COMPREDON, SCHWEITZER, France, Ocean Indien, Mer Rouge, 1986.

DA LAGE, Alt., Yeux de Go En Mediterrane´e Orientale, 1968.

٤ ـ التفاصيل يجدها القارىء في :

CAFASNA, Storia e Modelli; le Pratica Storio grafica in De Luna, Alt., Glu Strussenti Dellericerla, Vol. II, 1983, P. 1381.

المصادر يجدها القارىء في نفس المرجع ص ١٣٧٩ ـ ١٣٨٠ .

٥ ـ قارن بايجاز :

GRAWITZ, Me'thodes des Seilices Sociales, 1981, P. 493

٦ ـ انظر بالتفاصيل : حامد ربيع نظرية التحليل السياسي . مذكرات كلية الاقتصاد جامعة القاهرة . ١٩٧٩ . ص ٢٢٩ وما بعدها .

تاريخ الخليج لايزال في حاجة الى دراسة جادة . الى جانب مجموعة الدراسات التقليدية المعروفة والتي سوف نشير اليها فيما بعد كمصادر توثيقية ، فإن الخليج لم يخضع لأي دراسة معاصرة جادة تتميز بالاحاطة من جانب والتفصيل من جانب أخر تتعدى المنهاجية التقليدية من سرد للأحداث دون التحليل والغوص في المتغيرات الدفينة خلف الوقائع .

انظر على سبيل المثال :

مصطفى النجار ـ وآخرون ـ تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر ١٩٧٤

ـ محمد رشيد النيل ـ الاهمية الاستراتيجية للخليج العربي ١٩٧٤ .

- فاروق عمر - تاريخ الخليج العربي ١٩٨٥ .

٨ - كذلك وفي نفس المعنى :

RAMAZANI, The Gulf and the Strait of Hormuz, 1979.

لاحظ رغم ذلك التفرقة الجوهرية بالنسبة للنظام البرتغالي حيث انه لم يهتم بالسيادة العالمية والتي تجعل موقفنا يختلف عن موقف الكاتب السابق ذكره .

٨ - ولعل هذا يوضح لماذا يمكن وصف النظام الدولي في منطقة الخليج بأنه نظام اقليمي ويفسر ذلك لماذا لا نستطيع ان نطلق كلمة نظام اقليمي على النظام الذي يسود حاليا الوطن العربي . انظر نقدنا بخصوص هذا الاصطلاح الاخير الذي يحمله احد مؤلفات مركز دراسات الوحدة العربية في : حامد ربيع . الحوار العربي الاوربي ومنطق التعامل الدولي الاقليمي . ١٩٨٣ - ص ٢٨٦ وما بعدها .

٩ - في محاضرة عامة القيت في ابوظبي في شتاء عام ١٩٨٠ لفتنا نظر القيادات المسئولة الى احتمالات حرب الخليج وحذرنا من انها تنبع من مؤامرة دولية واسعة النطاق .

AMIRSADEGHI, The Security of the Gulf, 1981.

AMINI, Political and Strategic Issues in the Gulf, 1984.

ABIR, Oil Power and Politics: Conflict in Arabia, the Red Sea and the Gulf, 1979.

١٠- تاريخ الاستعمار البرتغالي للمنطقة لم يخضع حتى الآن لأي دراسة جادة باللغة العربية . في تحليلنا للوقائع استندنا الى مصادر ثلاثة اساسية وحيث كانت هناك خلافات بين هذه المصادر ابرزنا في معرض الاستدلال اسباب ترجيح رواية على اخرى . المصادر التي استندنا اليها اساسا هي :

- المصدر التقليدي والاجنبي والذي لايزال رغم مرور قرابة سبعين عاما على اصداره وهو مؤلف لوريمر والذي نشر باللغة العربية بعنوان «دليل الخليج» وقد اعتمدنا بصفة خاصة على الجزء الأول من القسم التاريخي طبعة قطر .
- البحث الهام الذي قدمه صلاح العقاد بعنوان «دور العرب والفرس في مكافحة الاستعمار البرتغالي في الخليج» الى ندوة الدراسات العمانية في نوفمبر ١٩٨٠ بعنوان «حصاد» المجلد الرابع ١٩٨١ ، ص ٥٩ وما بعدها .
- الدراسة التى ندين بها للمؤرخ العراقي محمود علي الداود، العلاقات البرتغالية مع الخليج العربي : ١٠٥٧ - ١٦٥٠ ، بمجلة كلية الآداب ، جامعة بغداد ١٩٦٠ . ص ١ وما بعدها . ويكمل ذلك بحث آخر لنفس المؤرخ بعنوان «تاريخ العلاقات الهولندية مع الخليج العربي : ١٦٣٠ - ١٧٦٠ . نفس المجلة ، ١٩٨١ ، ص ٢٦١ وما بعدها .

كذلك يستطيع الباحث ان يجد مصادر اخرى في المؤلف الثاني ص ١٠٥ ويغلب عليها الطابع العربي . وفي المؤلف الثالث ص ٢٥ ويغلب عليها الطابع الاجنبي

ولكنها جميعها قديمة احدثها يعود الى بداية القرن العشرين . لاكمال هذه المصادر بتوثيق اكثر دقة واكثر حداثة يستطيع القارىء ان يعود الى :

KELLY, Arabia the Gulf and the West 1980, P. 505-510.

١١- لوريمر ، م. س. ذ ص ٤٦ - ١١

١٢- مطابق نفس المرجع ص ١٣

١٣- نفس المرجع ص ١٥

١٤- انظر في معنى مختلف العقاد م. س. ذ ص ٦٧ حيث يرى في الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين صورة لما سيكون عليه الصراع بين العثمانيين والبريطانيين وهذا ما يعني فهما مختلفا لحقيقة الاستعمار البرتغالي .

١٥- انظر لوريمر ، م. س. ذ ص ٤٦ -٤٧

١٦- اورده لوريمر م. س. ذ ص ٣٠

١٧- انظر بالتالي ، نفس المرجع ص ٢١٨ ، ١٩ ، ٢٠

١٨- انظر ايضا نفس المرجع ص ٣٨ ، ٢٩ ، ٥٠ ، ٦٥ . كذلك العقاد م.س. ذ ، ص ٩٣ وما بعدها الداود، العلاقات البرتغالية ، م. س. ذ ، ص ١٣ وما بعدها .

١٩- انظر العقاد م. س. ذ وما بعدها .

٢٠- اورده الداود ، تاريخ العلاقات الهولندية مع الخليج العربي ، م.س. ذ. ص ٢٦١ .

٢١- انظر من بين المصادر العديدة المراجع التالية : MAZERAN, L' Ocean Indien, pour l' occident, 1987.

JAWATKAR, Diego Garcia in international diplomacy, 1982.

BHARGAVA, South Asian security after Afghanistan, 1985.

AHSAN, Strategic concepts of the Indian Ocean, 1981.

LABROUSSE, a. Ocean Indien et le Golfe Persique dans la strategie mondiale, in Rev. Iranienne, 1976, P. 43.

٢٢- انظر لوريمر ، م.س.ذ ص ٥٥ ، العقاد ، م.س.ذ ، ص ٦٥ .

٢٣- انظر العقاد ، م.س.ذ ص ٨٥ وما بعدها .

٢٤- العقاد ، م.س.ذ ص ٦٥ .

كذلك نحيل القارىء الى المصادر التالية التي اغنت في بعض عناصر الدراسة :

CABLE, Diplomacy at Sea, 1985, P. 120.

PECK, The United Arab Emirates, 1986, P. 26-27.

HAEGAN, WHEATCROFT, Zones of conflict, 1986, P. 44.

BEGARIE, Mare nostrum: esquisse d'une ge´ostrategie de le me´diterranie, in He´rodote, 1987, m°49, P. 31.

TRUVER, The strait of Gibraltar and the Mediterranean, 1980.